دار الشروق

جمال الغيطانى

حكايات المؤسسة



حكايـات المؤسسـة

طبعة الشروق الأولى

١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م

أسسها محمد المعلم عام ١٩٦٨

القاهرة : ٨ شارع سيبويه المصرى -
رابعة العدوية - مدينة نصر
ص . ب : ٣٣ البانوراما - تليفون : ٤٠٢٣٣٩٩
فاكس : ٤٠٣٧٥٦٧ (٢٠٢)
البريد الإلكتروني: email: dar@shorouk.com

جمال الغيطانى

حكايات المؤسسة

دار الشروق

فى أصل البناية

. . عندما شرع استخف البعض وانتقده آخرون سراً وعلانية، أكد بعضهم أنه مغامر يبدد ما جمع، لا يدرك الحقائق ولا يقدر الواقع.

تساءل أحدهم: من سيقصد هذا المكان النائى، وسط الغيطان، بعيداً عن المدينة، عن الطرق الرئيسية السالكة رغم قربه من النيل؟

كانت إمبابة وميت عقبة وبولاق الدكرور وأبو قتاتة مناطق تعد من الريف وقتئذ، اعتبرها القاهريون أماكن نائية لا يقصدها إلا التجار الذين يجلبون منها الخضر والفاكهة، أو طلاب النزهات الخلوية.

لم يعبأ المؤسس بهذا كله، كان مقتنعًا تمامًا، لذا أقدم، اشترى سبعة فدادين، منها ثلاثة مزروعة وأربعة بور، مهجورة منذ حوالى قرن، عندما انخسفت الأرض إثر زلزلة مهولة أظلمت بعدها السماء ثلاثة أيام متوالية وسقط ما يشبه البرَد، ومكثت الأرض ترجف أربعين يومًا، بعد تلاشى الزلازل ظهرت حفرة مستديرة، قطرها حوالى مترين، تشبه بئر الساقية ولكن قرارها غير باد، كما لا يلوح فيها ماء.

صاحب الأرض وقتئذ رجل محبوب، حتى وقت قريب كان يوجد من يذكره ويصفه كأنه قائم أمامه، كان مهيبًا، راسخًا، عنده جلد وصبر

ونبوءة، اتخذ احتياطات عدة لا شك أنها أنقذت كثيرين كان يمكن أن يختفوا إلى الأبد، بعد أن أحاط الفوهة بالجريد، كان عمقها مثار أقاويل وخيالات شتى، أحضر جذع نخلة ذكر. فلقه إلى نصفين، تعاون مع ولديه على حمل أحدهما ورماه فى الفتحة حتى يتبين عمقها، وإلى أى حد تغور فى الأرض؟

هوى الفلق، أصغى جيداً، لكنه لم يسمع صوتا ينبىء بارتطامه، استقراره على قاع، كأنه تبخر. التفت إلى ابنه الأكبر، قال إنه لم يعد لهم مقام هنا، ثم التفت إلى ولده الأصغر، قال إنه لا مفر من مفارقة المكان.

إلى أين؟

عبثًا كل الجهود التى بذلها الجيران والأقارب معه، رفض أن ينبئهم بوجهته، لم يفض إلى أسرته بمقصده. بدا وهو يحثهم على لملمة أغراضهم وحاجاتهم كأنه يتأهب للفرار من خطر قادم محدق.

عندما ولّى وجهه صوب الجنوب كان يبكى، كذا امرأته وأولاده الذين لم يكن بوسعهم إلا طاعته. مع خروجهم من دائرة الرؤية، انقطعت أخبارهم. ذوى أثرهم، لم يبلغ أى من الجيران ولو قبسًا من سيرتهم، كأن الأرض انشقت وبلعتهم، مع انقضاء السنوات على غيابهم لم يقرب إنسان الغيط. ولم يحاول زراعته.

أربعة فدادين ليست بالمساحة الضئيلة فى ريف تقاس أرضه بالشبر والذراع. ويقتتل القوم من أجل بضعة سنتيمترات، ظلت تلك الثغرة المفتوحة مصدر رهبة، ومع الزمن توارث القوم الخشية منها، ومن المؤكد

أنها سبب رئيسى، وربما وحيد لعدم الاقتراب من الأرض، وامتناع أى إنسان من أهالى الناحية عن تقليب التربة.

تناقلت المخاوف من جيل إلى آخر، يتطلع الجميع ناحيتها بخشية، كأن قوة ما لا يدرون مصدرها أو كنهها سوف تنقض عليهم لتدفعهم إلى المجهول، لو زلت قدم أحدهم، لو ضلَّ أحدهم طريقه إليها عند عودته ليلاً لابتلعه العدم!

نبتت حشائش غريبة، تحجرت أجزاء من التربة، تشققت مساحات أخرى. حاد الناس عن الخطو فوقها حتى فى ذروة النهار. عندما جاء المؤسس قصد شراء الأفدنة الثلاثة العامرة، دفع ثمنها نقداً. لم يتجاوز سعر الفدان الواحد مائة جنيه بمقاييس الوقت. ثمن جد بخس بمعدلات الأزمنة التالية.

لكن.. هل كان يعلم مسبقًا بأمر الثغرة؟

يؤكد المعمرون الذين شهدوا قدومه بنظرات حزينة وملامح كمدة أنه عند وصوله للمعاينة اتجه مباشرة رغم تحذيرات الجميع، أطلَّ على الفتحة التى لم تفقد استدارتها. أصابع يديه تتلامس وراء ظهره. ثم أمسك حجراً مستديراً، ألقاه بقوة، أصغى، اعتدل واقفًا. هز رأسه مرتين. تراجع متمهلاً على مرأى من القوم الذين لم يخفوا دهشتهم، وإن كتموا ضيقهم، ذلك أن مجيء غريب لا يعرفون عنه شيئًا لامتلاك أرض فى الناحية التى ولدوا فيها أبًا عن جد، أمر لا يثير الاطمئنان أبداً، ألا يقال دائمًا: الجار قبل الدار؟

ما البال إذن والقادم الجديد غريب تمامًا. ثوبه ليس من ثوبهم وأمره

مختلف عنهم، بل إنه ينتمى إلى سادة المدن الذين يتطلعون إليهم دائمًا بريبة.

لم يمض إلا أسبوع واحد فقط، وبدأ توافد المهندسين والملاحظين والعمال، الغريب.. أنهم قصدوا الأرض البور، المهملة التى لم يشترها المؤسس، لسبب بسيط، أنه ما من مالك لها، بعد هجاج صاحبها صارت مشاعًا لكنها لا تطرق، مهجورة بسبب هذه الفوهة المؤدية إلى اللاقرار.

سرعان ما ظهر سوران من حجارة بيضاء مصقولة قيل إنها جلبت خصيصًا من محاجر تقع قرب العلمين فى الصحراء الغربية، لها خصائص يعرفها البناءون ورجال المقاولة.

السور الأول دائرى يحيط تمامًا بالفوهة، يرتفع إلى ما يوازى صدر رجل بالغ، متوسط القامة، ورغم ذلك سقط فى البئر السحيق أول عامل من الغرباء، وأصله من الواحات البعيدة، الداخلة، وما زال الورثة من أحفاده يتقاضون معاشًا شهريًا من أموال المؤسسة، رغم أنه كان يتبع مقاولاً صعيديًا مقيمًا بالإسكندرية اقتصر عمله على بناء السورين وتمهيد الأرض والطرق المؤدية لاستقبال معدات بناء حديثة لم تستخدم من قبل فى مصر حتى ذلك الوقت، منها خلاط الأسمنت الآلى، والونش الرافع ذاتى الحركة، ومولدات الكهرباء.

لم يتوقف صرف المعاش طبقًا لوصية المؤسس التى احترمها المسئولون عن الإدارة حتى فى زمن التأميم الذى يعتبره البعض بداية الحقبة الشيوعية أو كما يصفه آخرون بالعصر الشمولى.

السور الثانى أحاط الفدادين السبعة كلها. بدا واضحًا أن الرجل

القوى القادم من المدينة وضع يده على المساحة كلها، ردّد خصومه فيما بعد أنه لم يدفع مليمًا مقابل الأرض المهجورة، لكن المخلصين من القدامى يؤكدون أن هذا غير صحيح، وأن ما جرى فى الواقع مختلف تمامًا عما قيل وما أحاطته الجهات المعادية ومنها أجهزة معينة فى الدولة، ويشيرون إلى اجتماع سيادته بكل المعمرين من أبناء الناحية، ملاك ومستأجرى الأرض، وخلوته بهم، ثم إظهارهم الابتهاج، وإصرارهم على ذبح عجل بتلو تحيَّة له وأوز وبط وحمام، كل بيت قدم ما يمكنه، قعد فوق الأرض وأكل معهم، وشرب الشاى، ثم أدى صلاة العصر. بعدها صحبوه حتى عربته السوداء التى انتظرت عند بداية الطريق الممهد، صحيح أنه ما من واحد يوجد منهم الآن للتأكد. أو الاستفسار. لا من أولئك الذين حضروا لقاء المؤسس ولا من ذريتهم، لا وجود للأراضى المزروعة نفسها، خلال عشرين عامًا فقط انتشر البناء، وبعد عشر سنوات أخرى قامت حول المكان أحياء جديدة عدت من مناطق القاهرة الحديثة. ومنها المهندسون، والصحفيون، والدقى الذى لم يكن يوجد به إلا مبنى وزارة الزراعة، وهذا يثبت بعد نظر المؤسس. ونفاذ رؤيته. وفساد ما تردد عنه فى البداية.

عندما بدأت أعمال التمهيد والحفر، لم يتخيل إنسان، حتى من أولئك الذين خبروا التربة وعرفوها أن عمقها سيصل إلى هذا الحد، أكثر من أربعة عشر مترًا والطين الأسود الرخو ينز خصوبة وثراء، تراكم طمى النهر القريب منذ آلاف السنين، أثناء الحفر عثروا على بقايا قارب عتيق كأن الصانع فرغ منه بالأمس، طرازه غير مألوف ولا يعرف مثله، أهداه المؤسس إلى مصلحة الآثار التى شكلت لجنة علمية ناقشت ودرست

وصاغت تقريراً نشر ملخص له فى الجريدة المحلية الناطقة بالإنجليزية. أكد أن وجود القارب يدل على مجرى النيل القديم، كما أن النقوش المحفورة عليه تلقى أضواء جديدة على العصر الصاوى، عُرض القارب فى المتحف المصرى داخل صوان زجاجى، أرضيته من مرآة مصقولة بلچيكية الصنع، ظل القارب سليمًا حتى منتصف الستينيات عندما وقعت المحنة الكبرى التى أطاحت بالأسس، فى الوقت نفسه بدأت الصحف تنشر أخباراً مقتضبة عن تلف حبال الليف المجدولة التى تشد أخشاب القارب، وتحللها السريع، مما دعا إدارة المتحف إلى مخاطبة وزير الثقافة لإصدار بيان عالمى يناشد الهيئات والعلماء المتخصصين المبادرة لإنقاذ هذا الأثر النفيس، يبدو أن الفطر الغامض الذى تم رصده نال من مقتنيات أخرى أهم بكثير منها مومياء رمسيس الثانى التى حار فى علاجها العلماء حتى وقت تدوين هذه الصفحات.

شخص واحد ربط بين إقصاء سيادته عن المؤسسة وظهور هذا الفطر، إنه الجواهرى أقدم وأخلص العاملين. بل إنه أرجع الكوارث والمحن كافة التى لحقت الخاص والعام إلى هذا السبب.

فى المكتب المركزى الذى تعاقب عليه رؤساء عديدون بالطابق الأخير من البناية الأولى، يستقر جزء صغير من خشب الدفة داخل مثلث زجاجى شفاف جداً، يشبه ذلك المستطيل الذى يضم قطعة من صخور القمر، المعروضة فى مدخل إحدى بنايات الأمم المتحدة بالمقر الأوروبى. يؤكد بعض خبراء التحف أن صانعها واحد، ولكن المثلث أعد قبل المستطيل بسنوات عديدة.

غير أن موضوع القارب أكثر غموضًا وتعقيداً مما هو مدون على تلك

اللوحة الصغيرة المثبتة عند مدخل غرفة العرض . أو فى المراجع الرسمية لهيئة الآثار ، وما تحويه سطور دائرة المعارف الفرعونية المطبوعة بالتعاون مع المتحف البريطاني .

الأمر ليس بهذه السهولة إذا أخذنا في عين الاعتبار ما يتردد فى المؤسسة ، بداية . . هل كان سيادته على علم بوجوده؟

هل وقف على دلائل أو إشارات؟

الحق . . ما من إجابة قاطعة ، لكن ثمة أقاويل تتردد ، طبعًا . . القارب ليس محورها تمامًا ، ولا أخشابه النادرة ، ولا النقوش الدقيقة ذات القيمة العلمية ، لكن الاهتمام كله بحمولته النادرة التى يبدو أنها غرقت معه فى الماضى السحيق ، البعض حددها بدقة ، عشر أوان فخارية تحوى عملات ذهبية عتيقة ، يبدو أنها حوت خراج بلاد النوبة ، أو الوجه القبلى ، كانت مقدمة القارب متجهة إلى الشمال ، ولكن يبدو أن بعض النقوش يوضح ذلك .

يقول آخرون إن سيادته اطلع على إشارات معينة فى بردية كانت محفوظة فى متحف المتروبوليتان أثناء دراسته فى جامعة كولومبيا ، عشق الآثار وعلم الحفريات رغم أن كلية الاقتصاد التى التحق بها كانت بعيدة عن ذلك تمامًا .

بعد إقامة السور حول الأفدنة السبعة وإحاطتها ، بدأت عملية تجريف استمرت سنة بأكملها ، لم يتخللها يوم إجازة واحد . حتى بدت الصخور الأرضية الوعرة عند عمق كبير تفاوت من فدان إلى آخر ، بيعت كميات طمى هائلة بعد أن تم نزحها إلى قمائن الطوب المنتشرة جنوب العاصمة

وشمالها، ويؤكد العارفون أن معظم العمارات الحديثة التى شيدت فى الأربعينيات وبداية الخمسينات كانت من هذا الطوب.

هل تمت عملية التجريف تلك بهدف بيع الطمى الكثيف الذى جنى منه أموالاً تجاوزت ما دفعه فى الأرض عينها عدة مرات مما شجع آخرين على ذلك، ولم يوقفهم صدور قوانين أو قرارات، أم للوصول إلى القارب الذى ظهر بعد حوالى ستة شهور من العمل، وحضر سيادته بنفسه استخراجه. وقام بفحصه ودخوله والانحناء على كل جزء فيه، ولم يبلغ مصلحة الآثار إلا بعد مرور ثلاثة أيام أمضاها كلها مقيمًا على مقربة من الحفرة اللانهائية؟

رغم صدور عدة كتب عن تاريخ المؤسسة، يتردد أنه كتب بعضها بنفسه وأصدرها بأسماء مؤرخ معروف، وباحث اجتماعى، وأستاذ جامعى، دفع لهم بسخاء، إلا أن هذه المؤلفات لم تحو إلا سطوراً معدودات عن القارب، ولكن ما من كلمة واحدة عن الذهب، عن الكنز.

أشار سيادته فى كلماته التى ألقاها فى المناسبات المختلفة إلى اكتشافه القارب، وحرصه على إخراجه سليمًا وحضور رجال الآثار ومدير متحف الفن الإسلامى، كان فرنسيًا فى ذلك الوقت، رغب مشاهدة القارب رغم أنه أثر فرعونى.

يبدو أنه كان يرد ضمنًا على إشاعات أو أقاويل تناولت أوانى الذهب، غير أن بعضًا من قدامى العاملين يؤكدون أنه لولا هذا الكنز لما ارتفع المقر عشرة طوابق فى زمن كانت أعلى بناية فى القاهرة كلها لا تتجاوز الستة أو السبعة. جاء تحفة هندسية، بتصميمه الذى يشبه هلالاً تتوسطه نجمة

مخمسة، هكذا يبدو لهواة الطيران الشراعى، ولطلبة مدرسة الطيران إذ يحلقون فوقه أو حوله بعد انطلاقهم من مطار امبابة.

كل شيء أعدّ بدقة، حتى أن مصاعده الثلاثة لم تتوقف بسبب أى عطل فنى لمدة أربعين سنة. أما النظام الخاص بالمياه والصرف الصحى قبل مد الشبكات العمومية إلى هذه الناحية فهو مما يعد إنجازاً علميًا بمقاييس الوقت، ومازال يدرس فى كلية هندسة القاهرة.

فاض الكنز عن حاجة المؤسسة، واستخدم جزءاً منه فى دعم رأس مال الشركات التابعة بعد تأسيسها، وخلال الأزمة الاقتصادية الكبرى فى الخمسينيات.

عندما صدرت القرارات الاشتراكية وبادر إلى إشهار ولائه من خلال إعلان مدفوع، وتصريحات صيغت فيها بعناية، وبرقيات مطولة، بدأ عملية تهريب الكنز إلى الخارج وتمكن من نقله وإيداعه فى بنك يقع فى مواجهة القاعة التى عقد فيها المؤتمر الصهيونى الأول فى مدينة بازل.

اتفق مع إدارة البنك على ألا يتم التصرف فى أى جزء إلا من خلال اتصال هاتفى يجريه هو شخصيًا، ومن خلال بصمة صوته الخاصة.

هذه البصمة فقدها تمامًا بعد إصابة حنجرته بالمرض الخبيث، هكذا أضاع الكنز، وبدد ثروة كان يمكن أن تدفع اقتصاد البلد، وخطة التنمية الأولى.

يؤكد كارهوه أنه هرّب الذهب لحظة اكتشافه المرض، وأنه كان على علم بقرب محو معالم صوته، ولم يكن مثل ذلك معهوداً فى البنوك، بل إنه أول من استخدم ذلك، كان هدفه الحقيقى حرمان النظام السياسى من

الذهب، خشية اكتشافه بعد رحيله. لو ظل هذا الذهب لاعتبر سندًا متينًا للاقتصاد القومى، خاصة بعد نزيف حرب اليمن، وهزيمة حزيران/ يونيو، أما تأييده العلنى المستمر فلم يكن إلا غطاء متقنًا لكراهية النظام. بل. . للبلاد، ليس ذلك فقط، إنما لعب دورًا تخريبيًا، وأنه ما زال مؤثرًا، كما أنه أخفى قبل وفاته وثائق خطيرة، مهمة جدًا، تتضمن خرائط دقيقة لمواقع حقول النفط فى الصحراء الغربية، لو تم التوصل إليها لأصبحت مصر من أغنى دول المنطقة، لكن هناك قوى عالمية حريصة على إبقائها ضعيفة.

المؤسس يخفى هذه الوثائق، وربما ما تبقّى من الكنز، وليس ما يتردد حول البنك السويسرى إلا تمويها متقنًا، يخبىء هذا كله فى تلك الحفرة الدائرية التى لا توجد جهة فى مصر تعرف عمقها الحقيقى. حتى أن العلماء الذين وفدوا بناء على طلب الدولة من بلاد مختلفة، عجزوا بخبرتهم وعلمهم، وأجهزتهم الحساسة تحديد المسافة، أكدوا أن العمق لا يقل عن أربعين كيلومترًا، وأنه يفضى مباشرة إلى الجزء المنصهر من جوف الأرض.

عندما تم تصميم البناء، طلب سيادته أن يكون المبنى محيطًا بالفتحة إلا من جهة واحدة، كان الهلال أنسب الأشكال الممكنة، الموفية بالغرض، لذلك يشير البعض إلى الفوهة قائلين إن رخاء مصر يكمن هنا، لكن. . كيف الوسيلة؟ غير أن أخلص المعاونين، ومعظم رجال المؤسسة، وقطاعًا عريضًا من المتعاملين، معها لهم رأى آخر.

أبرزهم وأهمهم الجواهرى، يقول بحسم إن مثل هذه الأقاويل

وجـدت طريقًـا إلى بعض الصـحف والمجـلات بعـد انتـهـاء المرحلة الشيوعية .

حكاية زلع الذهب لا أسـاس لهـا ، مـجـرد أوهـام مـريضـة ، هذه المؤسسة العريقة بنيت من عرق سيادته وكدّ العاملين الأوائل الذين قدموا ما استطاعوا لنجاح العمل ، لم يظهر هذا البناء كله بضربة حظ .

مع الزمن ثبت صفاء رؤيته وبعد نظره ، عندما اشترى هذه الأرض لم يفكر أى إنسان فى المجيء وشراء قيراط واحد لبناء منزل من طابق واحد . كان الغرباء يخشون المرور فى دروب الناحية نهاراً ، خاصة بعد العصر ، إن لم يكن خـوفًـا من الكلاب المسـعـورة أو الثـعـالب والقطط البـرية ، فتحاشيًا لقطاع الطرق وعتاة المجرمين الذين يتحركون عند الأطراف . سـيـادته . . قطع دابرهم وأراح أهل الناحيـة منهم ، أقـدم وشـيّـد بناية ارتفعت سنة بعد أخرى ، ليست مجرد طوابق ، إنما مقر ضخم ، يحوى مطاعم ومطابع وكراجات وآلات تعبئة ، وأخرى للتغليف ، ومخازن عامة وأخرى متخصصة ، ألم تضم المؤسسة المخزن الوحيد فى الشرق ، وقـارة إفـريقيـا كلهـا لبنج الأسـنـان ، هل هناك أبعـد نظراً من ذلك؟ هل هناك دولة تدرك قيمـة العمـل ، والموهبة مثل اليابان؟ إذن . . لنصغ إلى ما جرى .

حدث أن شاعراً معروفًا كان يلقى محاضرات عن المتنبى فى الجامعة الأمريكية بداية الخمسينيات ، فوجئ بوجود شاب يابانى بين الطلبة ، يقرأ العربية جيداً ، لكنه يتحدثها بصعوبة ، دهش ، لكنه رحب به ، بل دعاه إلى بيته ، نشأت بينهما مودة ، وفى ليلة بدا فيها اليابانى رقيقًا ، فياضًا بالحنين ، قال للشاعر إنه بدأ دراسة العربية فى أوزاكا . وجاء ليتقن شعر

المتنبى ويفهم أسراره ويحفظ أجمله، من أجل شخص واحد، شخص يتمتع بذكاء وقّاد، وعلم غزير، اهتموا به فى اليابان اهتمامًا كبيراً، وعندما تأكدوا أن المدخل إليه حفظ أشعار المتنبى وترديدها، وتفسير رموزها وغوامضها، أوفدوه إلى مصر، وفروا له منحة سخية.

لم يصرح الشاب اليابانى باسم من جاء إلى مصر سعيًا إليه، لكن الجواهرى يبتسم عند هذا الحد، يبرز عدداً من الصور، بعضها منشور فى المجلات الأسبوعية والصحف اليومية.

من هذا؟

من الذى يجلس فى مواجهة سيادته؟

إنه اليابانى، ها هو يقرأ من الذاكرة أشعار المتنبى.

ها هو يعرض عليه أول ترجمة إلى اليابانية.

هل تم ذلك بسبب اهتمام اليابانيين بالمتنبى؟

طبعًا لا.

كانوا يريدون التوصل إلى معلومات معينة لديه تتعلق بشفرات إلكترونية قدم سيادته بحثًا عنها إلى أحد المؤتمرات العلمية التى عقدت بمقاطعة بافاريا الألمانية، لكن.. هل أعطاهم ما يريدون؟

لم يقدم إليهم إلا ما سمح به، واعتبر ذلك تجاوبًا كبيراً منه لأجل عيون أبى الطيب!

كان يلاعبهم. إذ يعرضون عليه آلة تصوير جديدة أو حاسبًا أو مطبعة، أو آلات قياس، يبدى بعض الملاحظات التى تلوح عابرة، لكنها

تثير اهتمامهم، يسارعون بدراستها، بتطبيقها، اسمه يتردد فى معاهدهم الفنية، ومراكز البحث من طوكيو إلى أوزاكا.

مثل هذا الرجل، هل ينسب جهده هذا إلى الصدفة؟

يقول الجواهرى: انظروا إلى المقر.

أول بناية فى المنطقة، على الرغم من انتشار العمران وظهور أحياء كاملة حولها سرعان ما ظهرت المنشآت العمرانية والفنادق الشاهقة والمعارض والمقاهى والأندية، إلا أن المقر ظل أرسخها وأعرقها وأمتنها، هذا ما يلاحظه الغريب والقريب، بعد وقوع الزلزلة القوية التى رجت مصر كلها رجًا، خاصة القاهرة وما حولها، ترددت أقاويل حول البناية، خاصة بعد ظهور تصدعات غير هينة فى بعض مبانى المؤسسة الحديثة.

استدعى رئيس مجلس الإدارة الحالى لجنة من أساتذة الإنشاءات والخرسانة والتصميمات المعمارية، جاء معهم خبير هولندى مهتم، فوجئوا جميعًا..

المبنى مشيد على أساس مقاومة الزلازل بنوعيها، الرأسى، والأفقى، حتى عشر درجات من مقياس ريختر، علمًا أن أقوى زلزلة عرفها الكوكب الأرضى لم تتجاوز الثمانية وسبعة من عشرة، وهذا معروف ومدون.

أى بعد نظر؟

أى مدى وصل إليه حسن تقديره؟

لم تعرف مصر مثل هذه الكوارث الطبيعية إلا نادرًا، وعلى مسافات

زمنية متباعدة، لم يفكر أحد فى مقاومتها لندرتها لكنه لم يترك ثغرة إلا سدها، ما من احتمال إلا درس جوانبه، أبدى الخبير الهولندى إعجابه برسوخ الأساس ومتانة البنيان، خاصة المأوى العميق، الذى يعتبر مخبئًا مثاليًا بحق، إذ صمم بحيث يقاوم أعتى عبوات القنابل حتى العنقودية الحفّارة منها، كما يمكن سد منافذه عند استخدام القنابل الكيماوية.

أى بعد نظر؟

صحيح أنهم وقفوا حائرين أمام الفوهة، لماذا اختار هذه المساحة لإقامة المقر حولها، إلى أين تؤدى؟ كم يبلغ عمقها؟

ما من أجوبة شافية، وافية، يؤكد الجواهرى أن يومًا ما سوف يأتى ويكتشف الناس حكمة سيادته، لابد أن سببًا كامنًا لم يفصح عنه جعله يقيم البناية حول الفوهة التى لا يقربها إلا كل ذى قلب شديد.

كتب أحدهم يقول: إن ظهور المقر أدى إلى خراب الناحية، وضياع أخصب أراض زراعية تقع قرب القاهرة، وتمدها بأنواع الخضراوات والفاكهة، وتنقى الجو، كان ذلك فاتحة دمار الرقعة الزراعية المحيطة بالمدينة.

لم يلزم الجواهرى الصمت، أرسل مقالات إلى صفحات الرأى، يقول فيها إن دق أساسات البناية كان أول العمران، لماذا يقصرون اعتراضهم على تلك الناحية، ماذا عن شارع الهرم؟ ألم تحفه أراض خضراء خصبة، ألم يكن الواقف عند شاطىء النيل يمكنه رؤية الأهرام بوضوح، بدون حاجز؟ حتى جاء محرم باشا وبنى قصرًا على الطراز الفرعونى، بعده قامت القصور والعمارات، بل والمساكن العشوائية،

اكتظ الخلاء بالبنايات المتنافرة القبيحة التى حجبت أعظم آثار العالم عن الرؤية، وتسببت المياه الجوفية التى ارتفع منسوبها فى مشاكل عديدة يعانى منها بشكل واضح تمثال أبى الهول.

لماذا لا يذكرون محرم باشا أول من أقام بناية؟ لماذا يذكرون المؤسس بمناسبة وبدون مناسبة؟ يغمزون ويلمزون ويتباكون على الأراضى الزراعية التى راحت واختفت؟

ثم . . من قال إنه - رحمه الله - لم ينتبه إلى الأراضى الصحراوية؟ ألم يقدم على شراء مساحات كبيرة عند أطراف القاهرة، اشترى فدان الأرض بقرش صاغ شرق العباسية، سخرَ الناس منه، أكثر مما أبدوه عند اقتنائه أفدنة إمبابة السبعة، قالوا إنه يهوى رمى نقوده فى الخلاء، لم يفكر أحدهم قط فى البارون أمبان الذى أنشأ ضاحية مصر الجديدة، رفض الناس الإقامة بها فى البداية حتى أن الشركة الأجنبية لجأت إلى مغريات عدة، منها إقامة مدينة ملاه كاملة، وركوب الترام الأبيض بالمجان، والإيجار الزهيد، أين ذلك منَّ مصر الجديدة التى أوشكت على الاقتراب من مشارف الإسماعيلية، عندئذ كثرت الإشادة بالبارون أمبان.

أواخر الخمسينيات بدأ التخطيط لإقامة مدينة نصر بإيعاز منه، نعم . . من سيادته، هو من أوحى إلى الزعيم عبد الناصر بالفكرة، أهدى إلى الحكومة جزءاً من أراضيه المسجلة باسمه، لكنه باع ما تبقى بأموال طائلة أنقذت المؤسسة كلها من أزمة السيولة التى تعرضت لها قبل اعتقاله بعامين.

ألم يقدم فى الثلاثينيات على تنظيم رحلات إلى البحر الأسود،

عرض شراء بعض الجزر المهجورة، وإقامة فندق فى سفاجة، لكن سلاح الحدود اعترض فى ذلك الوقت.

انظروا إلى البحر الأحمر الآن. إنه مركز النهضة السياحية، تتجاور فنادقه، يقصدها الأجانب بالطائرات مباشرة، المؤسسة أول من تعاقد على إحضار أفواج الفرنسيين، والألمان، والطليان. وحتى الآن لم ينفذ مشروعه الخاص ببناء فنادق صحراوية فى منطقة شرق العوينات، هو الذى لفت أنظار الشركات الباحثة عن البترول فى الصحراء الغربية إلى وجود بحيرات جوفية هائلة من المياة العذبة، لا يعرف مداها إلا الله!

لولا إقدامه وذكاؤه لما تعددت الأنشطة وتنوعت، بدءاً من صناعة أوراق التغليف التى أولاها عناية خاصة، لطالما ردد أن رقى الأمم وتقدمها مرتبطان بأساليب التغليف وأنواع الخامات المستخدمة، بدءاً من لف الأطعمة وحتى المجوهرات، هناك وحدات الإنتاج الإذاعى والتليفزيونى ومن قبلها السينمائى واستيراد السيارات، ومصانع الرخام، ومحطات تحلية مياه البحر، وسلسلة المطاعم الشهيرة، والبنوك والإعلانات بمجالاتها المختلفة، وصيد الأسماك، وشراء مخلّفات السفن وحطام الطائرات، والسيارات القديمة، وتجفيف البلح وشباك الصيد ومضارب الأرز، وتصدير الفاكهة والزهور. المؤسسة تنافس هولنده الآن فى أسواق العالم، إلى تصنيع قطع غيار القاطرات العاملة بالديزل، والسفن، مما يوفر أموالاً طائلة من العملة الصعبة.. وغير ذلك كثير الآن، مما يصعب الإحاطة به كله.

يؤكد الجواهرى أن كنزه الحقيقى كان عقله ومواهبه، غير أنه أبدى أكثر من مرة تحفظًا على استخراج القارب القديم، يرى أنه من الأفضل لو

تُرك مطموراً، مخفيًا، هذا ما يراه عم صديق النوبى أخلص من عملوا مع المؤسس وعرفوه عن قرب. ثمة تعويذة معينة يصعب فك مغاليقها احتواها المركب، حمت الأرض وطرحت الخير فى زرعها وحيواناتها، لم يكن ممكنًا مقارنتها بأى منطقة أخرى، لو بقت لطال سرها المؤسسة، ولما جرى ما كدَّر مسيرتها ولحق بالمؤسس.. بل والجواهرى نفسه.

لن ينسى أبدًا وجوه الفلاحين العاملين فى تمهيدها وزراعتها منذ عصور بعيدة، وقفوا يذرفون دمعًا صامتًا عند استخراج الخشب القديم، ولحظة نقله إلى عربة معدة مجهَّزة، ذرف الرجال دمعًا. وأطلقت النساء أصواتًا ممدودة غامضة، مصدرها الحناجر والصدور؟

لا أحد يدرى.. لكنها بدت نذير شؤم، مثل هذا لم يحدث على امتداد الوادى إلا مرة واحدة فى نهاية القرن الماضى، أثناء نقل خبيئة وادى الملوك - مومياءات الفراعنة الأقدمين - من مراقدها إلى السفن النهرية لعرضها على الخلق فى المتحف.. يومها انتظم أهالى طيبة فى صفوف جنائزية طويلة، خرجوا مودعين دامعين ينشدون المراثى وكأنهم يودعون أحبابًا أعزة على قلوبهم رحلوا للتو وليس من آلاف السنين!

سمع الجواهرى بأذنيه عجوزاً يقول محذراً لحظة اكتمال ظهور القارب: إن زمن الخير انتهى، ارتفع نشيج، لم يدر الغرباء العاملون فى تجريف الأرض، أو إعدادها للبناء، هل ينوح القوم حقًا على الأخشاب العتيقة أو على التربة الخصبة التى تجرد من طميها وخصبها ولن تنبت عيدانًا خضراء، أم على أنفسهم وما ينتظرهم من مصير؟!

سرعان ما يتوقف الجواهرى عن الاسترسال. يتدارك أمره قائلاً إن الخير جاء مع المؤسسة، ولو أن العمر امتد بصاحبها ورجلها الأول،

لو سارت الأمور كما تمنى، كما ينبغى، لولا المحن والدسائس، لولا ما تعرض له، لو أخذوا بما نصح به، لأصبحت البلاد مثل النمور الآسيوية الأربعة، لما تراكمت الديون، لما وقعت الزيادة السكانية.

كان جريئًا، مقدامًا، غير هياب فى اقتحام المشاريع، وتوطيد الصلات، لولاه لما بلغت العلاقات مع الدول الإسكندنافية ما وصلت إليه. أما ما قام به خلفاؤه من توطيد الصلات مع جمهوريات الكومنولث الجديد، فلم يكن إلا نتاج علاقاته الأصلية بالاتحاد السوفيتى المنهار، هذا من آثار فطنته، وبعض مما تلقوه عنه، مع أن آخرهم، من يجلس مكانه الآن يبدى الجفوة فى حقه، لا يحرص على ذكراه، ولا يتردد عن إلحاق الأذى بأقرب الناس، وأخلصهم، من تنضح جدران المقر الأصلى بتعبهم وكدهم وعرقهم..

الطابق الرئاسى

. . حتى الآن، لم يكشف أحد من أقارب المؤسس، أو من أتباعه المخلصين أى تفاصيل عن مضمون وصيته المحفوظة فى مكان ما من المقر الأصلى، يتوارثه من يتعاقبون على إدارتها لكنهم لا يعلنون عنه، غير أن أمرين شائعين لا يختلف عليهما أحد ولم يكذبهما إنسان.

أولهما : أن تدار المؤسسة من الطابق الثانى عشر حتى اندثار المبنى تمامًا، الثانى : تخصيص فرقة موسيقية، أفرادها من متقنى التراث القديم، لعزف بشرف سماعى رصد للموسيقار الراحل محمد القصبجى، وإنشاد موشح قديم، تأليف الوزير الأندلسى لسان الدين بن الخطيب، يقول مطلعه :

جادك الغيثُ إذا الغيثُ همى　　　يا زمان الوصل بالأندلس

لم يكن وصلُك إلا حُلُما　　　فى الكرى أو خلسة المختلس

والحق . . أن الجميع التزموا، بل حرصوا على تنفيذ ما جاء بالوصية خصوصًا أن سيادته أوقف بعض أملاكه الخاصة التى لم تصادر خلال حركة التأميمات الكبرى، أو المرحلة الكابوسية كما يطلق عليها المخلصون، ومن هذه الأوقاف قطعة أرض بالوادى الجديد، ومناحل

عسل بالعامرية، وجزيرة صغيرة فى بحر إيجه، اشتراها خلال الأربعينيات فى ظروف لم تعرف بالدقة، وبنى فيها منزلاً جميلاً يدار الآن كفندق لأثرياء العالم، زاره عم صديق الذى لم يفارق سيادته قط فى جميع رحلاته إلى الخارج، كان يعد فنجان القهوة الصباحى، وآخر مسائيًا، بطريقة معينة، ومن تحويجة خاصة لم يتقنها غيره، يمتزج فيها البن بأعشاب أرضية نادرة، بعضها ينبت فى السودان والآخر فى الهند، أو الصومال، وسواحل إفريقيا الشرقية، كان عم صديق حلاقه الخاص أيضًا، لذلك عُدَّ من أقرب الناس إليه، وأوفى الخلق الذين تعاملوا معه، لا ينافسه إلا الجواهرى والأبله الصامت .

رغم الاختلاف فى الخطط والسياسات، رغم التصرفات التى توحى بالجحود ونكرن الجميل، فثمة أمور لم تمس، ولم يحاول أحد الإخلال بها حتى وإن انطوت النفوس على الرغبة فى ذلك .

لم يتغير المقر القديم مع تعاقب رؤساء المؤسسة الذين بلغ عددهم خمسة حتى الآن، رغم أن كلاً منهم شيد بناية جديدة، هذا ما رصده كثيرون، عندما يتولى رئيس جديد يشرع على الفور فى دراسة إقامة مبنى جديد، ولكن لم يتجاوز أى منها البناء الأصلى، ما زال يبدو وكأنه شيِّد بالأمس، جدرانه الخارجية نظيفة ومصقولة، رغم أنها لم تطل . من الداخل يهيمن الرسوخ وتلوح العافية فى الممرات والحجرات والصالات . أما الطابق الثانى عشر فلا مثيل لهيبته، والرهبة التى يبعثها فى نفس من يصل إليه، أو يتجه إلى المكتب الرئاسى الدائرى، أو قاعة التدخين الملحقة به، أو المكتبة الخاصة، حتى حجرات السكرتارية والاتصالات المختلفة لها هيبة لا يمكن مضاهاتها إلا بالطابق الملكى فى

قصر عابدين. يبدو العالم الخارجى الذى يلوح من النوافذ العريضة بعيداً، نائيًا، كأنه يمت إلى كوكب آخر، أما رجع الأصوات فمختلف تمامًا عن أى مكان آخر، هنا إحساس بالألفة والرهبة معًا، يعرفه كل من خطا عبر هذا الممر أو ولج تلك المجرات. حار الكثيرون فى وصفه، حتى أن بعض الشعراء حاولوا شعراً، ولكن لم يعبّر أحد بالضبط عن هذه الخاصية التى تضفى بعداً من القداسة على المكان، والرهبة أيضًا.

هذا الحضور الخفى غير متوافر فى المبانى الخمسة الأخرى التى تتوزع عليها إدارات المؤسسة، يرتفع المبنى الثالث المقام فى قلب مدينة المهندسين والمطل مباشرة على جامعة الدول العربية أربعة وعشرين طابقًا، تم تزويده بتكييف مركزى ومصاعد إلكترونية، وأجهزة إنذار متطورة لا يوجد مثيلها إلا فى البنتاغون، لكنه لا يماثل أبداً المقر الأصلى. عندما اضطر بعض العاملين إلى الانتقال إليه تنفيذاً للأوامر الإدارية الصادرة بكوا دمعًا، بعضهم نشج بصوت مرتفع، ومنهم من أغمى عليه، المقر الأصلى عزيز على الجميع، له منزلة عند الجميع، صار المنقولون يختلقون الحجج لقضاء أى وقت ممكن بالمبنى الأصلى، اضطر الرئيس الثالث إلى إصدار أمر إدارى علق فى اللوحات الرئيسة ينبه بضرورة ملازمة كل لمكانه، ويمنع الزيارات غير الضرورية.

هذا البناء سرعان ما شاخ، بدا قديمًا، متهالكًا، ورغم شركة التنظيف الخاصة التى تولت مسئولية العناية به، إلا أنه لاح قذراً باستمرار، عكس المقر الأصلى الذى كان يمكن للإنسان أن يرى ملامحه فى جدرانه وأرضياته لنظافتها وشدة صقلها، لم يكن يحتاج إلا لمجهود ضئيل يقوم به العاملون أنفسهم، المقار الفرعية كافة طالها الهمس الذى جرى وتردد

عن عمليات غش جرت، ومؤن غير سليمة استخدمت، خاصة بعد سقوط أحد المصاعد الأربعة بركابه من الطابق السابع، ولولا لطف الله ورحمته لضاعت أرواح بريئة. انتقد البعض إسناد تصميمه وتنفيذه إلى مكتب استشارى يديره ثلاثة أساتذة بالجامعة أحدهم ابن شقيقة رئيس الوزراء!

تساءل الجواهرى غاضبًا، كيف تغصّ المؤسسة بالخبراء فى العمارة ثم تستعين ببعضهم من الخارج، هذا إذا توافرت لديهم الخبرة حقًا؟ فى زمن سيادته قامت المؤسسة بترميم مقبرة تاج محل، والقصر الملكى بكابول، ومدت خطوط المياه إلى الحرم المكى، أما بناياتها فى العالم العربى فقائمة، شاهقة حتى الآن، بعد هذا كله تتم الاستعانة بالغرباء.

كيف.. هل يعقل هذا؟

يؤكد الجواهرى أن عم صديق لو وضع التصميم لجاء أفضل.

عم صديق؟

نعم.. ألا ينسب إليه تصميم الطوابق الخفية تحت الأرض التى لم يدخلها إلا نفر محدود من العاملين على امتداد المؤسسة كله، خاصة القدامى، أما الجدد فيسمعون عنها فقط، مع توالى السنوات أصبحت هذه الطوابق لغزًا، بعيدة جدًا رغم قربها، يتحدث عنها العاملون، كأنها تقع فى بلد آخر، حتى أجهزة الدولة بدأت تنظر إليها بشك، باعتبارها سرًا يخفى ما يخفى.

بعد وقوع المحنة جرى إعتقال عم صديق وتعذيبه ليفصح عن مسارب هذه الطوابق، ومداخلها، ومحتوياتها، لكنه لم ينطق قط، لم يبح، لم

تجبره الصدمات الكهربائية، ولا قعوده مرغمًا على زجاجة مياه غازية مكسورة العنق، ولا نتف شعر عانته، شعرة، شعرة. وما زال يدرس أمره كحالة نادرة فى معهد التدريب الخاص التابع للشرطة السرية.

عم صديق، كما يناديه الجميع - عدا الرئيس الحالى - نحيل، طويل القامة، بدأت علاقته بالمؤسس منذ طفولته، كان يعمل طباخًا فى البيت الكبير، وتخصص فى صنع نوع نادر من القطايف الشامية والمعروفة بالعصافيرى، وإعداد فناجين القهوة بعد تجهيز البن بشكل معين، وأمره مشهور بين محبى القهوة الذين زاروا مكتب المؤسس، ومنهم رؤساء دول الآن وملوك سابقون وقادة.

يقال إنه لعب دوراً فى تربية المؤسس، لكن ربما كان ذلك من المبالغات، يستبعد الجواهرى ذلك، عمره.. غير معروف بالضبط، لم تحرر له شهادة ميلاد، لكن.. بعد التحاقه نهائيًا بالمؤسسة أحيل إلى لجنة طبية لتحديد عمره تقريبًا أو على وجه الدقة حتى يمكن فتح ملف خدمته، كشف طبيب مختص على قلبه، وآخر على أوردته، وثالث على أسنانه، ورابع على أعصابه، وخامس على عظامه، قدروا بعد مناقشة باللغة الإنجليزية، اثنين وثلاثين عامًا.

يؤكد الجواهرى أن ذلك أقل من عمره الحقيقى بأربعين سنة على الأقل، وأنه سمع المؤسس بأذنيه يؤكد أن الحاج عباس حلمى الثانى خديو مصر. استدعى عم صديق إلى قصر عابدين بعد توليه العرش مباشرة لإعداد القطايف العصافيرى فى المآدب الملكية.

على أى حال، لا يبدو الهرم على عم صديق، وحتى آخر يوم حلق فيه ذقن المؤسس على فراش المرض لم تهتز الموسى فى يده، ولم يرتجف

وش القهوة أثناء حمله الصينية إلى سيادته، توقف عن ذلك تمامًا بعد سفر سيده للعلاج فى مستشفى شيرنغ كروس بلندن، وبعد إقلاع الطائرة ظل واقفًا شاخصًا إلى الاتجاه الذى قصدته سبع ساعات حتى إذا نزل الليل ارتاب فيه رجال الخدمة السرية بالمطار، وكانت مشكلة!

غير أن الأزمة الحقيقية وقعت قبل ذلك، عندما بدأت محنة المؤسس، وجاء ضابط متقاعد بقرار من القيادة السياسية ليدير هذه المنشآت كلها، ولم يكن اختيار الضابط صدفة أو باعتباره من أهل الثقة، ولكن القصد بدا واضحًا، لأن المؤسس وجه إليه إهانة أمام عدد من كبار رجال الاقتصاد والأعمال، قال له: اسكت . . أنت لا تفهم!

لذلك اعتبر مجيئه صدمة للعاملين المخلصين، ولكن لم يجرؤ واحد منهم على النطق بكلمة، عدا ثلاثة، الجواهرى، والأبله المرابط أمام المقر الأصلى، وعم صديق.

الجواهرى قدّم طلبًا للحصول على إجازة بدون مرتب، وعندما رفض، لم يتخلف عن الحضور يومًا، لكنه دخل فى سلسلة متاعب صحية، استدعت إعفاءه من التوقيع بناء على توصية طبيب الأشعة الملونة.

الأبله اختفى تمامًا من أمام المدخل، لزم الناحية الأخرى، بجوار الفوهة اللانهائية، كفّ عن الانتفاض إذا لمس أحدهم طرف أذنه اليسرى كعادته، وإطلاق صرخته المروعة.

أما صديق فجرى معه ما جرى . .

منذ اللحظة الأولى، بدا الرئيس المنتدب، الغريب عن المؤسسة،

الذى لم يعرق من أجلها قط ، بدا وكأن أحد أهدافه الرئيسية عم صديق . صباح أول أيامه ، جلس مكان المؤسس ، لكن . . على مقعد مختلف كما اتضح لاحقًا ، حتى الآن . . لا يعرف أحد ، ولا الجواهرى نفسه من أخفى الكرسى الشهير ، ولا أين؟ بعد عودة سيادته إثر انتهاء المحنة الكبرى ، أزاح عم صديق المقعد قليلاً إلى الوراء . قال على مسمع من الكبار الذين صحبوا سيادته حتى غرفته الخاصة :

«لم يمسَّه أحد فى غيابك . . » .

تطلع إلى عم صديق ممتنًا ، تلك النظرة النادرة ، الوادعة ، لم ينطق ، إنما مد يده ملامسًا كتف الرجل العجوز الذى انحنى متأثرًا حتى خيل للواقفين أنه على وشك أن يقبل اليد الممدودة إليه لكنه لم يفعل !

نعود إلى ما كان من أمره مع الرئيس المنتدب ، وقف على بعد من المكتب ، لم يقترب منه كعادته ، قال إنه اعتاد شرب القهوة على الريحة ، وأنه يريد تقديمها إليه بعد دخوله مباشرة : مفهوم؟

أومأ عم صديق ، خرج بهدوء بعد انحناءة هادئة ؛ قديمة ، إنه عارف تمامًا بالأصول ، مضى إلى الهاتف الداخلى ، طلب من بوفيه الطابق الرابع فنجان قهوة على الريحة .

أين؟

فى الطابق الأخير ، الرئاسى . .

حمل الفنجان بنفسه بعد أن تناوله على باب المكتب . صاح غاضبًا ، ملوحًا بيده فى وجه عم صديق :

«أريدك أنت أن تعده . . أنت بنفسك . . ».

هنا تختلف الروايات ، لا عم صديق ولا الرئيس المنتدب حكى ، قال بعضهم إن عم صديق حدق إليه طويلاً ، تلك النظرة الصامتة ، الباردة ، النفاذة التى أرجفت العمال الصعايدة العتاة وأشاعت الرعب فى نفوسهم والبرودة فى أوصالهم أثناء متابعتهم البناء فى المقر الأصلى ، يؤكد ، هؤلاء إنه لم يفه حرفًا ، ولكن سرعان ما انكمش الرئيس المنتدب ، ورجاه أن يسامحه ، أن ينسى ما جرى منه !

بعض العاملين فى قطاع الإنشاءات السياحية ومقره المبنى الثالث أكدوا أن عم صديق انحنى على مهل مستندًا براحتيه إلى حافة المكتب ، بنطق فصيح ، متأن ، واضح ، قال :

«لا أنت ولا أسيادك».

وفى رواية أخرى أنه قال :

«تقطع يدى ولا أقدم إليك فنجان القهوة . . ».

ارتعد الرئيس المنتدب ، بدا خائفًا ، ربما سمع عن الأحجبة التى يعدّها ، والتعاويذ التى دسها فى أساس المبنى ، يؤكد الجميع أنها سبب متانة المقر الأصلى ورسوخه حتى الآن ، لكنّ أصواتًا قليلة تهمس متسائلة :

«لماذا لم يعد حجابًا يشفى به سيده القديم؟».

المهم . . اختلفت الروايات ، وتعددت الأقاويل ، لكن الوحيد الذى ظل صامتًا ، لم تهتز شفتيه بكلمة ، هو عم صديق نفسه ، لكن المؤكد أن

المؤسس أحيط علمًا بالتفاصيل كافة حتى تلك الغريبة، ومنها توسل الرئيس المنتدب إلى عم صديق ذات نهار شتوى، كاد أن يقبل يديه من أجل إعداد فنجان . . مجرد فنجان على الريحة، أن يصب القهوة بطريقته الفريدة التى لفتت أنظار الضيوف، خاصة العرب والأجانب، قالها صراحة إنه لم يشعر برئاسته الحقيقية إلا بعد رشفة، حسوة واحدة من البن المحوج، لكن . . عم صديق أبى، صار رفضه مثلاً وعبرة لكل العاملين، بل اعتبر البذرة الأولى التى أحالت أيام المنتدب إلى لون أسود من قرن الخروب.

طبعًا . . لم يجرؤ على استدعائه لحلاقة ذقنه، يعنى ذلك تسليم رقبته إلى موسى قاطعة، تمسك بها يد غير موثوقة، تلك الطقوس الصباحية المعتادة لم تمارس فى حضور أى من الرؤساء الذين انحدروا حتى من صلب المؤسسة، وانتموا إلى سيادته تمامًا.

الحلاقة أولاً، استخدام أدوات عتيقة، مذهبة، مرآة صغيرة بيضاوية، بلجيكية الصنع، فرشاة حلاقة من ذيل حصان عربى أصيل، ينتهى نسبه إلى الأبجر، أحد أشهر خيول العرب، صابون باريس لم ينقطع يومًا رغم حظر الاستيراد سنوات غير قليلة، وعطر من عنبر كشمير، لكم أحبه، واستنشق عبيره بمتعة. كان محبًا للهند، ولكن هنا تفصيل يطول!

كل أدوات الحلاقة محفوظة حتى الآن فى متحف المؤسسة، حتى المشط العاجى الذى ما تزال شعيرات من رأس سيادته عالقة به، معروضة فى متحف المؤسسة، كذا فناجين القهوة التى تحمل الحروف الأولى من اسمه، وفتاحة الورق البللورية التى لم تكن تفارق أصابعه عند الحديث

إلى ضيوفه، اعتبر عم صديق نفسه مسئولاً عن تلك الأمانة فى غيابه، والحق أنه أدى.

شهد الكثير، لم يفارق الأرض منذ بدء عمليات البناء، هو أول من نزل وتفحص أخشاب القارب بعد كشفه بلحظات، لذلك يؤكد الكارهون أنه يعرف مقدار الكنز وموضعه، هو من حمله بيده. لكن القدامى الأصلاء يسخرون من ذلك، كان العمال الصعايدة يرتعدون خوفًا عند ظهوره، هم المعروف عنهم شدة البأس، ما من حجر فى البناء الأصلى إلاّ بعلمه.

على أية حال، ما زال المقر يبدو كأنه شيد بالأمس القريب، كأن عشرات السنين لم تمض عليه، جدرانه نظيفة، فيها متانة وجلوة، حتى الآن لم تجر له عملية صيانة واحدة. إذا قورن بالمبانى التى شيدها تلاميذ المؤسس يبدو أكثر شبابًا، وأزهى، رغم قدمه. صحيح.. أن المبنى الثانى يرتفع إلى عشرين طابقًا ومزود بتكييف مركزى، وأجهزة إنذار متطورة، وأبواب تفتح تلقائيًا عند الاقتراب منها، لكنه لم يحتل قط مكانة المقر الأصلى، لا ماديًا ولا معنويًا. وليس سرًا أن الدكتور ميلاد حنا أستاذ العمارة المعروف نصح بإزالة أربعة طوابق منه، إذ إنها تشكل خطرًا على الأساسات المدقوقة، لكن.. لم يحدث ذلك حتى الآن نتيجة تدخل أبناء الرئيس الثانى للمؤسسة، وكلهم رجال أعمال بارزون وذوو نفوذ الآن، لأنهم اعتبروا ذلك مساسًا بذكرى والدهم.

وتأكيدًا لما ردّده بعض العناصر المغرضة.

لن ينسى العاملون القدامى اضطرار بعضهم إلى مفارقة المقر، بكوا

وذروا دمعًا سخيًا، معظم العاملين فى المؤسسة لا يتقبل قرارات النقل بسهولة. ظل بعضهم يتردد بمناسبة وبدونها، مع أن مكاتبهم فى المبنى الجديد أوسع وأفسح. أدى ذلك إلى بعض الارتباكات مما دفع الرئيس الثانى إلى إصدار أمر إدارى علق فى اللوحة المجاورة للمصعد التاريخي ينبه إلى ضرورة ملازمة العاملين لأماكنهم، والحد من الزيارات التى لا تتصل بمتطلبات العمل.

تعلُّق أبناء المؤسسة، خاصة القدامى بالمبنى الأصلى، معروف، شائع، وأشار معظمهم إلى ذلك خلال البرامج الإعلامية التى أعدت خلال السنوات الأخيرة عن الأنشطة المختلفة، سواء فى محطات التليفزيون المحلية، أو.. العالمية.

لم يحدث ذلك قط بالنسبة للمبانى الأخرى، بل كثر التشنيع على الثانى والثالث، شاخ كل منهما بسرعة. وكأنهما أقدم. بل ظهر شرخ طويل في الثاني. وبثّت وكالة رويتر خبراً مطولاً حوله. لكن المسئولين ردوا ببيان نشر كإعلان مدفوع في الصفحات الأولى يندد بمحاولات بعض الجهات الأجنبية تشويه سمعة المقاولين الوطنيين، ويؤكد أن تصميمات المبنى وفقًا لأحداث النظم العلمية، وأن التنفيذ جرى بأحدث الوسائل والمواد. غير أن الهمس داخل المؤسسة نفسها لم يتوقف. وتحدث البعض عن عمليات غش، وعمولات مرتفعة، ثم جاء سقوط أحد المصاعد الأربعة الحديثة ليزيد من حملات التشكيك، قال صديق النوبى إن لطف الله تدخل، لولاه لضاعت أرواح بريئة، ثم أشار إلى مصاعد «شندلر» العتيقة، الراسخة فى المقر الأصلى، تعمل كالساعة السويسرية رغم أنه لم تجر لها عمليات صيانة منذ عشر سنوات. حقًا..

من كان يجرؤ على استخدام مؤن مغشوشة، ومخالفة المواصفات، فى زمن المؤسس - رحمه الله - من؟

بعد كثرة القيل والقال، وبدء الهجوم على عمليات تم تنفيذها مؤخراً من خلال القطاعات التابعة فى صحيفة ذات صلة بالتيارات الدينية المتشددة فى إحدى البلاد العربية، أعلن الرئيس الثانى عن اتخاذ مقر بديل مزود بجميع أجهزة الاتصال الحديثة فى المبنى الثانى الجديد، ليؤكد متانة البناء، وأكد أنه سيمضى فيه أوقاتًا أطول، وأنه يأمل فى انتقال هذا التقليد إلى المبانى الضخمة التابعة كافة بحيث يخصص الطابق الثانى عشر كمقر رئاسى بديل تيمنًا وعلامة.

عم صديق النوبى لم يخف عداءه ومخاوفه، وقيل إنه تنبأ بتدهور الأحوال، حتى يجىء يوم يتولى فيه مقاليد الأمور العاهرات، والقوادون، ومن لا أصل لهم ولا فصل. كان مصدر غضبه وألمه تخصيص طوابق رئاسية أخرى بديلة، لا يعرف هو والقدامى المخلصون إلا طابقًا واحداً فقط. يصعب مقارنته بغيره، منه الهيبة والمشروعية. ومن لا يستقر فيه تمامًا فكأنه لم يتول ولم يبدأ.

استمرارية غير متوقعة

يُرجع الحاقدون والموتورون، ومن بقلوبهم مرض، نجاح المؤسسة ورسوخها ونموها إلى الاستقرار الذى سادها حتى بداية السبعينيات، أى فترة التأميم، يتعمدون تجاهل جهود المؤسس ونبوغه، وإنشائه هذا الصرح المهول من الصفر، حتى أصبح علامة دالة، ليس فى مصر وحدها، ولكن . . فى أماكن شتى من العالم .

بشكل عام، لا يختلف عليه اثنان، يمكن القول إن تاريخًا محددًا يفصل بين فترتين . إنه التأميم الذى جرى فى بداية الستينيات، الأولى منذ قيام المؤسسة وحتى صدور القرارات الشهيرة، والثانية منذ منتصف السبعينيات، والتى وقع خلالها الازدهار الكبير والتوسع المذهل وتلك سارية حتى الآن . للأسف لم يشهد المؤسس منها غير بدايتها، إذ سرعان ما قاسى محنًا وآلامًا شديدة خلال مرضه الأخير تحملها كلها فى جلد عجيب، أثار دهشة الأطباء المعالجين، سواء كانوا مصريين أو إنجليز أو أيرلنديين، بل إنه فى ذروة آلامه لم يكف عن الغزل الرقيق وإثارة إعجاب الممرضات الحسناوات، حتى لحظات تعرضه للأشعة الالكترونية والتى أحدثت بقعًا غامقة فى وجنتيه وعنقه، حتى أن الجواهرى لم يتمالك نفسه وخرج باكيًا، نائحًا على الرجل الذى لن تعرف البلاد مثيلاً

له فى زمن قريب، من كان ملء العيون والأسماع، لا تقوى أجمل الحسناوات على مقاومة نظراته، أو صد جرأته أو عدم الإذعان لكياسته، أمره معهن شائع، معروف، إنه من قلائل كان لهم صولات وجولات مع أميرات العهد الملكي، بعض مما عرفه معهن تحول إلى أفلام سينمائية عرضتها الخيالة كما يصر الجواهرى على تسميتها حتى الآن، ذلك أنه شديد التمسك بقرارات المجمع اللغوى، يتابعها ويحفظها عن ظهر قلب، يأبى نطق كلمة «الساندويتش»، يقول: شباطر ومشطور وبينهما طازج، مما استدعى سخرية لم يجرؤ إلا عم صديق على البوح بها.

الجواهرى مرجع لا يستهان به فى ذلك رغم أنه ما من صلة تربطه بالواقع الأدبى، لم يعرف عنه إلا قدرته على القراءة، واقتناؤه النادر من الكتب والمخطوطات. عرف المؤسس ذلك فشجّعه، خصّه بعلاوة إضافية أطلق عليها «بدل مراجع»، نصحه بحضور جلسات المجمع ومؤتمراته، اتصل بالدكتور طه حسين، وأحمد لطفى السيد. فسمحا له، ثم صار الجواهرى من علامات المجمع، خاصة بعد تعدد مرات الإشارة إليه فى الصحف، تمامًا مثل.. كبير مشجعى الزمالك، وأشهر قارىء صحف عيسى متولى، وشاعر الفلاحين، ومطرب العمال، وابن الريف، والعندليب الأسمر، وعذراء الشاشة، أطلقوا عليه: عاشق المجمع. يقال إن طه حسين كان يداعبه ويصغى إليه باهتمام. لكن الجواهرى لم يدل بأى تفاصيل، كما أنه لم يعترف قط بكتابته خطب المؤسس التى عدّت قطعًا رفيعة، رصينة من الأدب البليغ والنثر الجميل، ومن المؤكد أن بعض الزعماء استعانوا به، أما الوسيط فكان المؤسس شخصيًا، لم يكن ممكنًا للجواهرى أن يقدم على أى فعل بعيدًا عن رضاه.

كان لديه مهارة فى صياغة العبارات والشعارات، الجمل الصغيرة، الدالة والموجزة، وإليه تنسب بعض الكلمات الشهيرة خلال ذلك القرن، مثل:

من أجل مصر وقعنا المعاهدة، ومن أجل مصر نلغى المعاهدة.

و

أنا مسلم وطنًا، وقبطى ديانة.

و

شهد لنا العدو قبل الصديق.

و

ما أخذ بالقوة لا يستردّ إلا بالقوة.

و

لا صوت يعلو فوق صوت المعركة.

مرة أبدى ملاحظة عن جهل السياسيين المحدثين باللغة، الخطابات تكتب لهم، ويميز الشكل بالأحمر، مع ذلك يخطئون، بل الأدهى والأمرّ أنهم يتكلمون بالعامية.

فى السنوات الأخيرة، مع رواج الشركات الخاصة ونشاط رجال الأعمال، عرض عليه مدير شركة دعاية وإعلان أن يصوغ عبارات مركزة للإعلان عن البضائع وأصناف العطور، ومساحيق التجميل، وشركات الطيران.

يقول إنه أسوأ عرض تلقاه فى حياته، استفز حتى أنه أشهر عصاه وكاد يهوى بها على المندوب، لولا ابنه الذى لحقه فى آخر لحظة. لكن رد فعله بدا هادئًا عندما جاءه مدير مكتب مجلة عربية وعرض عليه مبلغًا طائلاً، قيل إنه عشرون ألف دولار، مقابل رواية ذكرياته عن المؤسس، على أن تصدر فى كتاب بعد نشرها فى حلقات، لكنه رفض.

تعلقه بالمؤسس لا ينافسه فيه إلا عم صديق، والأبله، وعطية أفندى مطلق الإشاعات، والعاملون الأوائل الذين قامت المؤسسة على أكتافهم ومن عرقهم، إنه الوحيد الذى لم تهن مشاعره رغم كل ما جرى، وبعد أن طالت الغيبة فى المستشفى اللندنى أنفق الجواهرى مدخره كله، سافر على نفقته ليرافقه آخر أيامه، أما صور إخلاصه أيام المحنة الكبرى فمما يتوقف عنده الجدد، والمهتمون بأمور المؤسسة، ونموها، وتطوراتها، الحديث عن الجواهرى يطول، لكننا نقصر الآن، نعود إلى ما جرى.

لم يفاجأ سيادته بتأميم المؤسسة. كأنه توقع ذلك، عندما رآه الرجال القدامى صباح صدور القرارات دهشوا، كانت تعلو شفتيه الابتسامة، ومن زاوية فمه تطل السيجارة الشهيرة، نوع يعدّ خصيصًا له، كل علبة، كل سيجارة تحمل الحرف الأول من اسمه وشعار المؤسسة الثلاثى.

لم يضطرب، ولم يفقد أعصابه ولم يدركه الكمد الذى أصاب آخرين هجّوا بعد ذلك واستقروا فى البلاد الأجنبية وأصدر بعضهم كتبًا معادية، وشارك نفر منهم فى إذاعات تديرها أجهزة مخابرات أوروبية.

أبدًا.. لم يهن حماسه، يؤكد الجواهرى أنه أحيط بقرار التأميم عام أربعة وخمسين، أى قبل سبع سنوات من إعلانه، أثناء إحدى لقاءاته الخاصة بالزعيم جمال عبد الناصر عقب حفل تم خلاله توزيع صكوك

التمليك على الفلاحين المعدمين بمركز الدلنجات، فى الاستراحة البسيطة المتواضعة، أفضى إليه بأفكاره حول تأميم المنشآت الكبرى، أصغى المؤسس ثم قال إنه يرحب بذلك، لكنه يطلب مهلة قدرها خمس سنوات على الأقل.

«لماذا؟».

قال إن عدد المنشآت الآن أربع وعشرون، ومجالات النشاط اثنا عشر. وإنه أقام صلات قوية بدوائر صناعية وتجارية فى الغرب، ربما يكون منها ردود فعل مؤدية إلى عداء مبين، بعد خمس سنوات ستصبح هذه المنشآت قوية، راسخة، لن تؤثر فيها أى قطيعة، كما أن عددها سوف يتضاعف.

هزّ عبد الناصر رأسه ولم يعلق، هل كان الحوار سببًا لتأجيل قرارات التأميم كلها حتى عام واحد وستين؟

ربما..

فى ليلة التأميم صدر قرار سيادى عدّ الأول من نوعه، أن يستمر فى موقعه بكامل مسئولياته، بل أضيفت إليه اختصاصات جديدة، منها مسئوليته عن شركة لوازم أعالى البحار التى هرب صاحبها عن طريق الحدود الجنوبية، كذلك تقرر الحفاظ على العلامات التجارية كافة الخاصة بالمنشآت، بدءًا من المقرات، والمركبات، وحتى أوراق المكاتبات الرسمية.

قال مدير مصنع مستلزمات الأطفال حديثى الولادة، الذى أصبح الرئيس الثالث للمؤسسة فيما بعد، إنه خلال إقامته فى أوروبا التى

استمرت عشر سنوات، زار ألمانيا الشرقية فى ذروة النظام الشيوعى، زمن فالتر أولبريخت، نبهه مرافقه أثناء وقوفه بمحطة القطار الرئيسة بمدينة ليبزيغ إلى عربات القطار الخضراء، على كل منها شعار قديم يمتّ إلى زمن النازيين، «سكك حديد الرايخ الثالث»، بسرعة قال المرافق الذى يتقن اللغة العربية إن هذا لضرورة دولية، العلامة مرتبطة بأوضاع واتفاقيات دولية.

حتى اسم الزوجة الأولى والوحيدة بقى كما هو على مصنع الصابون الشهير، ومعمل مستحضرات التجميل، حبه لها معروف شائع، لم ينسها حتى آخر يوم فى حياته، أما تعدد علاقاته الذى فاق كل توقع، إنما كان بحثًا عمن تشبهها، طبعًا. . لم يخبر أى إنسان عما كان يبحث عنه بالضبط، سيظل ذلك سرًا دفينًا.

ماتت شابة، بغتة، فى كامل فتوتها، عطست مرة واحدة فقط، انفجر على الفور شريان وثيق الصلة بالمخ، أورثه ذلك حزنًا وكمدًا دفينًا، لم يكن يدرك لحظات توافدها عليه من أعماقه الغائرة إلا عم صديق الذى كان له دراية لا مثيل لها بأحوال سيادته.

قال الكارهون لتلك الحقبة إن استمرار الرموز والعلاقات ليس تسامحًا من قائد الثورة، ولا إيثارًا منه للمؤسس، لكنها ضرورة اقتصادية، دولية، اسم المؤسسة معروف فى العالم بشرقه وغربه، قيمته المعنوية لا تقاس بمال، بعض هواة المعادلات قدّره بمليار دولار.

كان ذلك أول الستينيات، لنا أن نتخيل الآن القيمة الحالية! لم يشعر العاملون بأى هزة أو تغيير، حتى بعد نشوء منظمة الشباب، وتغلغل خلاياها أصبح له نفوذ قوى داخلها، بل إن بعض الاجتماعات السرية

جداً عقدت فى الغرفة الدائرية المجاورة لمكتبه مباشرة، كما صاغ بعضًا من الشعارات الثورية التى ترددت فى استاد القاهرة خلال الاحتفالات الكبرى. كما أنه استوعب نشاط اللجنة النقابية تمامًا. إذا طالبوا بعلاوة قدرها جنيهان بادر فمنح أربعة، وعندما علم نية بعضهم فى إثارة موضوع التأمين الصحى سارع بترتيب اتفاق خاص مع كبار الأطباء للكشف وعلاج أسرهم أيضًا. كل من يمت إليهم حتى الدرجة الرابعة. أما أرباح نهاية السنة فلا يمكن بأى حال مقارنة ما حصل عليه الجميع، حتى المعينون حديثًا بما صرف فى المؤسسات الأخرى، حتى صار الانضمام إليها أملاً يرتجى، وهدفًا يسعى إليه الجميع. بل إن المنح والحوافز تضاعفت، حتى قال الحاقدون إنه يسعى لخرابها، لكن الميزانية المعلنة تكذب ذلك، لم تعرف المؤسسة فترة تسارع فيها معدل النمو مثل الستينيات.

غير أن الجواهرى يستعيد تلك المرحلة بضيق وأسى، كانت الحسرة تغريه كلما التحق موظف أو عامل جديد يعرف أنه مفروض على سيادته، بسبب صلة أو قرابة مسئول كبير، مما حرص عليه تصنيف العاملين إلى أصلاء وهم القدامى الذين اختارهم المؤسس بنفسه وأجرى لهم الاختبارات التسعة الشهيرة، أما الآخرون فهم الملونون أو الدخلاء، الذين انضموا بفضل بطاقات التوصية، أو مكالمات هاتفية. صحيح أن سيادته تمكن من احتوائهم تمامًا، حتى أن بعضهم صار من المخلصين العتاة. أحدهم وصل إلى منصب نائب مدير عام، وآخر كان على وشك أن يصبح رئيسًا للمؤسسة كلها، أن يستقر فى الطابق الثانى عشر، أن يجلس موضع سيادته، يتحدث فى هاتفه، ويستند إلى مكتبه، لكن الله

قدر ولطف، لم يصل البروفيسور إلى تلك المكانة قط، ولهذا تفصيل. المهم.. لم يكف الجواهرى عن اعتبار أمثاله غرباء، حتى وإن وصل بعضهم إلى أعلى المناصب.

أما الضابط المتقاعد الذى تولى الأمور بعد وقوع المحنة الكبرى فلا يعتبره الجواهرى من الذين تتابعوا، أو احتلوا المقعد الرئاسى، أو أمضوا وقتًا فى الطابق الثانى عشر.

أسقطه تمامًا، ليس من ذاكرته الشخصية فحسب، وإنما من تاريخ المؤسسة، يكفيه فخرا أن يده لم تلامس أصابعه، أما عم صديق فتحمّل الصعاب كلها، لكنه لم يقدّم فنجان القهوة إلى غير المؤسس.. لم يحدث هذا قط.

المهم.. أن ظنون الحاقدين خابت بعد التأميم، المؤسسة لم تتأثر، لم تهتز نتيجة لفترة التحول، بالعكس.. اتسع نشاطها، استثمر كل قرش ممكن، وطّد علاقاته الدولية، تفرغ لموهبته الأبدية.. تحويل التراب إلى تبر! بالطبع.. لم يخل الأمر من غبار يثار بين الحين والآخر، خاصة فيما يتعلق بصلاته وثروته بالخارج، وما يتردد عن تهريبه الكنز إلى بازل السويسرية، وتلك الشركات التى أسسها فى البلاد العربية.

مرة.. اتسعت دائرة الهمس، وتم توزيع منشورات معادية داخل مصنع الإطارات المحلية، ومعمل الأغذية المحفوظة وترسانة بناء وإصلاح السفن حمولة عشرة آلاف طن، لكن ما يجب التأكيد عليه، أن المقر الرئيسى لم يوزع فيه منشور واحد، بل إن تعاطفا قويًا سرى حتى فكر البعض فى جمع أموال ونشر إعلان على صفحة كاملة، لكن الجواهرى قاوم الفكرة، وأحبطها تماما.. طبعا بتوجيه من سيادته، ثم

جرى ما لم يتوقعه أى من العامين، أو المهتمين، أو المتعاملين فى الداخل والخارج.

صباح اثنين دافئ، مشمس، عكس أيام البرد السابقة، ظهر رجال أشداء يرتدون الملابس المدنية، لكن هيئتهم العسكرية لا تخفى على عينى من له أدنى خبرة، دخلوا إلى المقر الرئيسى بصحبة مدير الأمن الذاتى، تفقدوا المداخل والمخارج، صعدوا حتى غرف آلات الرفع الخاصة بالمصاعد، إلى برج الإرسال الدوّار، استفسروا عن الطوابق التحتية، وتوقفوا طويلا عند الحفرة اللانهائية، المستديرة، قذف أحدهم مكعبا صغيرا من الصلب المجلفن، ويغد إصغائه عدة ثوان، مع انعدام الصدى، قال لزميله إنه لم يتصور العمق إلى هذا الحد، ويعنى ذلك أن ثمة فكرة مستبقة لديهم لكنهم أرادوا التأكد من أمرها.

اطلعوا على البطاقات الشخصية للعاملين كلهم، وفحصوا بصمات الأبله، ومرروا أجهزة صغيرة على الجدران، والأسلاك المغطاة، ومواسير المياه والصرف الصحى.

فى اليوم التالى، تمام الحادية عشرة، ظهرت أول عربة من قوات الحرس الجمهورى، فى الثانية عشرة توقفت العربة الكاديلاك السوداء الطويلة، نزل منها جمال عبدالناصر شخصيا، لن ينسى الجواهرى لحظة خروجه، وقوفه لحظات محكما زرار جاكتته بيديه، تقدم المؤسس منه. عند المصافحة صفق الجميع، تلويحة عبدالناصر، استدارته المتمهّلة، تقدمه الوثيق الواثق، لم ير مثيلا لمشيته، لمهابته، لقوة حضوره، لا يضاهيه إلاّ المؤسس.

يردد الجواهرى إنه بدا ملء العيون، منيع الجانب، قوى المكانة، نافذ النظرة، قادر على المنازلة.

مشى المؤسس إلى جواره، كان أقصر، أكثر امتلاء، بدا هادئا واثقا، فى الصالة الدائرية بالطابق الثانى عشر، وقفت أمام اللوحات البيانية والرسوم التفصيلية موضحا، شارحا، متحدثا عن نوابغ العاملين، كبيرهم وصغيرهم، مؤكدًا تشجيعه للمواهب فى مختلف المجالات، لكم ردّد أن العمل مع الكبار يجعل الكبير أشمخ.

فى المكتب بدا عم صديق مبتهجا، مبتسما بعد أن استدعاه المؤسس ليصغى إلى ثناء الزعيم على القهوة السادة التى شرب منها واستفسر عن مصدر البن وما أضيف إليه.

دعا له عم صديق بالنصر وطول العمر، وفيما تلى ذلك واظب على تسليم مندوب مخصوص من مكتب المعلومات التابع للرئاسة، نصف كيلو من البن المحوّج، ويؤكد الجواهرى أنه رفض تماما تقاضى أى مقابل له حتى وفاة الزعيم فى الثامن والعشرين من أيلول/ سبتمبر. بعد يوم الاثنين هذا انقطع تماما، عندما جاءه المندوب الرئاسى قابله بجفاء، شخط فيه، قال إنه كف، وتطلع إليه بالنظرة نفسها التى أربكت الضابط المتقاعد.

أقاويل عديدة حول قهوة عم صديق، وتأثيرها على الرئيس الراحل، تناول الأمر كتابان صدرا مؤخرا، لكن الحديث عن ذلك سابق لأوانه، المهم.. أذيعت الزيارة بالكامل عقب نشرة السادسة المرئية، اعتبر ذلك دعما من زعيم الأمة، وعلقت الصحف، وأشار رئيس تحرير «الأهرام»

فى مقاله الأسبوعى إلى خلو الزاوية اليمنى لفم المؤسس من السيجارة المشهورة.

فى هذا الوقت كانت المؤسسة ملكية عامة، لا تخصه، لا تتبعه، كان يتقاضى على الورق راتبا شهريا كأى موظف، كان يتبرع به إلى صندوق دعاية العاملين. يقول الجواهرى إنه عمل بالهمة نفسها، بذل أضعاف الجهد والطاقة، لم يسمع عن إنسان ذى كفاءة فى أى مجال أو تخصص إلا وسعى إلى ضمّه أو الاستعانة بخبرته، شجّع نوابه رؤساء القطاعات والمنشآت على تجاوز النظم الجامدة، مع احترام اللوائح المتوارثة، وفى اللحظات الحاسمة لم يتردد، تقدم وتحمّل المسئولية كاملة.

ليس الجواهرى وحده، إنما قدامى العاملين كلهم يذكرون أيامه بالخير، يحنّون إليها، يضربون المثل تلو الآخر من واقع تصرفاته وقراراته التى لم تخطئ قط، ظل معظمهم على إخلاصه حتى بعد عزله، ومروره بالمحنة الكبرى، ثم المحنة الصغرى، لم ينقطع واحد من معاونيه، ومن صغار العاملين الأوفياء عن زيارته، والاطمئنان إليه، ومن لم يستطع أرسل إليه شفاهة أوكتابة، وعلق بعضهم صوره فى قاعات الاستقبال داخل بيوتهم، احتفظ آخرون بخطابات منه، أو أوراق عليها خطوطه وتوقيعاته. بعد رد اعتباره جاهر الجميع بمحبتهم، جرى ذلك عقب حركة أيار/ مايو الكبرى، التى اعتبرت ثورة فيما بعد، حتى تندّر بذلك عدد من المعارضين، وقالوا ساخرين: اللهم أكثر من الثورات.

على أى حال.. حتى هؤلاء الخصوم لم ينكروا حزمه، ومواهبه المتعددة، وقدراته الخلاقة التى أنشأت المؤسسة من لا شىء، صحيح أن التوسعات ما تزال مستمرة، لكن استنادا إلى الأسس التى وضعها.

هزات عديدة تعاقبت، كما ظهرت علامات فساد قائمة، لولا متانة التأسيس، واتساع المجالات وتنوعها لانهارات منذ زمن، أما الصراعات التافهة، فلم تُعرف قط فى زمنه.

فى وقته لم يرتق إلاّ صاحب الكفاءة، الموهوب، بحق، الآن.. أصبح الطريق مفتوحا لمن يجيد وسائل لا صلة لها بالعمل، ألم تكن الكارثة وشيكة الوقوع؟

ألم يكن بين البروفيسور والطابق الثانى عشر إلاّ خطوة أو خطوتان؟

يضرب الجواهرى كفّا بكف، يبدى تحسرا فاجعا على بقائه حيا حتى شهوده أموراً مثل صعود البروفيسور المفاجىء، أو تلك التى تجرى الآن والتى كان مجرد تصورها مستحيلا.

للجـــراج مكـانة

إذا ذكر البروفيسور اقترن على الفور بالجراج، ليس لأنه من مؤسسيه، أو من العاملين القدامى فيه، فهو من الدخلاء جاء بتوصية من زوج خالته أو عمته وكانت له صلة وثيقة بمدير مكتب عضو بارز فى مجلس قيادة الثورة، جمعهما الشطرنج الذى كانا يلعبانه مساء كل خميس واثنين بمقهى يطل علي حديقة الأزبكية.

البروفيسور من الجيل الثالث تقريبا، إذا اعتبرنا المؤسس يمثل الأول. كان الجراج منطلقه، وبداية وثبته الكبرى التى كادت تحمله إلى الطابق الثانى عشر، لذلك لا بد من الإشارة إلى أهمية الجراج، قال الجواهرى عن المؤسس: «الجراج من أركان المؤسسة، ومن لم يوله عنايته فُقد».

شك البعض فى نسبة مثل هذه الأقوال، قالوا إن من يريد فرض وضع معين يبرز جملة أو فقرة منسوبة إلى المؤسس بغض النظر عن توافق القول للأوضاع أو تناقضه، غير أن ما يذكره الجواهرى له منزلة خاصة، كل ما فاه به موثق، إما من خلال محاضر الاجتماعات الأسبوعية، أو المذكرات والرسائل والخطب التى خطها بيده. أحيانا يتصل الجواهرى ببعض العاملين المتقاعدين بل يمضى لمقابلتهم، أو يسافر إليهم، ليستجوبهم على فراش المرض، مدقّقا، محقّقا، فى صحة لفظ، أو

جملة يشك فى سلامتها، لذلك عُدَّ من أقوى الثقاة، وذا مرجعية لا تقبل الجدال.

إذن.. اهتم الخمسة الذين تعاقبوا حتى الآن بالجراج، أولوه عناية خاصة، حتى اتخذ ثالثهم مقرا له يتردد عليه بين الحين والحين، ومرة عقد اجتماع مناقشة الميزانية داخله.

لا يعنى الجراج مكان إيواء العربات فقط، إنما المقصود كل ما يحويه من مركبات ثقيلة تتولى نقل الخامات والمنتجات، من الموانئ من المطارات، من الوحدات الإنتاجية، من المخازن، ويضم الأسطول الهائل عربات متخصصة معدة لنقل غاز الكلور، والبترول بمشتقاته، والماء الحلو للمراكز الحدودية النائية عن الوادى، وهذه الوحدات بالذات حققت أرباحا هائلة مع بدء النشاط السياحى بمنطقة الغردقة وسفاجة، أما السفارة الأمريكية فتعتمد تماما على وحدات الثلاجات الهائلة فى نقل الأطعمة المخصصة لتغذية العاملين بالسفارة من مينائى السويس والإسكندرية إلى المقر الرئيسى بجاردن سيتى. طبعا هناك خلاطات الأسمنت، وناقلات الرمال والزلط، وألواح الزجاج والمرايا، والآلات لحساسة، أما المقطورات ذوات الست وتسعين عجلة، فلا توجد إلا فى المؤسسة، وعند تحركها تعلن إدارات المرور والطوارئ.

يضم الأسطول الخفيف وحدات لنقل الأموال، والمجوهرات النقية الثمينة، والزهور المورقة المعدة للتصدير، خاصة الياسمين البنى سويفى، والفل السكندرى، وعصفور الجنة المصرى، كذلك الألبان الطازجة، والفطائر والحلويات. . . .

هنا ثلاث عربات مجهزة لنقل الثعابين السامة، فى منتصف

الخمسينيات أنشأ المؤسس مزرعة قرب أبى رواش، تضم مجموعات نادرة من أشد الحيَّات فتكا، بدأ مشروعا لاستخلاص السموم النادرة وبيعها إلى شركات الأدوية العالمية مما حقق دخلا لا بأس به من العملة الصعبة، ويؤكد البعض أنه يقدم منتجات هذه المزرعة إلى جهات ذات شأن، وثمة صفقة مؤكدة جرت بعلم الدولة بين المؤسسة، وإحدى الهيئات الأمريكية شديدة الحساسية والأهمية. مع تكاثر الثعابين، خاصة الكوبرا، والطريشة الفتاكة، سمح ببيعها للهواة، ولأمراء النفط، كان يتم تصدير الذكر والأنثى داخل صندوق زجاجى شفاف، مزوّد بنظام خاص للتهوية، ولإدخال الغذاء، أما السم الذى دس للملك السابق فاروق فى روما أثناء جلوسه على مقهى شهير قرب فيللا بورجيزى، فيؤكد العالمون أنه من منتجات تلك المزرعة التى تدر الآن مبالغ طائلة من العملة الصعبة النقية.

ثمة سيارات مكيفة، مجهزة لنقل السلالات النادرة من الخيول، خاصة أحفاد الأبجر، واليعسوب، فرس الزبير بن العوام. والأجدل، فرس أبى ذر الغفارى، وكان المؤسس يكنّ لأحفاد الأخير معزّة خاصة، ولا يفرط فيها إلا بعد كد شديد، كان رحمه الله يحب الخيل حبا شديدا، دائم التعلق بها. ولم يكن يسمع بفرس فى سائر أنحاء الدنيا، فيه أصالة، وحُسن، وقوة، إلاّ بعث رسله ومندوبيه، وتحايلوا حتى يحضروه إليه، وله فى ذلك حوادث معروفة.

كان يحفظ أنسابها عن ظهر قلب. وعنده مخطوط نادر لكتاب أنساب الخيل لابن الكلبى، ومخطوط آخر لمعجم بأسمائها وألقابها. ويقول الجواهرى إن حالة من النشوة كانت تبدو عليه عند اقترابه من حصان أو

فرس ينحدر من تلك السلالات الكريمة، ويبدو أن الخيل كانت تتلقى عنه، فتقابله بالصهيل، ورفع القائمتين الأماميتين.

الحديث فى هوايته للخيل، يطول، لكن ما عاد منها على المؤسسة كثير. كانت المزرعة فى محافظة الشرقية، لكن.. اسمها يتردد فى العالم كله، فى أشهر المجلات، والصحف، والكتب وفى روايات أغاثا كريستى، قصدها الملوك والرؤساء والمشاهير، وللأمير أغا خان استراحة قربها يقيم بها عند زيارته السنوية إلى مصر.

بيع منها حصان إلى الرئيس الأسبق أيزنهاور بثلاثمائة ألف دولار، ويقول المحرر الاقتصادى لـ«التايم» إن البيت الأبيض ربح من سلالة هذا الجواد الكريم والمعروف بالأقصر، عدة ملايين من الدولارات، مرة واحدة فقط أقدم سيادته على إهداء جواد أصيل يمتّ بنسب إلى اليعسوب. كان ذلك عند زيارة نيكيتا خروشوف إلى مصر، ويبدو أنه أراد مجاملة عبدالناصر فى شخص ضيفه.

عُرف الجواد باسمه الذى اختاره له الرئيس الراحل، «أسوان»، نقلته طائرة عسكرية خاصة إلى موسكو، لكنه مرض وذبل، نصح الخبراء بنقله إلى جمهورية أخرى، لم يستقر فى أذربيجان، ولم يتحسن فى جورجيا، ولم يصح أمره فى لاتفيا، ولم يقرب الفرس الجميل المنحدرة من سلالة خصت القياصرة البائدين، لكنه عندما حطّ فى تركمانيا بدا وكأنه ولد من جديد، صهل صهيلا طويلا، مهيبا، تردد صداه على مسافات نائية، جاوبته خيول الناحية كافة.

استقر فى مزرعة قريبة من العاصمة عشق آباد، فيها ظهر نسله، ورمح قاصدا الجهات الأصلية، أدرج فى البرامج المعدة لزيارة ضيوف الحزب،

باعتباره من رموز الصداقة بين الشعوب، ومن الأحوال النادرة. دُونت أوصافه فى دوائر المعارف العامة، والمتخصصة، وقدم الهواة الأثرياء من الأقاصى النائية للفرجة عليه، ولم تخف عن العيون رعشة النشوة التى تسرى فى النساء اللواتى تطلعن إليه، حتى أن خدرا كان يصيب بعضهن، والحديث عن تلك الأميرة الهولندية التى حاولت مضاجعته ليلا معروف.

بعد أن جرى ما جرى للاتحاد السوفيتى، أقدمت القيادة المحلية علي ما لم يشرع فيه مسئول من قبل، إذ عرضت أبناء أسوان وأحفاده الأربعة للبيع، كان الهواة لا يصدقون أنفسهم عند مواجهة الغرة البيضاء، والحافر الذهبى.

هكذا حصلت الخزانة التركمانية المستقلة حديثًا على قدر غير هين من العملة الصعبة، نسبة دخلت جيوب المسئولين، لكن مقداراً لا بأس به استخدم فى تمويل عمليات شراء مواد غذائية عاجلة. هذه التطورات ليست بعيدة عن المؤسسة فى مزرعة الشرقية تجرى متابعة دقيقة لنسل الخيول التى خرجت إلى أماكن شتى من العالم، والحديث هنا يطول، لكن ما يعنينا الآن الأهمية الخاصة للعربات الثلاث المجهزة لراحة الخيول. إن استخدامها لم يكن يتم إلاّ بموافقة المؤسس نفسه، طبعًا. اختلف الأمر بعده، خاصة الآن!

ضم الجراج معدات شتى، رافعات متحركة، أوناشًا ثقيلة، ومتوسطة، جرارات من طرز مختلفة، وآلات حفر، ورصف، وتقليب تربة، وثلاث عربات إسعاف، منها المجهزة بالبلازما ومختلف فصائل الدم، وأخرى تضم غرفة عمليات على أرفع مستوى علمى، أما سيارات

الركوب فلا حصر لها. منها الفاخر القديم المعدود في المتحف الآن، وحتى العادي.

ما تزال عربة سيادته في ركنها المعتاد تلقى كل عناية، تجهز انتظاراً للتلبية والاستجابة في أي لحظة، مع أنه غاب إلى الأبد، من نوع كاديلاك، طراز بداية الأربعينيات سوداء، استثنيت من التأميم، لكنه اعتبرها من ممتلكات المؤسسة، أوصى ببقائها والعناية بها، لذلك كان اختفاؤها في منتصف السبعينيات مثيرا للأقاويل، شقّ على العاملين القدامى، ثم أثير الموضوع علنا في الثمانينيات، طبعا بعد رحيل الرئيس السادات!

ثمة سيارة أخرى كان المؤسس يفضلها كثيراً، خاصة عند سفره إلى الإسكندرية، في الأصل مهداة من هتلر إلى الملك السابق عند زواجه الأول، ولا يقدم الجواهري تعليلاً مقنعًا عن كيفية انتقالها إلى المؤسس، ولا يُعرف مصيرها الآن، وعندما تردد ظهورها في موكب عرس صاحب مصنع حلويات، سافر عطية بك على الفور، لكنه رجع ليؤكد في مذكرة رسمية أن السيارة التي عاينها تخص الرئيس جمال عبد الناصر شخصيّا وأنها بيعت في ظروف ما، وكل إنسان في الإسكندرية موقن من ذلك.

خصصت السيارات الصغيرة لرؤساء المنشآت ومديري القطاعات والنواب الأربعة، ومن يحظى برضاه الشخصي، من السائقين، كان يعرف الكثير عن العاملين، ما من كلمة تلفظ في العربات على اختلاف أنواعها إلا وتبلغ إلى سيادته من خلال عاملين على درجة عالية من الولاء والإخلاص، أدق التفاصيل توفرت عنده أولاً بأول، بفضل إحكام

قبضته على كراج المؤسسة بفروعه المختلفة، لذلك أوصى معاونيه، ضرورة العناية بالكراج.

انضباط الكراج يعنى استقرار المؤسسة، من حركته يمكن متابعة حجم الأعمال، دقة الأداء، معدلات النمو، لهذا حرص سيادته على اختيار شخصيات قوية، حازمة لإدارته، كما ألحق به أكفأ الفنيين والمتخصصين.

رئيس قسم الإطارات كان حاصلاً على درجة علمية رفيعة فى الكاوتشوك، رئيس ورش الصيانة عمل أستاذًا فى كلية الهندسة الملكية، المسئول عن الخراطة أمضى عشرين سنة فى ورش الجيش الإنجليزى بقاعدة القناة، ومن المؤكد أن خبرته لا تقدر حتى قيل إنه كان يعيِّن الخلل بمجرد النظر إلى العربة عند إدارة المحرك وسماع صوته، قام بتصنيع قطع الغيار المعقدة التى توقَّف استيرادها بسبب موقف دول العدوان الثلاثى.

عرف المؤسس كيف يختار رجاله، لم يقم وزنًا إلا للكفاءة والموْهبة، المدير الأول للكراج كان طويل الصمت، متجهم الملامح، يدير العمل بإيماءات قصيرة وإشارات مدغمة، لا يذكر إنسان أنه رآه باسمًا حتى فى أيام الأعياد، لكن بقدر ما هابه الجميع، بقدر ما أحبوه، وها هى المعدات من طراز الثلاثينيات والأربعينيات مستمرة حتى الآن، الفضل يرجع إليه.

المدير الثانى عُرف بالبساطة والذكاء، حقق أعلى معدلات التشغيل، لم يحدث أن عربة نقل واحدة قطعت كيلو مترًا فارغة، أو بدون جدوى.

كيف تولى البروفيسور أمور الجراج؟

كيف أوشك على الصعود إلى الطابق الثانى عشر؟

ما علاقة الدكتوراه التى حصل عليها فى الطاقة المائية بالمؤسسة، بالجراج، بالمعدات المختلفة؟

ما من جواب مقنع، بعد صدور قرار بتوليه الجراج، أكد البعض أن ذلك تم بإيعاز وضغط من أجهزة أمنية تسعى إلى اختراق المؤسسة منذ مدة وعجزت، أكد بعض العاملين أنه لم يحصل على دكتوراه أو ما يوازيها، وأنه درس فى معهد خاص دراسة حرة، لم يعرف أحد طبيعتها بالضبط، يؤكد العاملون فى إدارة شئون الأفراد أن ملفه يخلو تمامًا من أى ورقة تثبت حصوله على أى شهادة علمية.

لكن.. ما أهمية ذلك الآن؟

لم يفد القرار بيد شخص واحد كما كان الأمر زمن المؤسس الذى يحنّ القدامى إلى لحيظات منه، لكن.. هل يرجع ما مضى؟ من كان يتصور يومًا أن ذلك الصرح الرائع، الذى نشأ بجهد وذكاء وخبرة المخلصين والموهوبين، ينتهى إلى ما آلت إليه الأحوال، هل كان يتصور مخلوق أن يجىء يوم فيلتحق بالمؤسسة من لا يستحق، لمجرد أن زوج أمه أو خالته أو جارته يلعب الطاولة أو الشطرنج مع مدير مكتب شخصية مهمة؟

يلوح الجواهرى بيده إذ ذكر البروفيسور على مسمع منه، يقول إنه على الأقل نظيف اليد، إنه غبى لكنه أفضل من آخرين، لم يعد فسادهم سرًا، أمرهم يجرى على كل لسان، حتى العمال والغرباء الذين يتعاملون مع المؤسسة.

يهز الجواهرى رأسه بتأن: «مع حمقه . . إلاّ أنه أحسن من غيره»، عندما التحق البروفيسور بالكراج بدا مهتما بالتفاصيل، بالشكل، يدقق فى التوقيعات، ومواعيد الحضور والانصراف، بعكس النظام القديم الذى أرساه المؤسس، أن يكلف كل شخص بعمل محدد، المهم أن ينجزه على الوجه الأكمل، سواء تم ذلك فى ساعة أو ساعتين.

كانت بداية طلوع أمره عندما أصبح مسئولاً عن إدارة عربات الركوب، ركّز فى البداية على إصلاح الأعطال ومظهر السيارات، وزودها ببعض الكماليات التى كانت ممنوعة، مثل أجهزة التكييف، والهواتف اللاسلكية، وهذا ترف لم يعرفه المؤسس، وما خلفه خير شاهد، بل إنه بعد التأميم، عندما أصبحت الملكية عامة، وتم شراء مائة سيارة تشجيعًا لشركة النصر، رفض المعاملة الخاصة، صار يستخدم سيارة عادية، صغيرة، إنتاج محلى، ولم يجلس فى المقعد الخلفى قط، مكانه دائمًا إلى جوار السائق، وعندما كان يستخدم الكاديلاك السوداء، أو المرسيدس التى أهداها هتلر إلى الملك السابق، كان يدفع ثمن الوقود من جيبه الخاص، مع أنه لم يمش متراً واحداً فى حياته إلا من أجل المؤسسة.

ركز البروفيسور على العناية بسيارات كبار المسئولين من رؤساء قطاعات، ونواب، ثم وفّر عربة لكل صاحب نفوذ، أو علاقة بشخصية مهمة، وبعضهم لم يكن يحلم بذلك قط، وفى الوقت نفسه تقرّب من السائقين، استخدم اللين والعطف لكنه فى مرات معينة أسفر عن قسوة شديدة، مما حير العاملين تحت إمرته، حتى أنهم خافوه رغم سخريتهم منه وترديدهم النكات، وإطلاق أسماء ذات صفات مضحكة أكثرها

شيوعًا فى المؤسسة، «البروفيسور قلقاسة»، «البروفيسور كباية». ومعظم هذه الصفات مستوحاة من هيئة دماغه الصلعاء تمامًا، ذات النتوءات والتموجات، والانخسافة الملحوظة التى تبرز جبهة كاللافتة المائلة إلى الأمام، تحتها عينان جاحظتان باستمرار، حتى زعم بعضهم أنه ينام ويستغرق فى النعاس بدون أن يغلقهما، تتصل رأسه بكتفيه مباشرة، رقبته لا وجود لها تقريبًا، حتى أنه عندما يستدير أو ينظر إلى من يجاوره يمينًا أو يسارًا فإنه يلتفت بجسده كله. ولم يتجاوز رأسه فى غرابة التكوين إلا ردفاه الغليظان، الهائلان، وحركة شطريهما التبادلية، واحد.. اثنين.. واحد اثنين..

أكد بعض ممن عملوا معه عن قرب أنه يصاب بحالة جنون مؤقت، عندئذ يطق الشرر من محجريه، ولا يمكن التنبؤ بما يفعل، حدث مرات ما تناقله العاملون فى المقر الأصلى، ولكن.. برغم ذلك كله، أدار العمل بيد من حديد، وأغدق على عدد من السائقين، جعلهم عيونًا وآذانًا له، ينقلون له ما يسمعونه، وهل هناك من يعرف الأسرار مثلهم؟ ربما لهذا السبب حرص المؤسس على أن يقود عربته بنفسه، خاصة بعد التأميم، وبعد وفاة السائق العجوز الذى نشأ فى بيت والده، وكان يصحبه إلى المدرسة ويعود به منذ أن كان طفلاً، وخلال التحقيقات التى أجريت معه، سأله ضابط كان يرتدى الملابس المدنية ويجلس بجوار وكيل النيابة عن السر فى قيادته عربته بنفسه، ورفضه اتخاذ أى سائق.. لا من المؤسسة، ولا من خارجها، ولكن هذا موضوع يطول الحديث فيه.

مع تولى البروفيسور مسئولية الكراج كاملة تم التخلى نهائيًا عن المبدأ

القديم، ألا تستخدم العربات إلا فى مهام تتصل بالعمل، أصبح عاديًا رؤية العربات ذات اللونين الشهيرين، الأسود والأحمر، أمام ا لنوادىَ الرياضية، والعيادات الطبية الخاصة، وعند أسواق الخضر والفاكهة، وحتى سوق السمك فى غمرة، صار مألوفًا انتظار السائقين أمام البيوت والمقار المختلفة.

غير أن هذا لم يكن كافيًا ليدفع بالبروفيسور إلى ما وصل إليه وإلى ما كاد أن يحققه بالفعل، إذن. . ماذا جرى؟

تُجمع الروايات أنه عرف طريقه إلى القيادة السياسية، صار يقدم خدمات عامةوخاصة، أما العامة فمنها تسخير عربات النقل التابعة للمؤسسة أثناء الانتخابات والاستفتاءات وعند حشد المسيرات ومواكب الاستقبال، صار معروفًا بقدرته على إحضار مليون مواطن بالغ من المناطق القريبة، خاصة من شبرا الخيمة، ومصانع حلوان، بل ومن المنطقة الزراعية الممتدة حتى بنها شمالاً وبنى سويف جنوبًا.

أما الخاصة فعديدة، ومنها على سبيل المثال فقط لا الحصر، تخصيصه سبع ناقلات عملاقة أثناء بناء الرئيس الثالث للمؤسسة عمارة ضخمة بمدينة نصر من عشرة طوابق، واستراحة مزودة بحمام سباحة فى إحدى قرى الساحل الشمالى، تم استخدامها فى نقل الرمال والزلط والأخشاب والأدوات الصحية وبلاط الأرضيات والأثاث المصنع خصيصًا والمستورد.

كان عنده القدرة على استشعار ما يكنه أصحاب النفوذ فيلبى على الفور، خاصة الرئيس الثالث، أوقف على خدمته سبع سيارات اثنان منها من أحدث طراز، وعندما بدأ نشاط الجماعات الأصولية وظهرت

خطابات التهديد، وأنشىء قسم الحراسات الخاصة، وجاء عم إبراهيم المخبر، وتبعه عدد آخر، قام البروفيسور بتجهيز سيارة تتقدم سيارته، وأجرى اتصالاً ما مع القيادة السياسية تم بعدها تخصيص ضابط شاب وثلاثة حراس مدربين على استخدام الأسلحة النارية الحديثة، والرياضات الآسيوية، كانت تطلق عواء طويلاً لإفساح الطريق، بينما يطل من النافذتين الخلفيتين اثنان من الحراس متأهبين لصد الخطر الوشيك، يشيران إلى العربات الأخرى بالابتعاد عن المسار.

بصراحة. . هيبة لم يعرفها المؤسس، ولا الرئيس الأول أو الثانى، مثل هذه المظاهر لها مردودها فى السوق المحلية والعالمية، حراسة لا يحظى بمثلها إلا الشخصيات القيادية العليا والسفراء الأجانب المهدَّدون مثل السفير الإسرائيلي. اعتبر سيادته تلك الحراسة المشددة جزءاً من هيبة المؤسسة، وربما لهذا السبب توسع فى إنشاء جهاز الأمن الخاص، وأشرف بنفسه على تفصيل الزى المميز لهم، واختيار الأسلحة المناسبة.

دخل البروفيسور مزاج سيادته، صار يستشيره فى كل كبيرة وصغيرة، أول من يتحدث إليه فى الهاتف، وآخر من يسمع صوته، أدرك العاملون ذلك فراحوا يتقربون إلى البروفيسور ليقول فى حق بعضهم كلمة طيبة، ولكن ذلك لم يكن يتم بسهولة.

مع قرب وصول الرئيس الثالث إلى السن التقاعدى، وسريان شائعات قوية برفض القيادة السياسية التجديد له، لوحظ تردد البروفيسور المتزايد على الطابق الثانى عشر، وفى صباح يوم أحد تصادف مروره أمام المدخل متجهًا إلى مقر إداراة الكراج القائم غرب الحفرة الدائرية اللانهائية، لمح سيارة سيادته، أو بمعنى أدق. . الموكب، عندئذ

تمهل. حدق بعينيه المزرورتين دائمًا وكأنه فى حالة تطلع مستمر، تقدم وفتح الباب رافعًا يده بالتحية. تمامًا كأى حارس أمن، أو ساع قديم.

أشاد سيادته بكفاءة البروفيسور، وإمكاناته، وغيرته على المؤسسة، وحرص على ظهوره بجانبه أثناء توقيع عقد مصنع الشيكولاتة الجديد، بالطبع لم يفت ذلك على المتابعين للأحوال، وخاصة أنه جرى تخطى عدد من أهم المسئولين، صحيح أن الكراج مهم، وأن المؤسس أوصى به، ولكن لم يكن مديره يومًا من الشخصيات التى تتصدر الواجهة.

مع بدء سريان الإشاعات القائلة إن البروفيسور أقوى المرشحين، وإن عدة جهات أمنية بدأت التحرى عنه، لم يصدق أحد، واعتبرها البعض مكيدة من اللجنة النقابية، وخاصة أن رئيسها من عمال الجراج القدامى، وعلى خلاف عميق ذاع أمره حتى أصبح من الأمور المكدرة، التى عجز الرؤساء عن التخفيف منها أو الحد. ولكن عندما تأكد الجواهرى من عطية بك زميل عمره، وأحد أقدم الرجال هنا أن أمرًا صدر بحصول البروفيسور على جهاز «بليب»، نزل عليه صمت، قال عطية بك إنه لم يتوقع وصول الأمور إلى هذا الحد.

لكن.. المحظور أطل، والبعيد لاح قريبًا، والمستحيل صار ممكنًا..

البليب .. يحسم الموقف

للاتصالات فى المؤسسة شأن عظيم. اهتم بها سيادته منذ البداية، أولاها عناية لا تقل عن الجراج، والطوابق التحتية، وقسم الأجهزة الطبية الذى تحول فيما بعد إلى أضخم شركة متخصصة فى الشرق كله.

كان جهاز الاتصالات الذى زود به المقر الأصلى متطوراً عن جهاز القصور الملكية، تابع التطورات كافة فى هذا المجال، وفى كل زيارة إلى الولايات المتحدة يتردد مرتين أو ثلاثة على مقر شركة I. T. T التى دبرت ونظمت عدداً من الانقلابات فى دول العالم الثالث، من بينها انقلاب شيلى الشهير ضد سلفادور اللندى. بالطبع.. لم تنقطع صلته عن اليابانيين، وكما سبق القول أشار عليهم بتعديلات معينة طورت من تصميماتهم. لكنه حجب الكثير عنهم، وخفايا ذلك يصعب الخوض فيها، ولكن المؤكد أن اليابانيين أطلعوه أولاً بأول على ما توصلوا إليه فى مجال الحاسبات الآلية، وأجهزة الاتصال، ليس بسبب خبرته فقط، ولكن لصلاته وقدراته التسويقية الهائلة خاصة فى الأقطار النفطية.

هو أول من أدخل نظام الهواتف الآلية، والأجهزة ذات التحكم المركزى، وخلال الستينيات، كان هناك خمسة تليفونات خاصة فى السيارات: أولها: فى العربة الرئاسية المجهزة. والثانى: فى مركبة القائد

العام للقوات المسلحة. والثالث: فى سيارة وزير الإعلام. والرابع: فى مسئولية وزير الداخلية. والخامس: فى المؤسسة، بالتحديد، فى السيارة الرمادية، محلية الصنع، والتى خصصت له بعد التأميم.

أكثر من ذلك، إنه أول من رتّب اتفاقًا خاصًا مع وكالة الفضاء الأمريكية فى المنطقة كلها، قبل ملوك النفط وأمرائه، والرؤساء الجمهوريين المعمرين، والأثرياء من تجار السلاح والمخدرات وما شابه، استأجر قناة معينة ذات تردد خاص فى أحد الأقمار الصناعية من الجيل الثانى، يؤمن له الاتصال المستمر بأى جهة فى العالم. مجرد جهاز صغير يحمله معه أينما ذهب، إذا طلبه أحد المتعاملين معه، العالمين برقم هذا الجهاز، فإنه يجيب فوراً، سواء كان فى الطريق، أو المكتب، أو المخدع. ويقال إنه أحاط الزعيم عبد الناصر به علمًا، ولم يوقع العقد إلا بعد اطمئنانه إلى موافقته، وبعد وقوع هزيمة حزيران/ يونيو النكراء، استدعاه عبد الناصر إلى بيته فى منشية البكرى، قبل إلقاء خطاب التنحى الشهير، ومن هذا الجهاز اتصل بصديقه هوارى بومدين ليرسل إليه دبابات وقطع مدفعية وليتحادث مع السوفييت فى شئون لم يعرفها غيرهما، هذا مقطوع به، مؤكد. وضع سيادته نظامًا محكمًا، صارمًا لتوزيع أجهزة الهاتف داخل المقر الأصلى، وصار ذلك نظامًا متبعًا فى جميع الفروع والشركات المنبثقة.

الموظفون أو المختصون الأقل أهمية أو مازالوا فى بداية السلم يسمح لهم بالاتصال من أجهزة عامة موزعة على طوابق المبنى، إذا ترقّى أحدهم فإنه يجلس إلى مكتب ذى ثلاثة أدراج، عندئذ يحق له جهاز هاتف بدون قرص، أصم، يمكنه رفع السماعة، عندئذ يجيبه عامل التحويلة الفرعية

فإذا كان الاتصال داخليًا يساعده، وإذا كان خارجيًا فإنه يصله بالتحويلة الرئيسية، عندئذ يتم تسجيل المكالمة وقبل ذلك يجرى الاستفسار عن الغرض منها ومدتها.

عندما يحق للموظف الجلوس إلى مكتب ذى أربعة أدراج، وسطحه مغطى بلوح زجاجي سمك ثلاثة ملليمترات، عندئذ يوضع أمامه جهاز هاتف بقرص، ولكن بدون خط مباشر، مثل هذه الطبقة من الموظفين يمكنها الاتصال بالتحويلة الرئيسية مباشرة وطلب خط خارجي بعد إدارة رقم صفر. وبمجرد انتهاء المكالمة يرفع الخط تلقائيا.

عند وصول الموظف إلى درجة مدير إدارة، أو ما يوازيها يمكنه الجلوس إلى مكتب ذى ستة أدراج، ويزود بهاتف له خط مباشر، لكن لطلب رقم خارجي لابد من إدارة رقم «تسعة» أولاً.

نواب سيادته، ومديرو العموم، يجلسون إلى مكاتب ذات أدراج سبعة، تغطيها ألواح من بللور سمك خمسة ملليمترات، مقاعدهم من جلد إنجليزى غامق، لها عجلات صغيرة تمكنهم من الحركة أمامًا وخلفًا بيسر وسهولة. أما الهواتف فتستقر فوق منضدة مستطيلة إلى الناحية اليمنى. على سطحها ثلاثة أجهزة، واحد داخلى، وآخر خارجى، وثالث أخضر مخصص للاتصال بسيادته. فيما بعد وفى زمن الرئيس الأول الذى خلف المؤسس - ليس المقصود به الضابط المتقاعد الذى جاء بعد بدء المحنة الكبرى - أضاف جهازاً دوليا إلى هذا المستوى الإدارى، وفي عهد الثالث اتخذت إجراءات معينة لتشديد الرقابة على الخطوط الدولية بعد أن بلغت قيمة فاتورة سنوية تخص مدير الإعلانات الخارجية أكثر من مليون جنيه. قدمت أجهزة أمنية خاصة تسجيلات تم

التقاطها بعد أن لفت النظر بطول المكالمات التى تجاوز بعضها ساعة وربع الساعة.

فى زمن الرئيس الثالث جرى إدخال الدكتافون، ويقال إن المؤسس كان على علم به، لكنه لم يكن متحمسًا له، وإن احتفظ بجهاز خاص فى مكتبه يمكنه من الإصغاء إلى أى حوار يجرى فى المؤسسة، خاصة فى غرف وصالات المقر الأصلى. كان البعض أثناء التحقيقات يفاجأ بأقوال نطقوها منذ سنوات، يجرى تذكيرهم بها. فيبهتون، وفيما بعد جرى تطوير هذا الجهاز ولكن لا توجد معلومات دقيقة عنه؛ . والمؤكد أن مسئولاً بدولة عربية طلب الاطلاع على تصميمه لمحاولة تعميمه على القطر الذى ينتمى إليه بحيث يمكن لرئيسه سماع ما يجرى ومشاهدته فى كل مكان، لكن الرئيس الثانى قابل ذلك برفض ساخر.

أجهزة الهاتف التى استخدمها المؤسس، ما تزال موجودة إلى جوار مكتبه ذى الدرج الواحد لا غير، يبلغ، عددها سبعًا، بينها هاتف أحمر اللون، لا يوجد إلا فى الطابق الثانى عشر، إذا دفعه فإن رنينًا يدوى فى مكان معين لا غير، إنه القصر الرئاسى، وبالتحديد فى مكتب الرئيس، وأحيانًا يرد هو شخصيًا.

نظام الاتصال الجديد الذى لم يعاصره المؤسس وإن تنبأ بمثله هو «البليب»، مجرد علبة معدنية صغيرة أدق حجمًا من علبة السجائر وأكبر قليلاً من علبة الكبريت، لها مشبك يمكن أن تعلق منه فى حزام البنطلون أو الحمالة، أو جيب القميص، يتصل بدائرة لاسلكية ذات قطر معين، فإذا جرى الاتصال بحامله، يرن أو يحدث صوتًا معينًا لمدة متفق عليها أو بشكل مسجل مسبقًا، مثلاً . . صفارة واحدة تعنى

ضـرورة الاتصـال فـوراً بالرئيس الأعلى. صـفـارتان تعنيـان رئيس القطاع. وهكذا.

أصبح «البليب» رمزاً، فلم يسمح بحمله إلا للأشـخاص القيـاديين على أرفع مستوى، ويبلغ عددهم فى المؤسسة كلها سبعة، وقبل انتقال المسئول من المستوى الأدنى إلى الأعلى، قبل تغيير حجرته، أو إضـافة هاتف مميز إلى الأجهزة التى يستخدمها، يعتبر منحه «بليب» علامة مؤكدة، يقينية، لا تقبل الشك، تعنى أنه قاب قوسين أو أدنى، لهـذا عندما تم استدعاء البروفيسور إلى الطابق الثانى عشر، وقام الرئيس الثالث بوضع البليب فى حزامه الجلدى الملتف حول جسده السمين بينما يقف مشدوداً، ملتصق الفخذين، عيناه فى أقصى حالات جحوظهما، دق قلبه كما لم يدق فى حياته، حتى أنه قال لصاحب له يثق به فيما بعد إن الفرحة التى عرفها والنشوة التى اجتاحته لحظة تثبيت «البليب» حول خصره لتتجاوز أى لحظة أخرى عرفها أو سيمر بها فى حياته، وأن الأمور لو مضت بدون عوائق، لو أصبح رئيسًا لتلك المؤسسة لما شعر بتلك السعادة التى بثها داخله هذا الجهاز الدقيق، الصغير، يبسط يديه قائلاً:

«الحمد لله.. «البليب» معايا وأنا عايز إيه أكثر؟».

أو يشير إليه مقسمًا:

«وحياة من نولنى «البليب» ده..».

كان يقف أثناء سيره فى إدارات الكراج، أو طوابق المؤسسة ليفك أزرار الجاكتة، ويتظاهر أنه يعدل وضع «البليب»، وأثناء زيارة أقاربه أو الشخصيات المهمة أو الاستثنائية يتعمد إظهاره، وتبلغ سعادته الذروة إذا

صدر الصفير المعدنى الحاد، المتفق عليه، يتابع دهشة الحاضرين، ثم يشرح لهم المصدر منبهًا إلى خطورة الجهاز، وقلة من يستخدمونه فى مصر كلها، كذلك عندما تنزاح الجاكتة قليلاً ويبرز البليب فيلمحه أحد الضيوف ويضطر إلى الاستفسار. فيجيب البروفيسور باختصار أو إفاضة طبقًا لدرجة القرب والعلاقة، إنه يحتفظ به دائمًا، حتى عندما يدخل إلى الحمام ويتجرد من ملابسه ويقف تحت الدش، يضعه فوق الرف، وأثناء مضاجعته لامرأته فإن عينه لا تفارق «البليب»، زوجته تفهمت الوضع، وكانت تشعر أن الأهمية التى يمثلها «البليب» تطالها أيضًا، حتى أنها ذكرته عرضًا أثناء حديثها إلى إحدى صديقاتها فى النادى، عندما قالت إن المشاغل تراكمت، والمسئولية زادت منذ ظهور «البليب» فى حياتهما.

لم يغب عن العاملين حرص الرئيس الثالث على مصاحبة البروفيسور فى جولاته، وعند مقابلته رجال الأعمال الأجانب، وحفلات الاستقبال. غير أن تزويده بالبليب اعتبر أقوى علامة على تصعيده أو تلميعه بلغة المؤسسة. أما الجواهرى فلم يعلق عندما بلغه أن البروفيسور أصبح من مجموعة «البليب» المحدودة جداً، المهمة جداً، جداً، بعد يومين من الصمت، قال:

«هانت المؤسسة على أبنائها إلى هذا الحد..».

ويبدو أن تأثيره الخفى ليس هينًا، إذ نسب إليه جزء كبير من مسئولية الأحداث التى جرت فيما بعد، تردد أن ما استفزه، وما دفعه إلى التحرك رغم شيخوخته، ذلك «البليب» الذى لم يحصل على مثله رغم أنه أقدم العاملين، وأخلصهم للمؤسس.

فى البداية لم يصدق، بدا الأمر مستعصيًا على الفهم، عندما أخبره

عطيـة بك تأكـد. لم يعـد هناك أى مـجـال للشك، عطيـة بك لا يمكن التشكيك فى معلوماته، وما يقوله لا يتدنى إلى مستوى الإشعاعات، رغم أنه التحق بعد الجواهرى بالمؤسسة، إلا أنه يعتبر صنوه تقريبًا، أصغر بعامين، يميل إلى امتلاء، قصير، يخطو متمايلاً من اليمين إلى الشمال، عكس الجواهرى، طويل القامة، بارز الكرش، نصفه الأعلى مائل إلى الوراء كأنه على وشك أن يسقط، جفونه غليظة، مرتخية، لذلك يبدو ناعسًا أو مستيقظًا لتوه، رخـو اللهجـة. أما عطيـة بك فحـاد النظرة، مختصر اللفظ، لهجته توحى بالثقة، لا يتكلم إلا متمهلاً طوال مراحل عـمره، لديه مـهـابة مـؤثرة، وهو أحـد الذين اختـارهـم المؤسس بنفسـه لسـببين، قـدرته على الإقنـاع، وموهبتـه فى إطـلاق الإشـاعـات والتى لا يضاهيها إلا كفاءة الجواهرى فى صياغة العبارات.

أمـا إمكاناته فى إقناع الآخرين فـترجع إلى رزانتـه، ومظهـره الموحى بخبرة عـميـقة، طويلة فى الحـياة، وهذه عناصر مـؤثرة جـدًا عند إبرام العـقـود مع العـمـلاء المحليين، خـاصـة المقاولين الصـغـار، ومـتـعـهـدى الحـفـلات، والحـانوتيـة، وأهل الفراشـة، والنظافـة، وعـمـال البـوفيـه، والقـادمين من الصـعيد خـصـوصًا. خـلال بناء السـد العـالى، قـام بإنهـاء الإجـراءات كـافـة الخـاصـة بتوفـير آلاف العـمـال، وراعى فى ذلك نسبًا متساوية بين المحافظات أثارت الدهشة بدقتها، هو الذى حدد أجورهم، ومـواقع إقـامتـهم، وطرق إعـاشـتـهم، كـثـيـرًا مـا وصـفـه المؤسس فى الاجـتـمـاعـات العـامـة بأنه من بناة السـد، ولم يكن يجامله أو يبـالغ فى ذلك.

غيـر أن الأهمية الخـاصـة لعطية بك اكتسبـهـا من قـدرته النادرة على

إطلاق الإشاعات، صياغتها وترويجها، ويحيط الغموض دوره هذا، ولكن ثمة تفاصيل لا ينكرها هو نفسه.

من أغرب الإشاعات التى أطلقها، تلك المتعلقة بالفندق القريب من المطار، عندما قرر مجلس إدارة المؤسسة دخول عالم الفندقة، اختار المؤسس عدة مواقع، أولها منطقة المطار التى كانت نائية عن المدينة فى ذلك الوقت، وكانت وجهة نظره أن شركات الطيران سوف تتعامل مع الفندق لقربه، إذ إنه فى مواجهة المدخل الرئيسى مباشرة، ولكن يبدو أن التقرير لم يكن سليمًا تمامًا فى ذلك الوقت، لأن أطقم الطيارين والملاحين والمضيفين والمضيفات يفضلون فنادق وسط المدينة، خاصة المطلة على النيل، والتى ينطلقون منها لرؤية الأهرام أو القلعة ومعالم أخرى. لم تكن مشكلة المواصلات وقتئذ قد بلغت حدًا عتيًا، وكانت المسافة من ميدان التحرير إلى المطار لا تستغرق أكثر من نصف ساعة. الآن ربما تستغرق أضعاف ذلك إذا تعاظم الزحام أو تصادف مرور موكب رئاسى، أو مباراة كرة قدم فى الاستاد، أو مرور قطار حربى عند مزلقان العباسية القديم.

ظل الفندق فى بدايته شاغراً، عندئذ تقدم عطية بك، بوقاره، برزانته، بحكمته البادية، تحدث عدة مراتٍ فى أماكن مختلفة، بدءاً من نادي الجزيرة إلى مقهى الكلوب العصرى القريب من سيدنا الحسين، إلى مقهى الحاج إبراهيم نافع بالجيزة، ويقصده عدد من الصحفيين.

ملخص ما قاله عطية بك، وما ردده بعض ممن هم على اتصال به، أن كل رجل يضاجع امرأته فى إحدى غرف الطابق الرابع والثانى من فندق المطار ينجب ولداً ذكراً، وهذه ظاهرة تكررت منذ أن بدأ الفندق يستقبل

النزلاء، حتى أن امرأة سويسرية أنجبت غلامًا أرسلت صورته من مستشفى الولادة ورجت الإدارة تعليقها فى مكتب الاستقبال، إنجابها طفلاً يعد معجزة بكل المقاييس، لأنها تجاوزت السابعة والأربعين ولم تنجب قط.

شهدت الفترة التالية إقبالاً لم يحدث فى تاريخ الفندقة المصرية منذ خان مسرور فى الزمن المملوكى وحتى فنادق الشركات العالمية الكبرى، حتى عرض بعض أمراء النفط هدايا ثمينة ومبالغ طائلة على الموظفين لتسهيل الحجز، لكن. . عبثًا، كانت قبضة المؤسس وقتئذ صارمة تطال كل شىء. خلال السنوات الأخيرة وبعد اتساع المدينة وتجاوزها مبنى المطار واتساع الحركة الجوية خاصة بعد الاضطرابات فى بيروت، أصبح الفندق مفضلا لدى شركات الطيران العالمية، حتى أن السويسرية أعدت عنه تحقيقا خاصا فى المجلة التى توزع مجانا على الركاب، وتبعتها فى ذلك الألمانية، ثم الكورية الجنوبية، هكذا تحقق مشروع المؤسس وإن تم ذلك بعد سنوات عديدة.

الإشاعة الثانية بدأت مع دخول المؤسسة مجال الملابس الجاهزة، وريادتها فى هذا المجال معروفة، مشهود بها، فى البداية ابتكرت النموذج الورقى، والذى يقوم به مندوب خاص، رجل أو امرأة إلى منزل العميل، حيث يتم تفصيل المقاس بالضبط بعد اختيار النموذج المطلوب، ثم يجرى تنفيذه فى المصنع. وتم بالطبع تخصيص قسم خاص للمحجبات، وفى أقسام العرض العامة التى أنشئت فى مصر الجديدة، والهرم، وجليم بالإسكندرية، ومنطقة الشاطئ فى بورسعيد، كان يتردد اسم الله بصوت مهيب، وقيل إن ذلك يطرح البركة فى الزبائن،

والبضائع، هذا أسلوب اتبع مع تولى الرئيس الثانى ولم يكن معروفا من قبل.

بعض المتاجر الكبرى انزعجت من ذلك، خاصة فى منطقة المهندسين القريبة من المقر الأصلى، شن أصحابها حملة قاسية على المؤسسة وتساءلوا عن سبب دخولها مثل هذا المجال، ثم لجئوا إلى سلاح الإشاعات، عندما شككوا فى مشروع النموذج الورقى، وقالوا إن بعض المندوبين والمندوبات يتجسسون على أسرار البيوت أثناء دخولها، وأن لجوء المؤسسة إلى اللافتات الدينية مجرد غطاء، وأن المؤسسة استوردت قماشا من الغرب، بعد أسبوع واحد من ملامسته الجسم تظهر على الفور علامات الصليب فى تشكيلات زخرفية بديعة.

هنا كان لابد من الاستعانة بخبرة عطية بك وموهبته، بعد لقائه برئيس المؤسسة أدرك الأخير عبقرية المؤسس فى اختيار معاونيه الأوائل، حقا.. لم تتعملق المؤسسة من فراغ!

ترددت إشاعات قوية أثارت ذعراً، ملخصها أن عدداً من أكبر متاجر الملابس الجاهزة، يقوم أصحابها بتركيب آلات تصوير خفية فى غرف تجربة المقاسات والنماذج، وبعد أن تخلع الزبونة أو الزبون الملابس يتم تصوير الأجساد عارية، وفى أوضاع مختلفة، وفى المرحلة الثانية يتم إعادة ترتيب اللقطات، وإدخال صور الرجال إلى جانب صور النساء، وهكذا تستخدم الشريفات والعفيفات فى أسوأ ظروف ممكنة.

صدف أن سافر رجل أعمال محترم يمتلك شركة للمصنوعات الجلدية، إلى دولة خليجية، دعاه صاحب له إلى رؤية فيلم جنسى غير أوروبى، النساء اللواتى يظهرن فيه عربيات.

فوجئ الرجل منذ اللقطة الأولى أنه فى مواجهة امرأته، أم عياله، صدمة مهولة، عاد بعدها على أول رحلة إلى القاهرة، وحتى الآن لم يبح بالسبب الحقيقى لقتلها وتقطيع جسدها وتعبئته فى علب عصير الأناناس الفارغة، كل يوم تكتب الصحف عن الأسباب الخفية للحادث، والرجل يبدو كأنه فاقد النطق. . لكن.

عطية بك يعرف، يدلل، يحكى أدق التفاصيل لمن يأتمنهم، بل إنه يمتلك نسختين من الفيلم الذى أصاب الزوج بالجنون، ودفعه إلى ارتكاب ما أقدم عليه دفعا.

احذروا إذن هذه المتاجر الأنيقة، التى ترفع أسماء غربية، وتعرض أزياء مبالغا فى أسعارها، لكنها تخفى ما تخفى داخلها من الإيقاع بالمحصنات، إلى ترويج المخدرات، خاصة البودرة، أسماء بعض هذه المتاجر معروفة. .

لا يتطرق الشك إلى ما يقوله عطية بك، إن ملامحة رزينة، ونظراته هادئة بعيدة تماما عن الهوى، يتحدث بتؤدة، باختصار، يلمح كثيرا ولا يصرح إلى شذوذ هذا، أو إصابة ذاك بمرض جنسى معد، إلى تخابر أحدهم مع دولة معادية، فى أحاديثه العادية كان يردد دائما:

«العيار اللى ما يصيبشى يدوش. .».

رغم اشتهار عطية بك بقدرته على تخليق الإشاعات وترويجها، إلا أن من يعرفونه عن قرب، كانوا يعتبرونه مصدراً مهما لتأكيد أو نفى أخبار المؤسسة، اهتمامه بالإشاعات يعنى أنه يمارس الكذب العمد، لكن ثمة جانب آخر يثق به القدامى، وهؤلاء قلة، يمكنها تمييز الحقيقى من المفتعل فى حديثه، أو الموضوعات التى يذكرها.

عطية بك دقة قديمة، بدأ حياته موظفا فى وزارة الأوقاف، قسم الحجج العثمانية، إنه أحد الخبراء القلائل فى فك رموز خط القرمة العثمانى، وحفظ الوثائق العتيقة ومعالجة آفاتها، ويوما قدمه المؤسس إلى وفد يمثل إدارة مكتبة الكونغرس للإصغاء إلى خبرته والاستفادة من تجربته مع المخطوطات.

يُضرب بملف خدمته المثل، ناصع تمامًا، خلو من أى عقاب أو إنذار، أو تحقيق يمس الشرف أو الكفاءة، تقديراته السنوية مائة من مائة، لم تتأخر علاواته الدورية قط، وحصل أكثر من خمس مرات على علاوات استثنائية، إضافة إلى المكافآت الخاصة المعروفة بحوافز الطابق الثانى عشر إذ إنه تصرف من مكتب المؤسس مباشرة، وأحيانا من يده نفسها، لكن بطل ذلك بعد التأميم.

عطية بك منضبط حتى فى ملابسه، حتى الآن يرتدى نوعا من القمصان ياقاته منفصلة، يتم تركيبها بزراير خاصة، بطل هذا منذ الأربعينيات، لكن قرب ميدان التحرير متجر يملكه رجل أرمنى تخصص فى هذا النوع من القمصان الذى مازال يرتديه بعض القضاة والمستشارين فى المحكمة الدستورية العليا، وكبار الموظفين القدامى المحالين إلى التقاعد.

فى الصيف، ذروة الحر والرطوبة يرتدى الحلة الكاملة، ورباط العنق، قبل صياغة أى خطاب رسمى يفكر طويلا فى مدلول الكلمات، ومغزى حروف الجر، ويدقق قواعد الإعراب، كان حذرًا تماما من وقوع أى مسئولية، ليس عليه هو فقط، ولكن على المؤسسة كلها، لذلك أسند إليه المؤسس كل ما يخص التعامل مع الجهات الحكومية.

إنه يوصى مرءوسيه دائما بالتزام الحذر، فالكلام يصل، والأذى يقع، لم ولن ينسى زملاء له زُجَّ بهم إلى السجون والمعتقلات زمن الحكم الشمولى لمجرد وشاية، عندما كان كل شخص يحصى أنفاس الآخر، ويحذر بنيه وإخوته، تلك الأيام.. لا أعادها الله أبداً.

يرفع عطية بك يديه إلى السماء، طوال السبعينيات كان سعيدا بهجوم الصحف على الحقبة الشمولية، وأطلق إشاعة حول وجود فالق رهيب فى الصخور المحيطة بالسد، وأن أى زلزلة شديدة سوف تؤثر على هذا الإنجاز الضخم الذى ساهمت فيه المؤسسة للأسف، عندئذ يغرق الوادى كله.

يبدو أنه تلقى تحذيراً، ولكنه نجح فى أن يجعل من السد العالى موضوعا للشد والجذب، للمناقشة، ومازال الأمر مستمرا حتى الآن.

رغم الجرأة التى تقتضيها عملية خلق الإشاعات، إلاّ أنه حذر جدا، فى الصباح الباكر يقرأ الصحف الرسمية قبل أن يتناول إفطاره، وأحيانا قبل أن يغسل وجهه، يطالع الافتتاحيات والأعمدة الرسمية والكتاب المرضى عنهم، الذين يظهرون يوميًا بعد نشرة التاسعة ويواجهون الجماهير من خلال الشاشة الصغيرة، ويشيدون بالإنجازات، كما يستمع إلى التعليقات التى تلى نشرة الثانية والنصف ظهراً، من مجموع هذا كله يصيغ ما يردده بين زملائه، لذلك لم يعبأ كثيرا بمداعبات البعض من زملائه عند مهاجمته الحكم الشمولى، وتذكيرهم له بعضويته فى هيئة التحرير، والاتحاد القومى، والاتحاد الاشتراكى ثم حزب مصر وأخيرا الحزب الوطنى الديموقراطى الحاكم، يردد بهدوء:

«كنا مجبورين.. كنا مجبورين..».

يثق الجواهرى به، بمعلوماته، لذلك عندما سأله عن حقيقة ما يتردد حول صعود البروفيسور إلى الطابق الثانى عشر بعد استلامه جهاز البليب، قال عطية بك إن هذا حقيقى، لم يستفسر الجواهرى من أى مصدر آخر، اتجه إلى المقهى القديم الذى اعتاد أن يقصده منذ الأربعينيات، خلا بنفسه كعادته عند الوقوف على حد البكاء، ليوضح أمورا لا يمكنه البوح بها إلى أقرب الناس . .

إنه يطرق متمتمًا :

«هل من المعقول أن تهان المؤسسة إلى هذا الحد . . » ثم يزفر أنفاسا ملتاعة .

ملوِّحا بأصبعه :

«البروفيسور؟!! البروفيسور؟!!»

لكن شاء الجواهرى أو رفض، خلال هذه اللحظات كان البروفيسور محورا لاهتمام المؤسسة كلها، بدءًا من المقر الأصلى وحتى الفروع الرئيسية والتوكيلات التجارية والملاحية، والشركات الأجنبية المتعاقدة، بل إن بعض الصحف القومية بدأت تجمع عنه المعلومات. أما الوكالات العالمية فأعدت منذ زمن لهذا اليوم، تمّ استخراج الملفات الخاصة بالمرشحين السبعة الذين تم حصرهم من قبل ولم يتبق إلاّ دفع الملف إلى آلات الإرسال بمجرد الإعلان رسميًا عن الاسم .

الشواهد كافة حتى الآن تؤكد أنه البروفيسوز بعد إعلان القيادة السياسية أنه لن يتم السماح لأى مسئول بالاستمرار فى موقعه بعد سن الخامسة والستين .

لم ينتظر بعض رؤساء القطاعات، بل أسرعوا إلى مقر إدارة الكراج لتقديم التهنئة، والإعلان عن التأييد، وحتى نهاية اليوم كان جميع المسئولين بالمقر الأصلى إما التقوا به أو اتصلوا هاتفيا عدا ثلاثة، رئيس قطاع الحاسبات الآلية، والمسئول عن العلاقات الخارجية، ومدير المعامل التجريبية، أما الجواهرى وعطية بك فلم يفكر أحد فيهما وذلك لأنهما محالان إلى التقاعد منذ سنوات، إنما يشغلان موقعين لا أهمية لهما طبقا لوصية المؤسس، واقتضى تنفيذها تحايلا والتفافا حول قوانين عديدة، ولكن هذا لا يعنى أنهما غير مؤثرين، فإذا انعدم نفوذهما على المستوى الرسمى، فإن تأثيرهما الروحى مما لا يستهان به، إنهما أقدم العاملين، ومن الذين وقفوا مع المؤسس منذ المراحل الصعبة الأولى، خاصة الجواهرى الذى حمل قوالب الطوب الأحمر وناولها للمؤسس لحظة إرساء الحجر التذكارى، القائم حتى الآن، عند مدخل المقر الأصلى، ويوجد نموذج منه فى الطابق الثانى عشر، صممه مثّال مصر الأشهر محمود مختار خلال فترة مرضه، وكان ذلك آخر ما أبدعه، جرى ذلك قبل شروع المؤسس فى شراء الأرض من أصحابها.

جرت العادة أن يبدى الجواهرى رضاه بعد شيوع اسم المرشح الجديد، أو الخليفة كما يطلق عليه، وبعد صدور القرار يصحب عطية بك، يسمح لهما بركوب المصعد الخلفى العتيق، البطىء، الذى لا يتسع إلا لشخصين فقط، ولا يتوقف إلا فى الطابق الثانى عشر.

فوق.. ينتظرهما عم صديق مرتديا حلته الكاملة، يفتح الباب منحنيا، تماما كما كان يفعل للمؤسس، يشير بيده، يتقدمهما، يدخلان المكتب الدائرى، حيث ينتظرهما الخليفة الجديد عند حافة البساط

التبريزى التى لا مثيل لها فى متاحف العالم، والمدوّنة فى كتب السجاد العالمية، وكان المؤسس يستعين بالكازارونى خبير الأبسطة لصيانتها، والحفاظ عليها، وغسلها كل ربيع بعرق الحلاوة، ولكن بطل ذلك بعد خروج الرئيس الثانى من الخدمة، ويبدو أن خبرها نما إلى زوجة مسئول كبير يصعب التصريح باسمه الآن، وأرادت نقلها إلى إحدى الاستراحات السياسية ولكن شخصا ما نصحها ألا تقدم على ذلك، فما من إنسان خطا فوقها إلاّ وأصيب بعلة، ويُقال إن عطية بك هو الذى أطلق تلك الإشاعة ليحمى تراث المؤسسة، المهم.. إن السجادة ما تزال فى موضعها، مجلوة، زاهية، محيرة بألوانها وحرير وبرها الأملس كأنها نزلت من النول بالأمس رغم ما لحقها من إهمال فى السنوات الأخيرة.

يقف إذن الرئيس الجديد عند حافتها، يدعو الجواهرى وعطية بك إلى الجلوس، يتقدمانه، يخلع كل منهما نظارتيه الطبية، يتطلعان إليه باحترام، يقول الجواهرى إنه يتذكر اللحظات الأولى التى ولج فيها المؤسس هذا المكتب، كأنها تمر أمام عينيه الآن، ثم يبسط يديه ويطلب قراءة الفاتحة على روح المؤسس العظيم.

بعد الانتهاء من قراءة الفاتحة المباركة يدخل عم صديق متمهلاً، يحمل صينية مذهبة لا يظهرها إلاّ هذا اليوم، فوقها ثلاثة فناجين من طقم خزف يخص أسرة رومانوف القيصرية الروسية. اشتراه المؤسس من مزاد أقيم خلال الحرب الثانية فى شارع عماد الدين بقلب القاهرة.

بعد شرب البن المحوج، والمخصوص، يقول عطية بك إنه رأى فى المنام المؤسس يرتدى جلبابا أبيض، وعلي رأسه تاج من نور أخضر، يبتسم راضيا، مشيرا إلى المقر الأصلى.

عندئذ يترحم الجميع على روحه الطاهرة، ويضع الجواهرى وعطية بك فنجانى القهوة، يرتدى كل منهما منظاره الطبى، يقفان معا، يودعهما الرئيس الجديد حتى حافة السجادة، ويكمل المسافة الباقية عم صديق، حتى المصعد الثانى، الأكبر حجما، والأكثر سعة، إذ يستوعب سبعة أشخاص متوسطى الحجم، هكذا تتم البيعة غير الرسمية، والتى تمنح العاملين كافة استقراراً داخليّا عميقًا، بدونها يلقى المسئول الجديد عكوسات وعثرات يصعب معها الاستمرار، ولو فصلنا ما لقيه الضابط المتقاعد لاتضح ذلك، ولكن هذا يخرج بنا عن الحد . . ويبعدنا عن القصد.

رغم كل المترددين، والاتصالات الهاتفية، وباقات الزهور التى وصلت بالفعل من جهات شتى، سرى قلق خفى، حاول البروفيسور إخفاءه، وبالطبع نما إلى علم الرئيس الثالث فى الثانى عشر اختفاء الجواهرى من المقر، واعتكاف عطية بك فى بيته متعللا بآلام البواسير الحادة التى يعانى منها، أو يدعي أنها تهاجمه منذ وفاة المؤسس!

اتصل الرئيس الثالث هاتفيا، وأكد للبروفيسور رضاء القيادة السياسية عنه، وهنأه مقدما.

عند الرابعة بعد الظهر شوهد البروفيسور يغادر مبنى المؤسسة متأخرا نصف ساعة عن موعده، بدا متجهما، لكنه ذلك الضيق المصاحب للشعور بثقل المسئولية، فسّر البعض تأخيره أن ثمة اتصالات جارية، لكن لا يعرف أحد طبيعتها بالضبط.

قال بعض من التقوا به أنّ عينيه ازدادتا جحوظا، وأن ميل رأسه إلى

الأمام واضح تماما، أما خطواته فمتثاقلة، كان فخذاه ملتصقين يعالج عند أخصائى الأمراض الجلدية لما يعانيه من احتكاكات داخلية خاصة شهور الحر، ويحتفظ فى مكتبه بعلب بودرة «تلك» معطرة، يخطو فكأنهما كتلة واحدة، أصابع كفيه مضمومة دائما، كتفاه بارزان، كأنه فى تأهب مستمر لتسديد لكمة أو تلقى واحدة من خصم لا يُرى.

من أطلق عليه «القرع العسلى» أو الوصف الأكثر شيوعا «قلقاسة»؟

رئيس اللجنة النقابية؟

رئيس قطاع الحواسب الآلية الملازم دائمًا لمكتبه؟

المسئول عن مركز البحث العلمى، المشغول الآن بالتحكم فى إسقاط المطر، وتوليد الغازات الصناعية من مياه البحر، إنه أقوى المرشحين إلى جانبه، اسمه يتردد منذ مدة باعتباره ممثلا للفنيين. أما البروفيسور فيمكن اعتباره منتميا إلى الإداريين، هذا صراع لم يكن له أى أثر بالمرة زمن المؤسس، أو خلال المرحلة التالية لرحيله، لكنه بدأ منذ تولى الرئيس الثانى الذى جاء من كواليس الإدارة.

يبقى السؤال بدون إجابة، من أطلق عليه هذه الصفات؟

ربما بعض العمال الذين عانوا ظلمه وقسوته، ربما عطية بك المبتسم دائما بهدوء رصين، لكنه يقول دائمًا إنه من الحرام الوصف بالعيوب البدنية لأنها خلقة ربنا.

ما بين الرابعة والسادسة اختفى من مكتبه فى الجراج، وسجل سكرتيره عددًا من الأسماء التى اتصل أصحابها هاتفيا وبعضهم لأول

مرة، ممثل رئيس الحى، ومدير مستشفى المبرة، ومدير الطاقة الحرارية، ومنتج سينمائى، وصاحب مطعم القارات الخمس.

من الواضح أن الخبر انتشر، يبادر هؤلاء لإبداء الود بعد أن شموا اتجاه الرياح القادمة. المؤسسة منيعة الجانب، راسخة الأصول، شامخة الصرح، يحتاج الآلاف إليها ولا تحتاج إلى أحد. كثيراً ما يتردد عن جوانب الأنفاق والإهدار المالى بعد زمن المؤسس، ولكن الجذور الضارية، والإمكانات المتنامية تجعل هذا كله مثل بحر يلتقط منه طائر حائم بضع قطرات.. أبداً..

ليست المسألة كنزا خفيا، أو طلسما سحريا، إنها باختصار المؤسسة، كثيرة هى المنشآت التى يسمونها بالمؤسسات، مثل هذه لابد من إضافة الصفة، أو التخصص، فيقال مثلا، مؤسسة الصناعات الغذائية، أو المؤسسة المالية، وأحيانًا يقول المحللون السياسيون، وكتّاب الأعمدة الثابتة فى الصفحات الداخلية «المؤسسة العسكرية» أو «مؤسسة الرئاسة». لكن.. إذا ذكر لفظ «المؤسسة» لا غير فإنه يعنى ويحدد شيئا واحدا فقط. إنها المؤسسة نفسها!

ثمة ما يستعصى على الرصد فيها، على التدوين، على التحليل، على كل ما أعده المصريون والأجانب من دراسات وتحليلات وما استخلصوه من نتائج. ثمة ما يغمض على الأبصار وعلى الإفهام، وعلى الأجيال المتوالية، ما لا يمكن إدراكه بالمنطق، ولا مسّه شعر أو نثر.

سر؟

بل أسرارا

ما من إنسان التحق بها حتى انتمى على الفور إلى كل ما مضى وما هو كائن، حتى الذين جاهروا بالمروق، ولوحوا بالعصيان يوما سرعان ما تابوا، وانثنوا وتقدموا عند المحن التى تهددها.

ما من أجنبى غريب عنها جاء إلى مهمة عابرة، إلاّ ويبدأ سعيه للبقاء، للاستمرار، وعند الاضطرار للرحيل يذرفون دمعا ويسعون وراء السبل كافة التى قد تؤدى بهم إلى العودة مرة أخرى.

طلسم؟

ربما. قد يكون مدسوسًا فى الحفرة الدائرية، واللانهائية، قد يكون مجرد وهم، لكن هذا الاندماج الإدارى، القسرى، القادم من ألباب الذوات، حقيقة لا مرية فيها.

هذا الصرح.. هل ينتهى أمره اليوم إلى جاحظ العينين هذا؟

معقول؟

يكاد الجواهرى أن ينوح كالنساء، المؤسسة ليست حياته فقط، لكنها مصير، توراث، آلاف يتلقون منها وعنها، وملايين يتطلعون ويسعون.

حرص المؤسس على تأمل أى إنسان يسند إليه مهمة أو إدارة ما، يتفحصه من زوايا عدة، منها ما وصفه بالحضور، لكم قال إن ملامح سعد باشا كان لها أثر فى تأجج الثورة، ونفاذه إلى الأفئدة، قال عطية بك إنه سمع سيادته يؤكد على اتصال الجوهر بالمظهر، وهذا لا علاقة له بالجمال أو القبح.

هل يستقر فى الطابق الثانى عشر هذا الغبى، الدخيل، المتآمر؟ من أى مصيبة جاء هذا البروفيسور المزيف، ثقيل الظل، شبيه القلقاس.. من أين؟

تمام السادسة ظهراً، استقر المصعد الرئاسى العتيق فى الطابق الأول قادما من أعلى، ولأن استخدامه نادر فلا يلحظ أحد تحركه.

خرج منه البروفيسور إلى الصالة الرئيسة مباشرة، حتى طلع إلى الطابق الثانى عشر؟

لا أحد يدرى.

لاحظ موظفو الاستقبال، والحرس الخاص للمبنى أن خطواته أكثر تمهلاً، مع جحوظ زائد فى عينيه، كما أنه بدا مهمومًا، ذلك النوع المستجد من الهم على من فوجئوا بتحمل المسئوليات الجسام، قبل صعوده إلى السيارة أومأ إلى السائق على غير عادته، إذ كان يطالع الناس بجبهته البارزة التى تبرز نظراته الحادة، العدوانية، بسرعة ألم بمدخل المؤسسة، والواجهات عند الطرف الآخر من الشارع، خاصة المقهى الأنيق الذى اطلع المؤسس على تصميماته قبل الشروع فى المبنى كله. يؤكد العاملون القدامى أن سيادته خطط ومول إنشاء عدة مقاه تحيط بالمقر الأصلى، يقصدها الموظفون، والعمال، والفنيون، يدس بينهم من ينقل كل كبيرة وصغيرة، فى المقاهى يكون الإنسان أكثر راحة، أقرب إلى طبيعته، يمكنه أن يفضفض.

عندما زار سيادته موسكو فى أول بعثة لرجال الأعمال المصريين توجهت فى الخمسينيات، لاحظ أن المدينة ينقصها شيء ما. عنصر مهم

ينال من اكتمالها ورسوخها، ثم اكتشف قلة المقاهى، بل ندرتها، قال ضاحكًا إن النظام السياسى وراء ذلك، فلا يريدون للناس أن تتلاقى وتتحدث، تتقارب، وربما يبدو هذا صحيحًا من وجهة نظر الأجهزة الأمنية القاصرة. . لكن على المدى الأبعد فيه الخطر كله.

من سمعوه يقول ذلك سنة سبعًا وخمسين وتسعمائة وألف ظنوه يمزح، أو يسخر، كان معروفًا بعدائه للشيوعية ودعوته للتعامل مع الدول الاشتراكية أيضًا، ولكن بعد مرور حوالى خمس وثلاثين سنة كتب صحفى متقاعد، مريض الآن، صحب الوفد فى بداية ارتقائه السلم الصحفى، ذكر ملاحظات المؤسس، ليست المتعلقة بافتقاد المقاهى فقط، وإنما المتصلة بسائر الأوضاع، خلص منها إلى القول بانهيار البنية وفساد النظام فى مدة لن تتجاوز الثلاثين عامًا، ثم عقب قائلاً:

«رغم إعجابى بالمبادىء. . ».

كأنه كان يرى الغيب، هكذا علق الصحفى، أشاد به وترحم عليه.

للمؤسس آراء مهمة فى موضوع المقاهى، مع أنه ليس من روادها المنتظمين، وهذا موضوع يطول الحديث فيه، لكن هذه المقاهى القريبة، المحيطة بالمقر الأصلى لم تنشأ من الصدفة، ولا من سوء التخطيط، يعرف البروفيسور بانتشار رجال أمن سريين، يرقبون المقر الأصلى ويرصدون اقتراب أى غريب منه، ثمة تهديدات كثيرة تصل بانتظام، بعضها من داخل البلاد، جماعات متطرفة، وأخرى عقائدية، وعصابات تعمل فى التهريب، وتزييف العملة، والأنواع العالمية من العطور

ومستحضرات التجميل، وشخصيات مهمة لها علاقة بتجارة السلاح. هناك أيضًا جهات دولية وأنظمة سياسية معادية للمؤسسة حتى فى ظل علاقات دبلوماسية جيدة مع القيادة.

جوانب معقدة، أنشطة متشابكة، مسئولية كبرى يتطلع إلى شغلها أى إنسان في الدولة حتى أولئك المستقرون فى المستويات العليا.

مسئولية جسيمة، لكنها تعادل المجد نفسه، ولديه من الأسباب ما يجعله يسعى ويسعى ثم يتشبث بها قدر الإمكان، هدفه الحقيقى، خدمة المؤسسة والنهوض بها، لكن.. بالتأكيد أمور كثيرة يجب أن تتغير.

ليس هذا وقتًا ملائمًا للإفصاح عن خواطره كافة، وما يعد له من خطط وأفكار.

الوقت غير مناسب الآن.

إن نشوة تنتابه، حتى أن إنعاظًا يدركه، تسرى داخله رغبة جنسية هادئة، متصاعدة على مهل، مع أنه لم ير امرأة لفتت نظره، أو فتاة من المترددات على المقر لأسباب شتى، ولم يلمح هانم مديرة الصادر والوارد، لا يراها إلا ويخف منتشيًا، تتغير مكوناته، لكنه لا يفصح، ولا يومىء، ما يسمعه عن العلاقات بين الجنسين فى المؤسسة مثير وغريب، لكنه بعيد، موقعه فى الجراج لا يجعله على اتصال يومى مباشر بالإناث، لا يتعامل إلا مع المهندسين والعمال والموظفين الإداريين، ليس هذا سببًا وحيداً، لكن انهماكه الشديد فى العمل، وقضاء الساعات الطوال جالسًا خلف المكتب حتى أصيب منذ عامين بآلام حادة فى

الرقبة، طبيب المؤسسة الأول نصحه بممارسة أي رياضة، المشى يوميًا لمدة ساعة على الأقل، لكن. . أين الوقت؟

عندما قرر له الطبيب ارتداء رقبة صناعية من البلاستيك لتقديم فقرات العنق، واجهته مشكلة، لأن رأسه يتصل مباشرة بكتفيه، رقبته مختصرة إلى أقصى حد، لا تلحظ، كان من الصعب على أخصائى الأطراف الصناعية إيجاد مقاس ملائم له، لم تحل المشكلة إلا بعد وصول طبيب يوغسلافى إلى مستشفى القوات المسلحة بالإسكندرية، نصحه بإجراء تمرينات معينة لمدة تسعين يومًا لا تزيد أو تنقص، وفى أوقات محددة، بعضها يتخلل نهار عمله الرسمى، ولكم عانى حرجًا فى البداية عندما يتخلى عن مكانه فى اجتماع مهم. أو يعتذر لمهندس يناقشه فى أمر ما. ويقوم إلى الجدار ليتكىء بمرفقيه، ثم يتراجع إلى الوراء بسرعة ليرتد مرة أخرى، أو يشبك أصابع يديه خلف رأسه ويتطلع إلى السقف، أو يجثو على أربع محركًا دماغه ذات اليمين وذات الشمال.

لكم تألم، ولكم سخروا منه، لكن لم يكن هناك بديل، للتغلب على تلك الآلام الفظيعة.

يستنشق الهواء، لا يخرجه للحظات، إنه يعرفهم بالأسماء، على علم بما يتهامسون به، ويتبادلونه من أوصاف ساخرة، ولكن، ليس الآن، ليس الآن!

عندما فارق السيارة أمام بيته حرص على التمهل، والتحية بتحفظ، كما سمح للبواب بحمل حقيبته ذات القفلين المزودين بأرقام خاصة، عدا ملف ورقى حرص على حمله بحرص، اتجه مباشرة إلى المصعد، ينتظر البواب إلى جواره تقريبًا.

بعد صدور القرار ستتغير أشياء عديدة، أولاً . . سيتم إدراج اسمه بين الشخصيات التى يتم حمايتها بواسطة قسم الحراسات الخاصة، سوف يخصصون له مرافقًا أو اثنين. كل منهما مسلح بمسدس سريع الطلقات، وخنجر معلق إلى رباط يحيط بالساق، سيجلس فى المقعد الأمامى، وإذا جاء اثنان، يمكن لأحدهما أن يقود السيارة، أو يجلس إلى جواره، أو يتبعه فى عربة أخرى، فكرة جديدة حقًا تتناسب مع خبرته وسنوات عمره التى أمضاها فى الجراج، سيصحبه الحارس كظله، يسبقه إلى قاعات الاحتفالات والفنادق الكبرى. . بل إلى بيوت الأصدقاء وكبار رجال الأعمال الذين سوف يتسابقون لدعوته، لمثوله فى اجتماع، أو حفل غداء أو عشاء، يكفى أنه عاش عمراً يرى بعينيه المظاريف الأنيقة تحمل البطاقات المذهبة الحواف بلغات مختلفة إلى من يستحق ولا يستحق فى المؤسسة، عداه هو. . من يهتم بمدير الجراج؟ ماذا يعنى صاحب المنصب لهم؟ لا يدركون أهميته وخطورته الماثلة، الكامنة.

على أى حال، أمامه فرص عديدة ليمتنع، ليلبى، ليوافق، ليرفض، إيماءة منه تثير ردود فعل شتى، وهزة صغيرة من رأسه التى يعرف ما يقولونه عنها ربما تفتح بيوتًا أو تغلقها. لقد انتظر طويلاً، وها هو قاب قوسين.

عندما يعين الحارس الخاص سيصبح هناك وضع آخر لدخوله العمارة، لخروجه، ماذا سيقول الجيران عنه؟ سيدرك الأولاد الأهمية المحاط بها والدهم، سيشعرون بأهمية فائقة منذ الآن، يتقدمون فى العمر وهم فى سيادة.

صحيح أنه يتمنطق الآن بجهاز «بليب»، دقيق، رقيق، لا يناله إلا

قلائل معدودون، لكن . . من يتاح له رؤيته؟ وإذا كشف عن موضعه بإزاحة الجاكتة قليلاً فإنه يلفت النظر أحيانًا، وفى معظم الأحوال لا ينتبه إليه الضيوف والأقارب، أما الحارس فهيئته ظاهرة، ومكانته سافرة تعلن عن نفسها.

لكن . . يجب الانتباه، عندما يصل إلى المقعد الدائرى فى الطابق الثانى عشر ستصبح حياته مهددة فعلاً، سيعتبر هدفًا فى نظر جهات شتى.

لن يسمح إطلاقًا للحارس قضاء حاجات البيت، يعرف مما يسمعه فى المؤسسة أنهم يتطوعون لمثل هذه المهام، شراء الخضر، معاينة الأسماك للتأكد من طزاجتها، انتقاء الأرغفة المخبوزة جيداً، الانتباه لحظات قطع اللحم، لكن . . هذا خطأ.

سيحذر زوجته وأولاده، سيكون هناك بدلاً من الخادم اثنان وربما ثلاثة، أما الحارس الخاص فيجب ألا ينسى مهمته حفاظًا على حياته، ربما يطل الخطر فجأة، فى اللحظة التى لا يتوقعها إنسان، عندئذ يجب أن يكون الحارس متأهبًا باستمرار لتلقفها. للتصدى لها، لدرء الخطر الكامن فيها.

صحيح . . ربنا كريم . .

منذ سنوات يتمنى مجىء يوم يتم فيه تعيين حارس خاص له، صحيح أنه حصل على ما يعتبر أهم وأرفع، جهاز «البليب»، لكن الحارس يراه الجميع، حتى من يجهلهم عند عبوره إشارات المرور، وتقاطع الطرقات، وركاب تلك العربات الفاخرة الذين يتطلعون عبر

زجاجها المغلق وهم يتظاهرون بالحديث عبر أجهزة الهاتف أثناء قيادتهم.

جلوس الحارس فى المقعد الأمامى قيمة ومنظر وهيئة.

باعتباره مديراً للكراج لم يكن له أى حق، لو طالب به لسخروا منه فى المؤسسة، لا يوجد تهديد مباشر لحياته، وهناك أجهزة أمنية على أرفع مستوى تقرر من يجب حراسته.

منذ عامين فوجىء بمدير العلاقات العامة.. لا.. الأدق أنه فوجىء بعبده النمرسى يدخل المؤسسة ويمشى خلفه حارس نحيل، أسمر ثم أصبح لا يفارقه، ينتظره أمام دورات المياه، يفتح له باب السيارة، ويتقدمه إلى الأماكن التى سيجلس فيها، ويتفحص النوافذ والشرفات وينظر تحت المناضد والمقاعد، بل ويتذوق الطعام قبله، يومها سأل، وعندما تأكد ذهل عن نفسه.. والله، والله لو قال إن هذا اليوم من أشأم وأسوأ أيام حياته ما كذب، عبده القواد، صاحب السيرة التى يعرفها كل إنسان، والسمعة التى تفوح رائحتها حتى تبلغ بلاداً خارج مصر؟! ولكن.. هذا موضوع يطول الحديث فيه.

لكم أخفى، احتمل، يوم رؤيته حارس عبده النمرسى وجم، مع ذلك بدأ يستقصى ويسأل، يستفسر خفية وعلانية، بل إنه رفع سماعة الهاتف، اتصل به، استفسر عن سبب ظهور الحارس؟

يعرف العاملون الأصلاء بالمؤسسة صلة النمرسى بالعديد من العمليات المشبوهة، علاقاته الخاصة جداً بأثرياء النفط وخبرته الطويلة فى معرفة أمزجتهم وأهوائهم، لهم صلات ومعاملات وكثير من

العمليات الضخمة التى تدر مقادير هائلة من العملة الصعبة لا تتم لمساتها الأخيرة إلا على يدى النمرسى، هذا جانب يلفه غموض كبير، الشائعات حوله أكثر من الحقائق، إنه من الشخصيات المحيرة، المشاعر تجاهه مختلفة، متباينة، لكنه لم يدخل فى خلاف حاد مع أحد، لم يبد ضغينة لإنسان، بالعكس.. كان دائمًا هو المسارع بالمجاملة، وإرسال الورود، وبطاقات العزاء أو التهنئة، ليس بصفته مديراً للعلاقات، ولكن بدافع من مشاعره الشخصية، الجواهرى نفسه يبدى ناحيته الود، بل.. الاحترام، رغم أنه يتجنبه، ينأى عنه، لكنه لا يستطيع أن يتجاهل دور المؤسس فى إلحاقه بالعمل، إنه من آخر الذين انتقاهم بنفسه، لم يغير اسمه، ولم يخجل منه، بل إنه الوحيد فى المؤسسة الذى يرفع سماعة الهاتف ويبادر بالحديث قائلا:

«عبده النمرسى معكم.. تفضلوا!!».

قال إنه تلقى خطابات تهديد موقعة باسم جماعة دينية متطرفة ارتكبت عدة عمليات اغتيال مؤخراً خاصة فى محافظتى الفيوم والجيزة، أرسلها إلى إدارة مكافحة الإرهاب، بعد بحث دقيق وتحريات مكثفة ثبت أنه مهدد فعلاً.. هكذا تم تعيين الحارس.

يومها أصغى متشككًا، هل ينطق النمرسى صدقًا؟ لن ينسى أبدًا ما انتابه من غم، حتى إنه لم يقبل على الطعام يومًا كاملاً، وبعد استغراقه فى النوم بحوالى ساعة صرخ بأصوات غير مفهومة، بعد أن أيقظته امرأته برفق، توسلت إليه أن يتذكر أطفاله الأربعة، فى هذا الزمن الذى لا ينفع فيه عم أو خال، يجب أن يصارحها بأسباب كمده، يجب أن يخرج من حزنه حرصًا على العيال.

صباح اليوم التالى شرب الشاى باللبن، وأكل البيض المقلى بالزبد، وقرن الفلفل الحامى الذى لم يقلع عنه فى الوجبات الثلاث حتى الآن رغم إصابته الحادة بالبواسير.

أفضى إليها بالسر الذى أقضّه وأمضّه وعلقم وقته، خشى أن يكون ظهور الحارس وراء النمرسى تمهيداً للترقى، ليس تجاوزه فقط، إنما صوب المناصب العليا، لن ينسى أبداً ما قاله عم جويلى أقدم السائقين قبل إحالته إلى التقاعد بأيام:

«كل شىء يمكن أن يحـدث فى المؤسسة، وأى شىء يمكن ألا يحدث. .».

«كيف؟».

لم ينطق جويلى، لم يفسر، مضى منطوياً، منقضياً، الآن. . يتقدم من موقع يمكنه فيه معرفة كل كبيرة وصغيرة، ما ظهر وما خفى، منذ ثلاثة شهور فقط لو أن أحدهم لمّح له بترشيحه رئيسًا للمؤسسة كلها. لزغر صوبه، وأسمعه ما لا يليق، لا يقبل أبداً من يسخر، ولكن لم تمض أيام قليلة إلا واستدعاه إلى مكتبه الدائرى فى الطابق الثانى عشر.

فى البداية لم يخطر له قط أى احتمال بإعداده للخلافة. ولكنه أدرك ذلك فى المقابلة الثالثة والتى حضرها عبده النمرسى شخصيًا ولم يتكلم إلا قرب انصرافه عندما سأل سيادته عن الموعد المناسب لإحضار مندوبى الصحف؟

لهجة السؤال، عينا عبده النمرسى، هيئته المتطلعة، أوحى له هذا بجوهر ما يجرى، منذ تلك اللحظة بدأ يتجه فى كل تصرف صغير أو

كبير صوب سيادته، يراه فى سكناته وحركاته، فى خلوته يقيم له اعتباراً كأنه يواجهه، شيئًا فشيئًا بدأ يتهيأ.

يعرف الدكتور أن تحريات مكثفة أجريت حول مدير قطاع البحوث، وحول رئيس قطاع الحواسب الآلية، تحرز من الأول، واستبعد الثانى بسبب إيثاره العزلة، وصمته الدائم، وعدم اشتراكه فى أى نشاط عام يقيمه العاملون، غير أن شائعة سرت فى المؤسسة عن زيارته المسائية المنتظمة إلى منطقة القلعة، وجلوسه فى مقهى شعبى وحيداً عند ناصية شارع الماس الحاجب، ينتحى ركنًا قصيًا، لا شبيه له فى الانفراد.

يبدو أن الرقابة المستمرة رصدت تردده اليومى وعجز المحللون عن تفسير ذلك، وأن مسئولاً كبيراً فى جهاز أمنى سيادى كلف بمهمة تتعلق به خلال الأسبوع الأخير من الشهر الماضى، وأنه قال عصر يوم السابع والعشرين منه: كيف يمكن لمثله أن يدير مؤسسة كهذه؟ مؤسسة ضخمة لو اهتز مركزها المالى لتضحضح مركز الجنيه على الفور فى مواجهة العملات الأجنبية خاصة الدولار.

استبعده البروفيسور، ومع ذلك لم يهمله، إذ أبدى سخرية واضحة أمام أعوانه المخلصين فى الكراج من أولئك الذين يدرسون الحواسب الآلية فى اليابان وأوروبا، ثم ينتهى المطاف بهم فى المقاهى البلدية، يدخنون النرجيلة ويلعبون الطاولة!

غير أنه كف عن هجومه المستتر عندما أحدث عكس ما أراد، إذ سرى إعجاب بين العمال وصغار الموظفين بهذا الجانب المجهول من شخصية رئيس قطاع الحواسب، بل سعى بعضهم إليه فى المقهى، التقوا به فعلاً، أبدى ترحيبًا وأصر على دعوتهم إلى مشروب ساخن لكل منهم، لكنه

لزم الصمت بمجرد جلوسهم، لم يتحدث إليهم، ولم يتطلع إلى أى منهم مما أشاع عندهم قلقًا وحرجًا. قاموا منصرفين معتذرين عن الإزعاج. .

قرر البروفيسور توجيه جهوده ضد مدير قطاع البحوث، بعد تأكده من تحركه فى عدة اتجاهات، غير أن ما أثار قلقه نشاط شقيقه تاجر السيارات.

إنه يمتلك معرضًا من طابقين قرب ميدان باب اللوق، بالتحديد فى شارع جانبى متفرع من شارع البستان، يعلن عنه أسبوعيًا فى الصحف القومية الثلاث كل يوم جمعة، مساحة ثابتة يحجزها ويدفع قيمتها مقدمًا، يبدو والله أعلم. . أنه يقوم بأنشطة تجارية أخرى، ربما يدخل بعضها فى دائرة المحرمات، لكن البروفيسور فى حاجة إلى من يوفِّر له معلومات موثقة، السوق كله إشاعات، ثمة من يقول إن معرض السيارات مجرد واجهة لتجارة المخدرات، خاصة البودرة، وآخرون يؤكدون أنه قام بإدخال كمية كبيرة من الهيروين فى إطارات استوردها من أفغانستان عبر إحدى دول السوق الأوروبية المشتركة، ربح عدة ملايين ولكنه لم يستمر، صفقة واحدة فقط تؤمن ربحًا هائلاً يكون منطلقًا لتجارة أخرى مشروعة.

من يدرى؟

المهم. . شقيقه هذا له نفوذ فى الوسط الفنى، ويتبرع بين الحين والآخر بمبالغ للحزب الحاكم، كما أنه يسهر كل أسبوع فى عوامة ترسو قرب كوبرى الجامعة، يتردد عليها وزراء، ومسئولون فى مناصب حساسة، يسهم أيضًا فى فندق مينا هاوس لأنه يفضل القاعة الشرقية

هناك، بالطبع لا يتناول العشاء بمفرده، إنما يدعو سبعة أو ثمانية من المرموقين، المؤثرين، أساتذة طب بارزين، أصحاب قرى سياحية شهيرة بالغردقة وشرم الشيخ وأسوان، وبعض ضباط كبار ما زالوا فى الخدمة، وأصحاب مصانع فى مدن السادس من أكتوبر والعاشر من رمضان.

شقيقه هذا أخطبوط، له صلة ببعض ممن يؤخذ رأيهم عند إعداد القرار، ولابد أنه يوظف علاقاته كلها لدفع أخيه إلى الطابق الثانى عشر، منصب خطير يفوق بكثير أهمية أى وزير أو مسئول كبير.

على أى حال وضح الآن الأمر، فالقرار على وشك الإعلان، والقيادة السياسية تضع فى الاعتبار التقارير العلنية والخفية، واتجاهات الرأى العام داخل المؤسسة، لكن رأى رئيسها مهم جداً، واختياره له معروف منذ مدة. لم يبق إلا إجراء واحد، خطوة لا غير ويلج المكتب الدائرى، يستقر نهائيًا فى الطابق الثانى عشر.

يكاد يستنشق العطور الفواحة التى سيعبق بها فضاء المكاتب والغرف المخصصة له، النساء الجميلات اللواتى سيبدأن السعى إليه، جلوسهن أمامه حاسرات عن مقدمات عوالمهن المثيرة، يعاوده ذلك الاستنفار الشبقى العجيب، ليدخر طاقته، تنتظره أيام طويلة حافلة بالمتعة، بالسفر، بكل ما حرم منه.

يدخل بيته كما ينبغى لأى مسئول مثقل، يتحرك على مهل، أول ما نطق به السؤال الذى اعتاد ترديده منذ أسبوعين.

«من سأل عنى؟».

كان يدقق الأسماء التى لم تلتقطها زوجته جيداً، أو التى لم تعن

بتدوينها، منذ ثلاثة أيام استفز حتى أوشك أن يرفع يده ويصفعها لأول مرة منذ زواجهما لأنها كتبت «مرسال» بدلاً من «عبد العال». . العقيد عبد العال من المباحث العامة، اتصاله فى هذا الوقت يعنى الكثير، صحيح أنه عندما بادر وتحدث إليه هاتفيًا، لم يسأله بشكل مباشر عن أى شيء يخصه، استفسر عن أمور تتعلق بشاب فنى فى الجراج أطلق لحيته مؤخراً، ولكن كل كلمة يقولها الآن ترصد، وتحسب عليه.

عليه الحذر، الانتباه. .

أحضر دفتراً صغيراً، فوقه قلم حبر جاف بدون غطاء. قال لها: «اكتبى الأسماء مباشرة . . بمجرد سماعها. .».

أومأت بسرعة، الحقيقة أنها ممتثلة تمامًا للظرف، لا تسفر عن سخافاتها التى تحملها طويلاً من أجل الأولاد، وإذا رجع متأخراً لا تقابله بملامح متجهمة، لأول مرة منذ اثنتين وعشرين سنة يشعر أنه يفك، أنه ينأى عن أسارها إلى حد ما، يسأل نفسه كلما انصرفت عنه أو أولته ظهرها خلال الأيام الأخيرة:

هل تصلح لمقتضيات المنصب الجديد؟

ماذا يقولون عنها عندما تظهر إلى جواره فى حفلات الاستقبال؟ والدعوات الموسمية والمناسبات الرسمية، زوجة الجالس فى الطابق الثانى عشر شخصية عامة مثله تمامًا، لا يخلو منها باب صحفى من أبواب المجتمع، ولا مجلة فنية أو نسائية، وأحيانًا تظهر على الغلاف، كانت زوجة الرئيس الثانى جميلة، تشبه مريم فخر الدين نجمة السينما التى يعتبرها البروفيسور مقياساً ومرجعًا للجمال الأنثوى، ويبدو أن المؤسس

كان معجبًا بها أيضًا ويقال إنه يوجد عدد من مجلة «المصور» يرجع إلى الأربعينيات على غلافه صورتها وهذا محفوظ فى الحجرة الخاصة بمخلفاته التى عثروا عليها داخل المقر الأصلى.

سيتأمل تلك المخلفات على مهل، لن يتعجل.. هذا كله سيتم فى الوقت المناسب، غير أنه يعود للتفكير فى زوجته هذه!

تعرَّف إليها فى الجامعة، كانت تجىء من مقر كلية الفنون التطبيقية حيث تدرس النسيج والصياغة، إلى مبنى كلية التجارة حيث يدرس.

كان فى السنة الرابعة النهائية، وهى فى الثانية، كانت تجىء لتزور شقيقها وتشرب الشاى فى المقهى الصغير المجاور، ليتها لم تأت.. ليته لم يرها.

لكنها والله طيبة، بيضاء السريرة، صافية القلب.

ظهورها المبكر فى حياته، وارتباطه لم يتيحا له فرصة المرور بتجارب شتى، أتيح له فيما بعد أن يبدأ ولكن لم يكمل، كتمت على نفسه، كانت تشم الخطر من بعيد، مع أن عمله بالكراج أقصاه عن أى احتكاك بنساء المؤسسة، سواء العاملات أو من يترددن، لكن.. ألم تحفظ بيته؟

ألم تقم على تربية الأولاد والمذاكرة لهم؟

ألم تُتح له فرصة التفرغ لأداء عمله بجلد، وكفاءة، حتى لفت إليه الأنظار. وها هو على وشك الوصول إلى الطابق الثانى عشر، إلى تحقيق كل ما حرم منه، ما لم يعشه.

فى هذه السن المبكرة، عندما كان طالبًا بالجامعة، تجنب الاختلاط،

كان يعى تمامًا غرابة مظهره، بروز جبهته، وازورار عينيه، كثيراً ما لمح السخرية فى عيون الطالبات عند مروره بهن. عندما التقت نظراتهما أيقن أن شأنًا بدأ بينهما، وعندما استدارت لتنصرف حسم أمره، كان ساقاها كما يرغب تمامًا، مرتويان، أملسان، تقوم أعلاهما استدارتان مرتويتان، مثقلتان، تميلان إلى أسفل رغم اتجاههما إلى أعلى.

رغم انعدام تجاربه فى ذلك الوقت، وعدم خبرته بالجنس الآخر، حتى إنه لم يكن يدرى ماذا يجب أن يقال عند الخروج لأول مرة معها، وهل من اللائق أن يلامس أصابع يدها؟ وعند عبورهما الطريق هل يمسك ذراعها؟ بل إنه لم تكن لديه فكرة واضحة عن اتصال الرجل بالمرأة، بعد زواجه بسنوات عديدة، وبعد سفره إلى أوروبا ورؤيته أول فيلم جنسى اكتشف أنه أهدر عمراً، وأن الجهل حرمه من أوضاع كان يمكن أن تبدل أفقه تبديلاً، وعندما حاول بعد عودته قالت له بحسم: اختشى يا رجل.. نحن لم نعد صغاراً.

يتطلع إليها صامتًا، محتقن النظرات، مردداً بينه وبين نفسه: لماذا لم تصر على موقفها القديم؟ لماذا تراجعت عنه؟

عندما تقدم إلى شقيقها، طلب أن يمهله يومين، بعدهما رجع إليه ليقول إنه ما من اعتراض عليه من ناحية الخلق أو النسب، المشكلة أنها تريد شخصًا يحمل مؤهلاً مساويًا لمؤهلها، بعد تخرجها. ستحصل على بكالوريوس الفنون التطبيقية، وهذا يعطيها الحق فى عضوية نقابة المهندسين.

هل من المعقول أن تقبل بكالوريوس تجارة؟

ما يناسبها بكالوريوس زراعة على الأقل، طبعًا الوضع الأمثل خريج هندسة . حلم أى فتاة من طالبات الآداب أو الحقوق، والكليات الشبيهة .

لا . . لا يمكن أن تقبل، إما مؤهلاً مساويًا تقريبًا لمؤهلها أو لا داعى، إن المرتب الذى ينتظرها بعد التخرج، والمكانة لا تجعلها قلقة، شركات النسيج الكبرى تسعى منذ الآن للتعاقد مع أوائل الدفعات المتعاقبة، والمتفوقين . . لماذا القلق؟ لماذا تتعجل وتقبل بكالوريوس تجارة؟

غير أن شقيقها كانت له وجهة نظر أخرى، أخته ليست جميلة، أنفها كبير، وثمة تنافر واضح بين ضمور نصفها الأعلى، وضخامة الأسفل، ثم إن أعداد الخريجين فى تزايد مستمر، صحيح أن المؤهل الجامعى كان له قيمته حتى ذلك الوقت، وكان الخريج يكتب بزهو درجته العلمية فى البطاقات وعلى اللافتات التى توضع على أبواب الشقق، وصناديق البريد الصغيرة، وينطقونها عند التعارف، ولكن فتح أبواب الجامعة أمام تلك الأعداد كلها، والإعلان عن جامعات جديدة فى الأقاليم، من الأمور المثيرة وقتئذ، ولكن شقيقها كان يشعر بشكل ما أن مؤهل أخته ميزة لن تستمر طويلاً، أو ربما كان مثل والدتها تمامًا التى تتمنى أن ترى ابنتها فى بيت «العدل» .

هكذا . . وجدت فيما بعد نقطة تفوق تبرزها، ظلت تستخدمها حتى عودته من أوروبا، إذ تتأزم أمورهما، تخبط صدرها بيدها، تقول شاكية :

«أنا أستحق كل ما جرى لى . . بكالوريوس فنون تطبيقية يقبل بكالوريوس تجارة . . مهندسة وتقبل محاسب؟!» .

يبدى استهانة، يقول إنها تحاول الانتساب إلى المهندسين، كليتها تضم نسبة من خريجى مدارس الصنائع، ثم.. ماذا يعنى تخصصها فى النسيج والصباغة؟ أى عامل فى المحلة يفهم أكثر منها، أما الصباغة فما أبأسها بما تحويه من أحماض وقلويات، وألوان مستخرجة من ديدان، وجذور نباتات عطنة.

إنها تعود إلى البيت أحيانًا ورائحتها لا تطاق.

يمثل قوله هذا ذروة استفزازه لها، هددت أكثر من مرة بمفارقة البيت، أن تترك له كل شىء، أن تدع الجمل بما حمل.

عندئذ يزداد بروز جبهته، تصبح عيناه أضيق، يميل بجسده كله إلى الأمام.

«يا الله.. خلصينى..».

هنا تنهار باكية، تندب حظها، تنعى قلة عقلها، هى خريجة الفنون التطبيقية التى قبلت خريج تجارة.. مجرد محاسب!

عندما حصل على المنحة التدريبية فى جمهورية رومانيا الاشتراكية، كفت تمامًا عن مجادلاتها، بل لانت قليلاً فى الفراش حتى كادت أن تتخذ الوضع الذى رغبه، ولم يستطع التصريح به إحدى عشرة سنة كاملة، كان يتحايل دائمًا، وعندما يصبح على وشك تستدير ناحيته وفى عينيها حذر عظيم.

لكن.. ليلة سفره كانت مؤثرة، لا يستعيد لحيظات منها إلا ويدمع تأثرًا، عانقته، أقبلت عليه، قالت باكية إنها بدونه لا قيمة لها، فى غيابه تتجرأ عليها الكلاب، تحاول نهشها مع الأطفال.. ليس لها غيره، إنها

تزور بيت شقيقها الآن كالغريبة، لا تمكث فيه إلا وقتًا قصيراً، وأحيانًا تخجل من الذهاب إلى دورة المياه إذا أدركها حصر، امرأته جافة، لا ترى منها ريقًا مليحًا، بل إنها أحد الأسباب . . صحيح أن الأعمار بيد الله، لكن جفاءها في مواجهة حماتها أصاب المرأة الوحيدة بكمد، عجّل بقضائها .

الحق أنه تأثر، وكلما استعاد لفظها ونبراتها وهن عزمه، يتمنى إلغاء المنحة فجأة، لكن بمجرد إقلاع الطائرة، كأنه رمى عن روحه أثقالاً فادحة .

بعد وصوله مباشرة، تفتحت فى صدره طرق شتى، طق لهيب الرغبة من عينيه حتى أن أول فتاة دعاها فى الملهى الليلى أبدت خوفًا وخشية، قالت له مداعبة إن نظراته تحرقها .

حتى الآن يعيش على المدة التى أمضاها هناك، يستعيد لحظات متعة، منبتة عن كل قيد، الغريب . . أنه بمجرد عودته تعرف إلى امرأة شابة، ممرضة جاءته لتعطيه حقنة فى العضل، وعندما استدارت، تمكن بعينيه من ساقيها ومؤخرتها، أضمر العزم، وانتابته جرأة لم يعرفها، ما رآه منها لم يعرفه من قبل، حتى إنها حالت بينه وبين امرأته، يبدو أنها أدركت بحاستها الأنثوية، خاصة في المرات التى يعود فيها من الخارج ويتجه مباشرة إلى الحمام متظاهراً بالتعب والإرهاق، لكنه يحاول إزالة ما علق به منها، لم يعرف ولم يسمع عن جسد أنثى يفوح بهذ القوة المسكرة، مع أنهما لم يتجردا من ثيابهما تمامًا، فقط ما يسمح به الوضع داخل عربته، فى طريق المطار، أو كورنيش المعادي، أو بعض شوارع المقطم . . كان يخطط لأسبوع يمضيانه معًا فى الإسكندرية .

شيء غريب، مهما بدا من غباء المرأة، فإنها ترصد ما يتعلق بزوجها مهما أخفى، ومهما بلغت مهارة التمويه، لكن.. الوضع مختلف تمامًا الآن، مسئولياته ضخمة، ويمكن أن يقيم خارج البيت عدة أيام متصلة، يتحدث أو لا يتكلم عبر الهاتف، عليها أن تفهم ذلك، حديثها عن الطابق الثانى عشر مقره المنتظر، عن المكان المجهز لإقامته، لنومه، مسكن متكامل مزوّد بجميع الاحتياجات، وإمكانات الاتصالات الداخلية والخارجية، عن عدة مقرات أخرى موزعة على القاهرة، والمدن الرئيسية، بعضها لا يعرفه حتى الآن.

أصغت بهدوء ظاهر، لكن قلقها الخفى لم يغب عنه، تعامل معها برفق، غير أن الهوة التى ستفصلهما تتزايد فى كل لحظة، يكفى الآن أن مجرد مناقشته فى أى شيء غير مطروحة، ثم.. يجب ألا ينسى أنها امرأته وأم عياله، والوضع الذى لم يكن يحلم به، الموشك على الوصول إليه يجب أن ينعكس عليها وكذلك الأولاد.. لكن.. عليها أن تدرك المعنى الحقيقى لوصوله إلى الطابق الثانى عشر، حقه فى أن يعوض ما فاته أن يشبع رغباته كما يريد، عليها ألا تتدخل.. لا من قريب أو بعيد.

يخلع الحزام بحذر، يطل منه «البليب»، منذ الآن سيقرر هو الأشخاص الذين يجب حملهم الجهاز، سيعيد توزيعه، لكن ليس بمجرد توليه المنصب، عليه أن يبث الطمأنينة فى نفوس الجميع، أن يوزع الوعود على من ينوى التخلص منهم، حتى يستقر تمامًا فى الطابق الثانى عشر.

شيئًا فشيئًا يحاصر رئيس قطاع الحواسب الآلية، كذلك مدير البحوث، لن يطمئن إلى بقائهما قربه أبدًا. طبعًا.. الاقتراب منهما ليس

سهلاً، وربما أثار اضطرابًا، لكنه لن ينسى ما سمعه يومًا من عطية بك أن ساكن الطابق الثانى عشر يمكنه أن يفعل ما يشاء، لا حدود لما يريده، لما يمكن أن يقدم عليه، المهم. كيفية إخراجه قراراته، صياغتها، ثم.. تنفيذها، فى البداية سيجتمع، بعدد كبير من المسئولين. حتى رئيس اللجنة النقابية الذى يناصبه العداء، سيتظاهر بالإصغاء، ثم يصدر ما يتلاءم مع رؤيته من قرارات، سوف يستدعى منافسيه لجلسة ودية، بل ربما دعاهما إلى العشاء فى أحد الفنادق الكبرى التابعة للمؤسسة. لن يكف عن الابتسام وإظهار الود، ثم يسدد ضربته فى اللحظة التى يحددها هو. عندئذ يأتى بمن يوافق هواه، من يصلح للعمل قربه، من يستحق حمل «البليبّ» فعلاً!؟.

إنه يبتسم راضيًا، يزم شفتيه، كل من أبدى السخرية منه سيدفع ثمنًا غاليًا، هو معهم والزمن طويل!

يقوم واقفًا، يتجه إلى الشرفة المطلة على الطريق الرئيسى يتلفت يمينًا، ويسارًا، يتراجع قليلاً متحسسًا صدره بما يعنى أنه يتنسم الهواء فى ذلك القيظ المستمر حتى الآن رغم دخول الخريف.

يعود إلى الصالة، يتمدد فوق الأريكة، تروح امرأته وتجىء، تصر على إعداد الوجبات الثلاث بنفسها، تقرف من الطباخين، لكن هذا وضع يجب أن يوضع له حد، امرأة رئيس المؤسسة تقشر البصل وتعصر الطماطم، وتحشو الباذنجان المخلل بالثوم والكزبرة والبقدونس!؟

صحيح أن نَفَسها فى الطبيخ لا مثيل له. بعض الأصناف تعدها بعناية جعلت لها شهرة فى العائلة. مثل طاجن الفتة وحشو رأس الضأن، وكنافة رمضان، أما مجالها الذى لا منافس أمامها فيه فهو الأسماك

بأنواعها، مقلية أو مشوية، ليس هذا غريبًا على من ولدت من أم دمياطية وأب بورسعيدى، لكن. . ما يريده الآن أن تتكيف مع أوضاعه الجديدة، كل حركة منها حتى داخل البيت محسوبة عليه.

يود الآن أن تستفسر منه، أن تسأله عن سبب خروجه إلى الشرفة، لماذا تلزم الصمت مع أنها لم تدع كبيرة أو صغيرة إلا واستفسرت عنها من قبل؟

الحق. . أنه فى مثل هذه اللحظات كان بحاجة إلى امرأة من نوع آخر، تعرف كيف تتعامل مع تلك اللحظات الحاسمة. . إنه يضطجع على الأريكة مرتاحًا، راضيًا. .

تأكد عند تطلعه إلى الطريق أنه مراقب.

ثلاثة وربما أربعة من رجال الشرطة السريين يقفون أمام المبنى، ولأنه يراعى عشرة عمر طويلة، وصلة لا يمكنه التخلص منها بسهولة، ولأنها أم أولاده، دخل إلى المطبخ، وأفضى بالسر.

اتسعت عيناها بتعبير غريب عندما استعادهما فيما بعد، فرح، قلق، خوف؟ رأى هذا كله مجتمعًا فى لحظة واحدة، لابد أنها تخشى زواجه من أخرى، أصبى، أجمل، تتناسب مع الوضع الجديد؟!

لا. . لن يحدث هذا، زواج ثانٍ مستحيل. .

لكنه سيسعى إلى عشيقات من كل جنس.

إذ تهم بالنطق، يشير إلى الجدران محذرًا، ربما وضعوا أجهزة تنصت لرصد ما يجرى فى بيته.

تومئ بسرعة، يطلب منها الانتباه، ربما يطرق الباب عامل ما، أو محصل كهرباء، أو من يتظاهر بالسؤال عن شخص لا وجود له. كل هؤلاء ربما يسعون لجمع المعلومات عنه، جميع أجهزة الدولة الحساسة تسعى فى أثره الآن.

تومئ صامتة، إنه لا يدرى ماذا يجول عندها، لكنها تطيل الصمت والتحديق إلى المجهول، كفت تمامًا عن نقدها القديم، ها.. لن ينسى تلميحها أثناء نوبات الغضب إلى مؤهلها، إلى عضويتها نقابة المهندسين وتقاضيها البدل المالى - لا قيمة له الآن - إنها لا تذهب إلى النقابة، بل إن الاشتراك يرسله مع الساعى، منذ عامين أقنعها بتسوية أحوالها وإنهاء خدمتها، تستقر معظم الوقت فى البيت، تبدو مطرقة، واجمة، مع أنه كان ينتظر منها إبداء الفرح، ولكنها معذورة.. الأمر أكبر منها، لا يمكنها استيعاب ما يجرى الآن.

لم تبد دهشة، لم تتساءل حتى عندما ارتدى ملابسه بعد الغداء مباشرة، مع أنه اعتاد أن يغفو ولو ثوان يرتفع خلالها شخيره، لم يشأ الانصراف قبل توضيح الأمر، يقول إن تَواجده الآن فى مكتبه مهم جدًا، يجب أن يبدو أكثر العاملين حرصًا على العمل، مرة تساءل أحد أعضاء صندوق العاملين: متى يرى أولاده؟ متى يجلس إليهم؟

إنه ينهمك فى قراءة المذكرات والتأشير على البريد المتأخر، والنظر فى استيفاء الأمور التى لا يمكنه إنجازها نهارًا بسبب استقباله الزائرين والعملاء والزملاء، وأعضاء اللجنة النقابية الذين يحرضهم رئيسهم المتطرف المناوئ له، لكم تحمّله فى صبر، سكت على تلويحه خفية باتصالاته السياسية مع القيادات المختلفة، والسلطات الأمنية، كان يشير

إلى الدور الخفى الذى يلعبه قبل الإقدام على الترشيح للمناصب العليا، يؤكد أنهم أخذوا رأيه أو هم فى سبيل الاتصال به، ويذكر اسمًا أو اسمين مقرونين بالرتبة.

حقًا لكم احتمله، لكم أبدى المجاملة وأطال الإصغاء، أثناء ذلك يزداد انغراس دماغه بين كتفيه، تبدو صلعته أشد بريقًا، تتخذ رأسه هيئة مستطيلة، أو مستديرة، طبقًا لزاوية النظر، ومصدر الضوء، هؤلاء العمال هم من أطلقوا عليه «البروفيسور قلقاسة»، حتى أن الكثيرين فى المؤسسة نسوا اسمه الأصلى، لعن الله الظروف التى دفعت بأمثالهم إلى الصدارة، وإلى حضور الاجتماعات مع القيادات.

كيف يتساوى حملة المؤهلات الجامعية مع العمال القادمين من الورش وتحت الأوناش والمخارط، جازاه الله عبد الناصر، هو من جعل أمثالهم قادرين على النظر بغلظة فى وجوه أسيادهم ومن أنعموا عليهم.. لكن، مصير هذه الأوضاع كلها إلى تغيير.

مـاذا؟

هل سيشغل نفسه بأمور هؤلاء العمال وقيادتهم النقابية؟

ليفكر فيما هو أهم، خاصة تلك الرقابة التى اكتشفها الآن وتأكد منها، أوصى زوجته أن تنتبه جيداً إلى أي قادم، إلى من يطرق الباب، يتظاهر أنه محصل الغاز أو الكهرباء، أو أنه يسأل عن شخص ما، لتبدى الترحيب مع الحذر الواجب لكن.. ما هذا؟

يفاجأ بوقوف سيارة مدير قطاع البحوث فى منطقة الانتظار أمام المقر، بمجرد دخوله مكتبه فى الكراج يستدعى السائق، سأله عن الباشمهندس؟

قال السائق إنه فى مكتبه، قال إنه رجع بعد انصرافه بنصف ساعة فقط.

أين ذهبت به؟

إلى المقطم، إلى مقام سيدى الجيوشى القائم عند الحافة. .

ازورت عيناه، تزايد انخفاس رأسه، إن غضبًا يسرى.

ماذا يفعل عند سيدى الجيوشى، هذا مسجد تقصده النساء العاقرات للحبل، هل صلى هناك؟

أكد السائق أنه لا علم له، إذ انتظره فى العربة بعيدًا، لأن المسجد يقع وسط معسكر للجيش، وقبل أن يجتاز البوابة الرئيسة المطلية بالأحمر والأبيض أبرز بطاقة صغيرة.

هل مقصده الجامع، أو قائد كبير مقره فى هذا المعسكر؟

السائق الغبى لا يعرف، لو أنه توصل إلى الحقيقة لمنحه شهرًا مكافأة مع تحمل المؤسسة للضريبة.

إذن. . كيف بدت ملامحه بعد خروجه من المسجد ـ أو المعسكر؟

يمط السائق شفتيه، لزم الصمت، لم يتبادل أى حوار معه، وكان تركيزه فى الطريق الجبلى الهابط إلى أسفل، والمتعرج، اليقظة ضرورية. .

يصيح غاضبًا!

«بل يقظتك أنت لما يجرى حولك يا غبى. .».

هل أخطأ؟

هل هبط بمستواه ومكانته عندما طلب من السائق أن ينقل إليه ما يسمعه، ما يلحظه؟

ألم يكن من الأفضل تكليف أحد المشرفين على الكراج بدلاً من تدخله مباشرة؟

ولكن الوضع الذى يواجهه الآن يقتضى سلوك شتى السبل، من الأفضل أن يهدأ الآن، ماذا بعد تأكيدات رئيس المؤسسة، ألم يسمع منه شخصيّاً؟ ألم يحدثه عن أوضاع خفية باعتباره الوريث القادم بعده؟

لا . . لن يطمئن، لن يهدأ إلا بعد جلوسه فى صدارة المكتب الدائرى، بعد وضعه «البليب» الرئاسى الأحمر فى الحزام، بدلاً من الرمادى الملاصق لبطنه الآن.

يحاول أن يتخيل لحظات جلوسه فوق المقعد المؤسسى، مكسو بجلد حيوان بحرى نادر، لا يبلى ولا يتغير لونه، ملامسة مؤخرته وظهره الموضع نفسه الذى استقر به المؤسس، مقعد لا مثيل له، يميل مع حركة الجسم، ويتشكل معه، يستوعب النحيل والبدين، أعد للمنصب، للموقع، للمكانة، وليس لشخص بعينه . .

هل يجدد أثاث المكتب؟ هل يغير لون الخشب البلوطى الغامق الذى يكسو الجدران وتتخلله مربعات من لون ياقوتى قان كان سيادته يعشقه؟ هل يبدل اللوحة الزيتية فى مواجهة المكتب، رسمها محمود سعيد، أوصاه الرئيس ظهر اليوم أن يحفظ اسمه جيداً، وأن يتأمل هذه التصويرة، وأن يلفت نظر كل زائر إليها . . ثلاث نساء يرتدين الملاءات اللف، والبراقع التى انقرضت، متجاورات، متماسات، محدقات، فى

عيونهن وسع وشهوة، ودعوة غامضة، وإمكانية التهام، هذا ما أوصى به المؤسس، عليه أيضًا أن يحفظ هذا الموشح الأندلسى القديم الذى لم تتوقف الفرقة عن أدائه عند قبره مساء كل خميس فى تمام السابعة، على أن يسبق الموشح عزف هذا الـ . . هذا الـ . .

يخرج ورقة من جيبه.

بشرف سماعى رصد لمحمد القصبجى . .

كان مزاجه غريبًا، وكذلك وصاياه، ما أعلن منها وما خفى كان أعظم، هل يقدم على تغيير شىء من هذا؟ إنه يقف، يخطو حول مكتبه.

أى شيطان يدفع به إلى مثل هذه الأفكار، لو نطق بها لو عبر عنها، لو بلغت الجواهرى سوف يصيح:

«ألم أقل لكم إنه غريب . . إنه من الدخلاء، لم يدخل المؤسسة على يدى سيادته . . وها هى النتيجة؟».

حقًا . .

كيف يفكر فى مثل هذه الاختراقات التى تعد كفرًا؟

لماذا يسمح للشيطان أن يدفعه إلى هذا المدى؟ إن احترام وصايا المؤسس دليل الانتماء إلى هذا الصرح الرائع.

كل الخطوات ستتخذ كما تتم، الملامح ستبقى كافة، صحيح أنه لا يطيق هذا اللون الياقوتى الغامق، يفضل الأزرق الفاتح، لكنه سيدرب نفسه على التعايش معه، على تذوقه، الاقتناع به، حتى الستائر وضع

المؤسس تصميماتها، الغريب. . أن هذا لم يتغير حتى بعد التأميم، على أى حال. . يجب ألا يشغل نفسه بهذه الشكليات.

ثمة أمور عديدة يجب أن يحذر منها الآن، تلك الإغراءات. . بدءًا من دعوات العشاء، وحتى العمولات السرية عند توقيع الصفقات الكبرى سيعلن عنها أولاً بأول، ويتنازل عنها لصندوق العاملين، تمامًا كما كان يفعل المؤسس، هكذا سيعرف المعترضون والمتحفظون ومن بقلوبهم مرض أنه أنقى من ماس البرلنت، وذمته أصفى من حليب النوق، وأنه أخلص للمؤسس من أولئك الذين أكلوا من خيره، وشبعوا من زبده.

عمولة صفقة واحد، محطة كهرباء، قطع غيار سلاح، ذخائر معينة، إصلاح سفن فى ترسانات المؤسسة، مواد غذائية، عمولة واحدة فقط كفيلة بتأمين مستقبل الأحفاد وليس الأبناء فقط، عدة ملايين توضع فى أحد بنوك زيوريخ أو جنيف، صغار العاملين يتداولون أدق الأسرار عند جلوسهم بالمقاهى المحيطة بالمقر، أو ركوبهم عربات المؤسسة.

صفقة. . عمولة واحدة فقط.

لا . . مستحيل.

مرة لا غير. . مرة. .

فليوقف مثل هذه الأفكار، ماذا جرى له اليوم؟ العمولات موضوع سابق لأوانه الآن، لا يجوز التفكير فيه لا من قريب أو بعيد.

عليه تخطيط الأمور بحذق، أولا. . كيف سيتعامل مع أبناء المؤسسة، آلاف مؤلفة، فيهم الأمزجة كافة، سيبدأ بتنظيم اجتماع

أسبوعى للقيادات، اجتماع عائلى، سييدى البساطة، يلكز هذا فى كفه مرة، يضحك لذاك، وربما يروى نكتة . . لا مانع أن تكون عنه شخصيًا حتى يظهر لهم أنه ملم بما خفى وما ظهر، وأنه غير معنى بما يقال، لكن . . عند الجد تكتسى ملامحه صرامة وقسوة وعبارات قصيرة ومركزة، أسئلة مفاجئة فى الصميم . .

ثورة . . ثورة حقيقية فى الإدارة، بدون الإخلال بنواميس المؤسسة، ليس معقولا أن يكون مروره صامتا، لا بد أن يترك بصماته، أن يعيد ترتيب الأوضاع، والأهم من هذا كله . . أن يشيد مبنى يتفوق على المقر الأصلى، وما بناه المسئولون قبله، مبنى تتحدث عنه الصحف، يصبح من معالم القاهرة، ومن مزاراتها، إنه أكثر ثقة الليلة، رغم قلقه من تواجد مدير البحوث، لكنه تلقى إشارات مطمئنة من الرئيس الحالى، اتصل به هاتفيا وأوصاه أن يضع «البليب» على مقربة منه وأن يكون نومه خفيفا . . ما طمأنه أكثر تلك الإشارة الدالة التى تلقاها بمجرد عودته، حدثته زوجته فقالت: إنه حوالى الثامنة والنصف رن جرس الباب ثلاث مرات . . تطلعت من العين السحرية، والأولاد إلى جوارها، والشغالة . .

المهم . . وماذا بعد . . ما بعد؟

بمجرد أن لمحت البواب بصحبة الغرباء اطمأنت، الدنيا لم تعد آمنة، وفى يوم يقرءون عن اقتحام الشقق، ومهاجمة الناس فى بيوتهم وكأننا أصبحنا فى شيكاغو . .

«المهم . . ماذا جرى بالضبط؟».

قال امرأته : إنها فتحت الباب ، أشار أحمد البواب إليهم . .

«كم عددهم؟» .

كانوا ثلاثة ، قال إن الباشوات جاءوا فى الخير ، إنهم من المباحث ، لكن سعيهم فى الصالح ، طبعًا مجرد سماع كلمة المباحث يثير الاضطراب ، لكن الحمد لله ، تمالكت نفسها ، ودعتهم إلى الدخول . يبدو أن بعضا من ملامح اضطرابها الداخلى تسرب إلى ملامحها ، مما دعا أكبرهم مرتبة ، كما استنتجت من حركاته وسكناته أشار بيده مطمئنا .

«آه . . ماذا قال؟» .

دخلوا إلى الصالون الرئيسى ، كانوا يتطلعون إلى الأثاث ، إلى النجف ، إلى التماثيل ، إلى الأوانى الخزفية ، بل إن أحدهم قال وخبط بيده على خشب الأريكة الرئيسية مبديا إعجابه بالمتانة والذوق الذى لم يعد يوجد مثيل له . .

«ياستى الله يرحم والدك الذى أوصى على عمله فى دمياط . . المهم! وماذا بعد؟»

لن تطيل ، بعد أن تفحصوا كل شىء ، بعد أن قام أحدهم ونظر من النافذة بدأت أسئلتهم : أين كانوا قبل الإقامة هنا؟ سنة الزواج؟ أى مأذون؟ متى أنجبا أول طفل؟ فى أى مستشفى؟

بقية الأولاد . . فى أى سنة؟ ما عادت البك؟ مواعيد الطعام ، هل يتناول الوجبات معا أو فرادى؟ هل يخرجون إلى نزهات خلوية؟

هل لديهم شقة مصيف؟ هل يمضون أوقاتا طويلة صامتين؟ هل صحبته إلى أوروبا؟

«طبعا أجابت متحسرة: ولا مرة..»

«السفريات ستكون أكثر من أن تحصى..».

السؤال الذى باغتها كان عن تمثال رمسيس الثانى، هل يخطو إلى الأمام بقدمه اليسرى أو اليمنى..

«صحيح أهى اليسرى أو اليمنى؟»

«أنا لا أعرف.. يخيل إلىّ أنها اليمنى.. المهم.. وماذا قالوا؟».

أسئلة عديدة كانوا يوجهونها بغتة، يحاصرها الثلاثة فى وقت واحد، لكنها لم ترتبك، وفقها الله، قالت إنها خريجة كلية الفنون التطبيقية، قسم نسيج وصباغة. أبدوا اهتماما بالسلاحف البرية كانت السلحفاة الأم تلتهم قطعة خيار، لماذا توقفوا مطولا عندها؟ لماذا سألوا عن المبادر باقتنائها؟ لماذا؟

«افهمى جيدا. كل عشر أسئلة بينهم تسعة للتمويه، هذا أسلوبهم.. حتى يتوه المقصود معرفته.. المهم.. لا تنسى شيئا مما قيل».

أثار اهتمامهم البيانو العتيق فى الصالون، من يعزف عليه، هل يهوى أحد الأبناء العزف؟ هل يعمل أحدهم فى فنادق ليلية؟ فى فرق موسيقية؟ ثم سأل كبيرهم عن شخص اسمه عبده كوسه، هل سمعت به؟

«ماذا قلت؟».

«لا أعرفه طبعا . . ».

«الحمد لله . . الحمد لله . . ».

«هل هو شيء إلى هذا الحد؟؟».

«سأشرح لك فيما بعد . . فيما بعد . . ».

أسئلة استفسارات، تدقيق لكل صغيرة وكبيرة، طلب كبيرهم توجيه بعض الأسئلة على انفراد، أمضت بصحبته ساعة وعشر دقائق فى حجرة المكتب، بالضبط . . ساعة وعشر دقائق، الحق أنها فوجئت بما يعرفه عنهما.

ساعة كاملة وعشر دقائق . .

هذا ما أكده البروفيسور لرئيس المؤسسة الذى استدعاه عن طريق «البليب» ليطلب منه اليقظة إلى ما يجرى بين العامل وبعض قطاعات العاملين، هناك تحرك ما بدأ. غير أن البروفيسور كان معنيا باطلاع الرئيس على تفاصيل الزيارة، ويبدو أن الدهشة التى قوبل بها أربكته، لم يحدث مثل هذا الإجراء من قبل . .

قال البروفيسور إن أحدهم استجوب ابنته الكبرى لمدة نصف ساعة، سألها عن أصدقائها، مشاريعها للمستقبل، وإذا كانت تمتلك شيئا باسمها . . وانفرد آخر بابنه الأصغر، وكان مهتما جدا بنوعية الملابس التى يرتديها، خاصة بنطلونه الجينز، تفحص علامته الدائرية، ليتأكد . . صناعة أجنبية أو محلية.

بدا البروفيسور فى سرده المتمهل، المتأنى، وكأنه يحاول إقناع نفسه بأمر ما . . هل يعنى ذلك أن الفأر بدأ يلعب فى عبه؟

الحقيقة أنه مضطرب، منذ سماعه تفاصيل ما جرى ليلة أمس حتى أن جفنًا لم يغمض له، ظل يتقلب مثل السمكة فى الفراش، فى اللقاء الصباحى الذى جرى بالمكتب الرئاسى فى الطابق الثانى عشر، سمع ما جعل قلبه ينزل فى صدره، إذ تساءل سيادته:

«وهل أنت متأكد أنهم من رجال المباحث فعلاً؟».

فى هذه اللحظات لم يكن البروفيسور يعلم بما يدور فى المؤسسة كلها، بدءا من المقر الأصلى وحتى جميع الفروع الأصلية والثانوية، من مصانع غزل ونسيج المحلة إلى مطابع العاشر من رمضان حتى ستوديوهات السينما والتسجيلات المرئية والمسموعة فى الهرم ومدينة نصر.

لا يمكن لإنسان مهما بلغت إحاطته بالأمور أن يحدد: كيف تسرب نبأ الزيارة إلى المؤسسة؟

البعض تصور أن الموضوع كله مدبر، وأن عطية بك يقف وراءه، ولكن ظهوره الهادئ فى مكتبه بدد بعضًا من تلك الظنون. أيا كان الفاعل أو المحرض، فإن العاملين كلهم تناقلوا فيما بينهم أن ثلاثة قاموا بزيارة لبيت البروفيسور فى غيابه، ادعوا أنهم من أحد الأجهزة الأمنية السيادية، وانفرد أحدهم بامرأة البروفيسور لمدة ساعة ونصف الساعة فى غرفة النوم! بينما تسلم الآخرون ابن البروفيسور وابنته. . السيدة هيام من قليلات جدا أعرضن عن سماع التفاصيل الدقيقة التى بدأت تتزايد وتتضخم مع الوقت، قالت باختصار:

«يا ناس. . حرام عليكم الخوض فى الأعراض. .».

فى الكراج تغامز العمال وتلازموا، ودق بعضهم أكفّ الآخرين، وفى الوقت الذى كانت فيه أدق التفاصيل تروى سرا وعلانية، وبعضها حدد لون الملابس الداخلية لامرأة البروفيسور، ومشاعرها المتناقضة قبل الانفراد وبعده، كان ـ سعادته ـ مطرقًا، مهمومًا، يتساءل عن سر الزيارة فى غيابه والإلحاح بتلك الأسئلة الغريبة على امرأته وأبنائه؟

غير أن التحرك الأهم ضده كان يتم فى الوقت نفسه ولم ينتبه إليه إلاّ متأخرا، قرب نهاية اليوم، عندما اتصل به مجهول بعد الغداء مباشرة.

ذلك أن الجواهرى فارق ركنه الذى اعتاد أن يأوى إليه صباح كل يوم قبل دخوله المقر، مكانه المألوف الذى لم يتخلف عنه منذ افتتاح هذا المقهى فى مواجهة المبنى الرئيسى للمؤسسة، مدة مكثه اليومية نصف ساعة، ربما تزيد دقائق أو تقل، لكن إذا طالت عن المقدر أو اقتصرت على دقائق معدودات فإن ذلك نذير بوجود ما ينغصه ويقلقه أو يشغل فكره. صلته بالمقهى قديمة، إنه الوحيد الذى لم تفلح رشيدة النمساوية فى اقتحامه أو الوصول إليه، خلال رحلتها التى بدأت عمليًا من هذا المكان، وانتهت إلى فيينا فى أوروبا، إنها ممثلة المؤسسة فى أوروبا والمتحدثة باسمها، كادت تدفع بالجواهرى يوما إلى الجنون، ولكن هذا حديث سابق لأوانه، ولم تحن مناسبته بعد . .

المهم . . قام الجوهرى متئدًا، متمهلاً فى تمام العاشرة أى بعد ما يقرب من ساعة ونصف أمضاها منفردًا تمامًا، شرب خلالها أربعة فناجين قهوة سادة، وستة عشر حجرًا من المعسل الذى يحمل علبتين منه باستمرار.

إنها بالنسبة له لحظة من اللحظات التى يجب أن يقدم فيها غير هيّاب أو وجل، إن لم يشرع فكأنه لم يشارك يومـا فى بناء هذا الصرح،

يستحضر المؤسس داخله، وجوده، نظراته، العبارات التى يمكن أن ينطقها لو أنه واجه ذلك الموقف، لا شك أن ذلك ينعكس على هيئته بشكل ما فيتطلع إليه الكل برهبة واحترام، إن تحركه من مكتبه إلى غرفة أخرى أو أى طابق يثير التساؤلات والظنون .

كيف الحال إذن وقد شرع فى دخول الغرف والصالات والاجتماع برؤساء القطاعات والأقسام والعاملين الصغار قبل الكبار، طلع السلالم على قدميه، أحد عشر طابقا تجول فيها، لكنه لم يصل إلى الثانى عشر مما يعني سخطه وضيقه من الرئيس الثالث الذى أوشك على مفارقة المكتب الدائرى . .

بل إنه نزل إلى الطوابق الخفية، التحتية، التي لا يعلم أحد عددها، وأين تنتهى بالضبط؟ وهل حقا تؤدى عند نقطة معينة إلى الحفرة الدائرية المتصلة بأنهار المياه العذبة، الجوفية، الممتدة تحت الصحراء الغربية كلها، كان المؤسس يتقن السباحة فيها ويعرف مساراتها .

فى الرابعة ظهرا خرج الجواهرى من المقر، أفسح له كل من رآه، لم يتجه إلى المقهى، إنما دار حول المبنى الهلالى الشكل، تقدم من السور الحجرى الأبيض المحيط بالفتحة، لم يتغير منذ أن أقامه المؤسس بعد شراء الفدادين الثلاثة وضمه الأربعة الأخرى، استند الجواهرى بيديه إلى حجارته الباردة، الغامضة. مال بجسده الضخم، القديم، حدق النظر فى الهوْ الفاغر فاه إلى ما لا نهاية، هز رأسه مرتين أو ثلاث ثم اتجه بخطى وئيدة صوب المقهى. ما بين دخوله واستقراره بركنه وخروجه متجها إلى بيته، شهد مكتب البرق والهاتف فى شارع جامعة الدول، والمكتب المواجه لوزارة الزراعة زحاما لم يسبق له مثيل .

آلاف البرقيات أرسلت إلى القيادة السياسية، والتنفيذية، والأمنية، وجهات أخرى، تستنكر وترفض أن يتولى البروفيسور المزعوم أمر المؤسسة، كلمات قليلة، حادة، تستغيث بكل من بيده سلطة أن يوقف دخول البروفيسور المزيف، معدوم الكفاءة إلى الطابق الثانى عشر. .

لأسباب عديدة سوف يأتى ذكر بعضها، استجابت القيادة السياسية فى إحدى المرات شديدة الندرة إلى رغبة الناس فى مكان ما، جهة معينة، فى قطاع مهم، فى مؤسسة تعد من أهم المنشآت فى التاريخ الحديث.

هكذا. . استيقظ البروفيسور الذى أمضى ليله أرقا وقلقا. كان رنين الهاتف متصلاً، طريقة خاصة متفق عليها بين رؤساء القطاعات، ولا توجد إلا فى أجهزة الهاتف التابعة للمؤسسة، هذا الهاتف المجاور لفراشه متصل بالمقر الأصلى.

صوت رئيس التحويلة، من نبره أدرك الشؤم، لم يقل تحية الصباح حتى، ولمدة طويلة سيظل ماثلاً فى ذاكرته، هذا الصوت الكئيب فى مطلع أشد نهاراته تعاسة، إذ يبلغه بتعليمات رئيس المؤسسة الجديد، أن يتم تسليم «البليب» فوراً إلى قسم الاتصالات، وبدون أدنى تأخير!!

انتظار يتخلله ذكر لرشيدة النمساوية

. . رغم كل ما لحق بالجواهرى فيما بعد، فإنه لم يندم قط على تحركه ضد البروفيسور وما ترتب عليه من نتائج. قال المؤسس يوما إن الإنسان يجب أن يعرف مواقع خطاه قبل الشروع . .

البلد يمر الآن بمشاكل عديدة، بعضها مثار علنا والآخر خفيًا مكتوما، لكن . . المؤسسة رغم أهميتها الشديدة وموقعها الحساس بالنسبة للاقتصاد والأنشطة المختلفة التى تمارسها، فإنها لا تقع فى الدائرة الحمراء، إنما على حافتها، لذلك تحرص جميع الجهات المعنية على هدوء الوضع داخلها واستقراره، لأن عبورها الخط الأحمر يعنى موقفا جديدا من جانب صندوق النقد الدولى الذى يراقب بعناية واهتمام مركز المؤسسة ومجالاتها الحيوية كمؤشر للأوضاع الأخرى، وبناء عليه تتم الموافقة على إعادة الجدولة.

إذن . . لا خوف من المفاجآت.

لو أن هذا الكم من البرقيات الاجتماعية أرسلت منذ عشرين سنة فقط لاعتقل كل من خط حرفا فيها، لأدت إلى عكس المراد منها، وما جرى من حمدى الأزميرلى فى حق صحبه الأربعة ما زال ماثلاً حتى الآن فى الأذهان.

تجدد الشروع فى إرسال البرقيات بهذا الشكل كان يعد تحركا مناهضا يجب مواجهته . . مثلا ، بعد وقوع المحنة الكبرى والزج بالمؤسس إلى المعتقل ، هل جرؤ أى شخص على إرسال خطاب بدون توقيع يستنكر أو يحتج؟ لم يحد ذلك قط . .

نعم . . لم يتغير فى الأمر شىء ، جوهر الوضع واحد ، لكن من قبل كان أعتى وأشرس ، أما الآن . . فأوهى وأضعف ، هذا موضوع يطول شرحه ، لكن الجواهرى يدركه بخبرته وحنكته ، وإلا . . لما أقدم .

استقرار المؤسسة أمر مهم لكل الأطراف ، فهل من المصلحة إيجاد توتر عام إثر اختيار شخص مرفوض ، مشكوك فى كفاءته لا يمكنه سد الفراغ أو استيفاء حق الهيبة؟ طبعا لا .

الجواهرى لم يتحرك إلا بعد إمعان وروية ، تمثل المؤسس أمامه ، واستعاد ملامحه ، وحاول أن يدرك قراره إذا مثل وتواجد فى الظرف نفسه . لم يترك صغيرة أو كبيرة إلا وأولاها اهتمامه ، حتى صياغة البرقيات . كلها تضمنت احتجاجا أقرب إلى طلب العون ، والرجاء بإعادة النظر ، لم تُرفع أى مطالب ، لم يصرح أحد برغبته فى قدوم شخص معين . أى أن الخيار ترك مفتوحا لتعيين من يرونه مناسبا . طبعا هناك أجهزة تعمل فى صمت ، تجمع محصلة الآراء ، وترفع الخلاصة ، من ناحية أخرى لا بأس من إظهار استجابة القيادة لرغبة القاعدة ، مما يؤدى إلى تهدئة الخواطر ، ليس فى المؤسسة فقط . . لكن فى أماكن وهيئات شتى ذات حيثية وتأثير .

الآن . . يسرى شعور باليقين والراحة بين الجميع ، لو أن البروفيسور عنده ذرة من حياء لطلب إجازة ، أو سافر مختفيا عن الأنظار ، أو سعى

إلى نقله نهائيا . لكنه ظهر فى موعده اليومى ، توجه إلى مركز الاتصالات الرئيسى فى الطابق السابع ، قام بتسليم «البليب» ملفوفا فى علبته الأصلية وكأنه لم يستخدم ، لم يخرجه ، بل سلم أيضا كتيب التعليمات الإرشادية ، طلب إيصالا مكتوبا ، ثم مضى إلى دورة المياه نهاية الممر ، أمضى داخلها وقتا لافتا للنظر ، خرج بعده مطرقا ، متثاقلا ، اتجه إلى مكتبه ، لم يسمع رنين الهاتف ، حتى رئيس المؤسسة الذى أعده ودفعه إلى دخول الطابق الثانى عشر لم يستفسر عنه ، كأنه يتبرأ منه ، أو ينفى بصمته أى علاقة ويُخلى مسئوليته من ترشيحه بعد رد الفعل الذى لم يتوقعه ، واستجابة قيادية سريعة نادرة!

الجواهرى لا يسمح لزهو أن يدركه ، أو نشوة تنسيه ما حوله ، يدرك تماما ضرورة انسحابه من المواجهة ، تجاهل نظرات العاملين ، وتهرب من مقابلة الكثيرين ، فارق مكتبه ، واتجه إلى ركنه المعتاد فى مقهى رشيدة النمساوية ، تجاهل عبارات التهنئة كافة . أبدى البعض دهشتهم . ألم يبدأ هو؟

ألم يصعد طوابق المقر الأصلى درجة . . درجة ليحرض وينبه وينذر؟

ألم يتدفق حيوية خلال حديثه إليهم ، كأنه ارتدّ شابا يسعى إلى جواد المؤسس أو فى أثره؟

هذا صحيح . . لكنه حصيف ، أفضل وضع له الآن . . التوارى ، الاختفاء ، لولا وصية المؤسس ، لاعتذر عن الطلوع بصحبة عطية بك لتقديم التهنئة إلى الرئيس الجديد فور توليه ، سوف يطرق طوال المقابلة الطقوسية خشية أن يبدر منه ما يوحى أنه سبب تعيين المسئول الأول عن المؤسسة ، أو أنه لعب دورا ما . .

والله . . لولا بنود الوصية لاعتذر، ثم . . إنها المرة الأخيرة التى يقدم فيها التهنئة بالقطع . . لن يكون موجوداً فى المرة القادمة؟

لماذا يوقن هكذا؟

الأعمار بيد الله صحيح، ولكنه وهن الآن، مهدود وأمراضه كثيرة، ما تبقى من عمره لحيظات بالقياس إلى ما انقضى منه . لن يظهر أبداً باعتباره الممهد للقادم الجديد . .

يعرف أن ساكن الطابق الثانى عشر لن يكون راضيا عن وجود أى شخص قربه لعب دورا ما فى وصوله إلى مكانه . صحيح أن الجواهرى الآن لا يخشى من شىء، ولا يحرص على شىء، لكن قلبه يخفق على المؤسسة ليلا ونهارا . تماما كما تهرع دقاته فى أثر بعضها خشية على بناته الخمس وحفيداته السبع عشرة .

لا . . لا يوجد بينه وبين البروفيسور سبب للضغينة، لم يبلغه عنه ما يسىء، يعرف أنه طاقة هائلة على العمل، يمكث أحيانا ثمانى عشرة ساعة فى الكراج، عنده قدرة على العمل الذهنى والبدنى . . هذا كله صحيح، لكنه حمار بالقياس إلى مسئوليات الطابق الثانى عشر، غبى . . هل من المعقول أن يتربع على قمة هذه المؤسسة غبى، محدود؟ دخيل؟ الجواهرى يتمنى تمام أجله، إغماض عينيه إلى الأبد . . ولا رؤية هذا اليوم .

ما ضايق الجواهرى تلك الإشاعات عن زوجة البروفيسور القائلة بخلوتها مع رجال زعموا أنهم يجمعون معلومات عن زوجها . وظهور عبارات ورسوم على جدران بعض دورات المياه تسخر من ذلك، حرام هذا . .

لا يميل الجواهرى إلى ما يعتبره خوضا فى الأعراض، يخشى أن يرتد ذلك إلى ذريته، خمس إناث لم ينجبن إلا حفيدات، لكم تمنى ولدا أن يحمل اسمه وملامحه ويكون شبيها به. أحيانا.. يتحدث عبر الهاتف إلى أصدقائه، يفاجأ أن الأبناء يشبهون الآباء حتى فى أصواتهم، يقول:

«أهلا.. عطية بك».

يفاجأ بالرد.

«لا يا عمو.. أنا ياسر ابنه»..

يطرد عن ذهنه رغبته القديمة، ما يعتبره وسوسة شيطانية فيها اعتراض على أمر الله، يحمد الله على ما رزق به. على الستر، على استقرار كل منهن فى بيتها، رضا أزواجهن بالنصيب، عدا شكرى زوج الثالثة الذى سيموت على حتة عيل، أنجبت فادية حتى الآن أربع صغيرات، كلهن فوق رءوس بعضهن لا يفصل الواحدة عن الأخرى إلا مدة الحمل والإنجاب، مازال يأمل فى مجىء ذكر، لم يكف عن ترديد قوله: إن أحدهم أعد عملا سحريا بحيث تكون ذرية الجواهرى كلها إناثا.. لا يمكن أن يكون الأمر صدفة هكذا.

أحيانا يمط الجواهرى شفتيه: من يدرى.. ربما صح ذلك؟ إنه لا يستجيب إلى ما يهمس به الكثيرون عن سلوك هذه أو تلك. يتوقف أحيانا عند ترقى بعض العاملات بسرعة فى المراتب، ليس بسبب كفاءتهن، لكن.. لأسباب أخرى بالطبع! لا يعنيه ذلك إلا بالقدر الذى يؤثر على المؤسسة، صحيح أن الأمر تزايد بعد رحيل من شيّد هذا المقر، وأحاط تلك الحفرة الغامضة بسور متين، يقول لنفسه أو للآخرين:

«طبيعة البشر . . أمور موجودة وستظل»!

ربما ليبرر لنفسه قبل أن يفسر لغيره، إنه من أكثر العاملين القدامى إحاطة بعلاقات سيده القديم التي فاقت كل تصور، مبالغات عديدة تتردد، وتحولت الحكايات إلى ما يشبه الخرافات، كل التفاصيل كان يلم بها أولا بأول، مصادره عديدة ومختلفة، ولا تخطر على بال!

اليوم بالذات بعد ظهور اسم رشيدة النمساوية على جدار دورة المياه تذكر نصائح سيادته لأول رجال التحقوا بقسم الأمن الداخلي والذى تحول فيما تلى ذلك من سنوات إلى ما يشبه المؤسسة الأمنية المتكاملة، قال لهم إن حرية الصراخ يجب أن تترك بقدر للعاملين، أن يسجلوا ما يكتب ويرسم على جدران دورات المياه، خاصة تلك التي يستخدمها صغار العمال والسعاة، والموظفون على اختلاف درجاتهم، كانت النصوص المنقولة أو المصورة تقدم إليه في ملف أسبوعين، تمام الحادية عشرة والربع صباح الخميس، يقرأها بتمهل وإمعان، يتوقف عند بعضها.

في ركنه المتواري بالمقهى، في جلسته التي لا يقربها أحد إلا نادرا، يطرق الجواهري ممسكا بمبسم النرجيلة الخاص الذى يحمله في جيبه دائما تفاديا للعدوى.

يا سلام . . كأنه يرى المؤسس من خلال سحابات الدخان الصغيرة التي تعلق في الفراغ أمامه. يكاد يسمعه أثناء تنبيهه إلى أهمية رصد ما يكتب في دورات المياه. والحوارات الجانبية، والأماكن التي يقضى فيها العاملون أوقات فراغهم، وعلاقاتهم الخارجية وأحوالهم الأسرية، كان القسم الطبي الذى أنشأه لتقديم العلاج مجانا، يرفع إليه تقارير شبه

تفصيلية عن النشاط الجنسى للرجال، للنساء، لقواهم، وأمزجتهم. . يبتسم الجواهرى . .

كان مهتما بجوانب غريبة، ولكن لم يكن لغرض أو لمرض، ثبت عبر الحقبة الطويلة أن كل ما أقدم عليه إنما كان لمصلحة هذا الصرح المهيب، هذا البنيان المشيد. . لماذا يلف، يدور ثم يعود إلى ما يخص دورات المياه؟

طبعا بسبب ظهور اسم رشيدة صباح اليوم، لا يعرف بالضبط فى أى طابق، عطية بك أسرّ إليه الخبر المكتوب بقلم حبر فلو ما ستر:

«رشيدة النمساوية اتصلت مساء أمس برئيس قطاع الحواسب». . لم تحو العبارة أى كلمة نابية، ولم يصاحبها رسم داعر، كتب تحتها التاريخ بأرقام إفرنجية . .

ماذا يعنى ذلك؟

من أين اتصلت؟

من باذل السويسرية حيث تعيش؟ أو من مصر حيث تجىء مرة فى السنة، بالتأكيد من الخارج، لأنها بمجرد وصولها إلى القاهرة تأتى إلى هذا المقهى، الحق أنها لم تنس أصلها، المكان الذى انطلقت منه، لكم عاشت هنا، راحت وجاءت، لم يهتم بأمرها أحد، ولكن ظهورها الآن يعد من العلامات، فيقولون فى المقهى، بل. . وفى المؤسسة أيضا: قبل ظهور رشيدة، وبعد سفرها. . هكذا الدنيا!

رغم شيخوخته، وهدده الروحى والجسمانى، يستعيد بعضًا مما يتردد عنها فتسرى فى ظهره رعدة، كانت على مرأى منه، فى المتناول، لكنه لم

يسع، لم ينتبه إلى كنوزها الخفية، من كان يتصور أنها سوف تقتحم أوروبا بجسمها؟ من؟

حقا.. أمرها عجب، عندما ظهرت فى المقهى قال صاحبه: إنها بنت يتيمة من قلعة الكبش، وإنها تسعى إلى الرزق الحلال، بعد أن قسا عليها قلب أبيها بعد وفاة أمها وزواجه من امرأة لا تطيق وجودها، هجّت إلى بيت خالتها فى بولاق ثم جاء بها جدع ابن حلال تقف تعد السندويتشات التى قرر صاحب المقهى تقديمها إلى الرواد..

لم تكن رشيدة لافتة، أو مبهرة بملامح خاصة، أو جمال يميزها عن الأخريات، لكنها فى النهاية أنثى، وعندما ظهرت فى المقهى كان عمرها ثلاثة عشر تقريبا، وجهها مستطيل، كذلك فمها، شفتاها ممتلئتان، مكتظتان بالأنوثة، بشكل عام.. وجهها غلامى الحضور ويبدو أن هذا مالفت إليها أنظار بعض من يفضلون مثيلاتها..

منهم شاب اسمه عفت الشبراوى كان يعمل مصمما للإعلانات بمكتب له علاقة بالمؤسسة. دائما صامت، فى حاله، لم يغير عاداته، شرب القرفة باللبن شتاء، واليانسون صيفا، وتدخين حجرين معسل طال مكوثه أو قصر.

عندما راحت معه كان قضت حوالى سنة فى المقهى، الحق أن الدهشة انتابت الجميع، كانت تبدو أنها مستعصية، لكم داعبها الكثيرون، أحيانا برقة، وكثيرا بغلاسة، ظن بعضهم أنها سهلة، ولكنها عاملت من تجرأ بحزم، وأحيانا بقسوة غريبة كانت تثير الخوف الغامض والخشية فى قلوب سائقى عربات الأجرة بالنفر، وتجار الجمال الأثرياء العاملين بسوق إمبابة القريب، حتى الغرباء العابرين، ومنهم الحراس السريّون الموفدون

لمراقبة مدخل المقر الأصلي حرصا وحذرا من أى محاولة تخريبية يقوم بها أعضاء الجماعات المتطرفة، باعتبار المؤسسة هدفا استراتيجيا. . كلهم زُجروا بعنف منها، ومن صاحب المقهى الذى حنا عليها كابنته. .

متى اتصلت الأسباب بينهما؟ لم يلحظ أى إنسان نشوء العلاقة، لا تبادل نظرات، ولا مودة، ولا كلمة منها ورد منه، فجأة. . جاء يوم ولم تظهر فيه، تأسف صاحب المقهى وتحسر بعد مرور ثلاثة أيام وإرساله من يستفسر عنها عند خالتها التى قالت ببساطة إن البنت راحت مع واحد وعدها بالزواج اسمه عفت. . عفت أول من عرف خيرها، وقطف بشايرها، استمتع بقشدتها طازجة.

طبعا. . انقطع عن المقهى، لكن أخبارهما استمرت تتردد بشكل ما، ويبدو أن البعض كان يلتقى به فى مقهى قريب من سيدى إسماعيل الإمبابى، مما رواه أمكن للكثيرين أن يمعنوا الخيال فى محاولة لتجسيد الصورة.

من يصدق أن هذا كله كان داخلها؟

رشيدة؟ رشيدة ذات القوام الجاف مثل الصبى، لا صدر ناهداً، ولا ردف بارزا، ذات الحضور الذكورى، بعضهم ظن أنه تصدق عليها بكلمات غزل أو مداعبة. .

رشيدة تلك لا مثيل لها، أنثى انفجارية! ملكة الفراش، والعالمة بالطرق الخفية إلى مسام الرجال، لم يعرف عفت مثيلا لها. . لا من قبل ولا من بعد. مع بدء المعاشرة تقيم مهرجانا من المتعة، تعطى ما يطلبه منها بدون تلميح أو تصريح، ثم تبادر بما يناسب وما يوافق، زحمت وجدانه وأيامه وجسده حتى نسى كل ما عداها.

بعد سفرها مع صاحبه كاد يجن. لكنه السبب، فى لحظة ضاق بها، خشى تلميحها المستمر إلى رغبتها فى حياة أخرى، مختلفة، لكم كان أبله غبيًا، ظنها تسعى إلى ما تتطلع إليه أى بنت فى سنها، الستر والزواج. لكنها قصدت شيئا مغايرا تمامًا. وعندما جاءه صاحبه منعم الأدبجى زميل صباه، صافحها مطرقا، لم يلمح أى شىء بينهما، لم يرصد أى علاقة تدل على وقوع تماس، لم تنفرد به قط، حتى فوجىء بورقة تحوى كلمات قليلة بخطها المضطرب تخبره بسفرها مع الأدبجى إلى أوروبا لتجرب حظها، لم تشأ أن تخبره مقدما حتى لا تصدمه. أنه طيب، وحنون، وابن حلال، لن تنساه أبدا.

لعن اليوم الذى صاحب فيه الأدبجى، كان أقرب زملائه إليه فى المدرسة الإعدادية ثم الثانوية، وعندما قرر السفر خرج وراءه إلى المطار، وعاد إلى المدينة بوحشة باردة، وإدراك وعر للفقد، وانتهاء صلة، فى الأعياد ورأس السنة تسلم بطاقات ملونة أنيقة، كما كتب إليه عدة خطابات، يخبره عن صعوبة الأحوال، وتقلبه فى أعمال شتى، من بائع صحف يخرج فجراً إلى شوارع تكسوها الثلوج إلى بيع الزهور فى المطاعم ليلاً، وتوزيع الإعلانات على صناديق البريد فى مداخل البيوت المتباعدة.

الغريب أنه شكا من صعوبة الحياة هناك، لم يذكر ما يحببها فيها، ولكنها كانت تواقة، وبدا منعم الأدبجى فرصتها السانحة.

كاد أن يجن، زلزلة فقدها المفاجىء، أوقات وعرة مرت به لم يكن قادراً على الوقوف أو الجلوس، على التزام الصمت أو الانطلاق فى الحديث، على الاسترسال فى الضحك أو الاستسلام إلى البكاء، كان

يسعى إلى الجهات كافة فى وقت واحد، ثم يتكوم متضامًا، منهنهًا كاليتامى :

«تعودت عليها . . تعودتها» .

ما كاد يدفع به إلى الهلاك حيرته، هل كشفت نفسها للأدبجى هنا فى مصر؟، فى بيته؟ أم أنه عرفها هناك؟ لو طاله، لو أمسكه بيديه.

لكنها لم تنسه، أرسلت إليه أخبارها عبر البطاقات والصور الملتقطة لها فى مطعم للبيتزا لم تفارقه إلا وهى ترطن بالإيطالية، أما المطعم الفرنسى الذى عملت حارسة لدورة المياه به، ثم نادلة، ثم مضيفة تستقبل الزبائن بابتسامتها الرقيقة، الشرقية، الدافئة، فأنهت عملها به بعد إتقانها الفرنسية، كان عملاً هادئًا، أحبته، وأحبت العائلة الصغيرة المالكة له، الزوج يدير، والزوجة تطبخ، والابن يدبر ما تبقى من أمور، خاصة البار الصغير، لم يضايقها إلا ظن الزبائن أنها جزائرية أو مغربية، لم تشعر فى حياتها بالاستقرار الحقيقى إلا فى المقهى المواجه للمؤسسة، وفى المطعم، لكن المرتب المرتفع لعاملة المصعد فى الفندق الكبير ذى النجوم الخمس كان إغراء لا يقاوم. فى الفندق أتقنت الألمانية لغة أهل البلاد تمامًا، وألمت بطرف من الروسية، والمجرية، أما الإنجليزية فتنطقها كالعربية تمامًا.

كل بطاقة أو صورة أو رسالة تنكأ عنده جراحًا ظن اندمالها، عندما تسلم صورتها، تقف بين مالكى المطعم، حدق طويلاً فى ملامح الابن، بدا وسيمًا، يفيض حيوية، هادىء البال. ما شغله، ما نكد عليه عيشه . . تساؤل ممض، هل ضاجعها؟ هل عرف ما أطلع عليه، ما خبره منها؟ ترى أين التقت بهذا الطبيب الثرى؟ أو المهندس الكيمائى؟ لا يعرف وظيفته بالضبط، لكنه متأكد من ثرائه، كان يمتلك الدنيا التى حلمت

رشيدة بها طويلاً، عنده بيوت ملك فى باريس، فى لندن، فى نيويورك ومكسيكو سيتى، ها هى صورتها تقف عند سفح أهرام تشبه أهرام الجيزة، لكنها تصفها فتقول إنها ليست فى مثل عظمة أهرام مصر وقدمها وحضورها . .

كيف تعرفت إليه؟

كيف ملكت عليه جهاته حتى صار يمتثل لها، ولا يظهر فى مكان إلا بصحبتها؟

ما المراحل التى مرت بها العلاقة؟

لا يدرى، لكن مع كل رسالة تصله يرتفع صوته أثناء جلوسه بالمقاهى التى اعتاد ارتيادها مشيراً إليها، مؤكداً أنه عرفها وهى فى الثالثة عشر، وأنها كانت جائعة، أقصى أمنياتها أن تشبع مرة، وأنه أول رجل فى حياتها، هو الذى . .

نعم . . نعم بالضبط!

ثم يوغل فى ذكر تفاصيل دقيقة، ينطقها متمهلاً، مستمتعًا حتى أنه أثناء حديثه تؤججه رعشات وخلجات، فكأنه يستعيدها باللفظ، مرة أصغى إليه شيخ ضرير، ضخم الجسد، غليظ الرقبة، كان مطرقًا كأنه نائم، لكنه علق على حديث عفت الذى كان يجلس بعيداً عنه، فى أقصى المقهى بصوت جهورى :

«وهل يترك رجل عاقل امرأة بهذه الأوصاف؟» . .

فوجئ الحاضرون، بُهت عفت لكنه قال بسرعة :

«النصيب . . النصيب يا مولانا» .

هز الشيخ رأسه من اليمين إلى اليسار، قال ماطًا شفتيه . .

«لا تشغل نفسك ولا تعذبها . . لا أنا لها ولا هى لك» .

عندما جاءت رشيدة فى أولى زياراتها إلى مصر قصدت المقهى، لم يتعرف إليها أحد ممن عايشوها وعرفوها، أما عفت فاختفى كأنه فص ملح وذاب، بدت أنيقة، فواحة، فعلاً . . صيغت من جديد، حتى أن الجواهرى تساءل عن العلاقة بين الإنسان فى مرحلة وفترة أخرى من عمره، هل يمكن اعتبار رشيدة المقهى هى عينها؟

تصرفت ببساطة، وراحت ثم جاءت، تأملت المكان الذى أمضت فيه زمنًا تحند الشطائر، أصرت على الوقوف أمام النصبة، صب الشاى بيدها، وعندما أبدى المعلم تأثره ربتت على كتفه، قبلته .

ابتسمت للجواهرى، أقبلت عليه، حتى سبح فى شذا عطرها الذى بقى عالقًا فى المقهى يومين متتاليين، استفسرت عن أحواله، عن عطية بك، لم يستطع منع نفسه من استعادة ما رواه عفت المجنون عنها، وحاش بصره عن التشبث بنصف جسمها الأسفل، وما يحتويه من تكوين نادر، فريد، يؤكد عفت أنه السبب فى انطلاقها، اقتحامها لتلك العوالم . . كان يصمت ثم يهز رأسه أسفًا : من يعرفها لابد أن يعتادها . يدمنها، يتبعها، يلبى كل ما تطلب .

ربما تنتابه حالة حزن فينطوى على نفسه، أو هياج فيلطم معلنًا ندمه لتفريطه فيها، أو يقص بصوت يسمعه الجميع أدق ما كان بينه وبينها .

لو سمع المؤسس مثل هذه الأوصاف لسعى إليها. كان ذواقة مغرمًا بغريب النساء، وأشدهن رغبة، وقدرة على المجاوبة.

لكن . . كيف ظهر اسمها على جدران دورات المياه؟

هل اتصلت حقًا بالمؤسسة؟

لو يعرف من خط هذه الكلمات لمضى إليه مستجوبًا، بدون إفشاء أمره، لم يلحق الضرر قط بأى إنسان ينتمى إلى المؤسسة، تعرَّف إلى عدد من الشخصيات التى أدمنت الصراخ وإبداء الرأى على الجدران، لكنه . . وتلك شهادة لوجه الله لم يُلحق الأذى بأى منهم.

من يصدق الآن منحه فرصة لعامل إضاءة أتقن رسم العاملات عاريات. خاصة اللواتى ضاجعهن المؤسس، عندما اكتشف حقيقته أبلغ سيادته لكنه لم يصرح بالاسم إلا بعد إصغائه إلى وعد صريح، قاطع بعدم إلحاق الأذى، عندما نقل صورة من الرسومات إليه أبدى إعجابًا، وقال - رحمه الله - إن مثل هذا يجب إتاحة الفرصة له، ثم ألحقه بمعهد ليوناردو دافنشى. قسم الدراسات الحرة، وأوصى به الملحقية الإيطالية. بعد عودته من روما رسم عدة لوحات للمؤسس، يقتنى متحف الفن الحديث أحدها الآن كنموذج فريد لفن البورتريه . . الآن، له صيت، ومعارضه يفتتحها كبار المسئولين.

من يصدق ذلك من؟

لم يخش المؤسس أى إنسان، بحث عن الجوهر فى الركام المهمل والتقط الموهبة فى أعتى الظروف. لكم بذل جهدًا فى البحث عن أصحاب الكفاءات، حتى بين من حملوا له مقتًا أو كراهية، لكن الذين

خلفوه لم يقتدوا به تمامًا وإن ادعوا غير ذلك. قال المؤسس يومًا: تعاملوا مع الكبار تنهضوا وتزداد قاماتكم طولاً، شجعوا ذوى المواهب تزدهروا.

صحيح أن كلماته معلقة فى ممرات ومصاعد وصالات المبانى، وفى ذكراه صدر مجلد يحوى ما تم تسجيله والتحقق من صحة نسبته إليه، ومعظمها لا مجال للتشكيك فيها، لكن هل يقتدون فعلاً بها؟

لا..

الجواهرى يعى تمامًا السعى المحموم الذى قام به رئيس المؤسسة الحالى لدفع البروفيسور إلى احتلال مكانه، الوضع تبدل الآن، يقع اختيار الخلفاء على الأضعف منهم، الأقل موهبة، يسعون إلى مخلوقات تتستر على الأخطاء الموروثة بدافع حفظ الجميل! ما من أحد يتعلم الدرس. أحيانًا يظهر من الضعيف ما لا يخطر على بال.

على أى حال.. هو هادىء الآن، واهن، يوقن أن ما قام به نما بشكل ما إلى المؤسس، أحيط به علمًا فى الأبدية وروحه ترقبه من موضع خفى لا يُدرك بالحس!

أثناء خطوه فى ممرات المقر، عند دخوله المصعد أو خروجه منه فكأنه يمضى إلى مقابلته، سيمتثل بين يديه بعد لحظات، وجوده بعد رحيله أكثف مما كان عليه أثناء سعيه حيًا، ليس بالنسبة له فقط، لكن.. عند الأصلاء كافة الذين أسهموا بعرقهم وجهدهم لتشييد هذا الصرح. لو أن الأمر بيده لأمر بإقامة تمثال له فوق القاعدة الخالية. بميدان التحرير، قيل فى البداية بعد الفراغ منها أنها مخصصة للملك الراحل فؤاد، لكن يبدو

أن بعضهم أقنع الابن أنه أحق، قامت عليه الثورة، خلعته، بقيت القاعدة صلعاء بلا تمثال. حتى اعتاد الناس شكلها فظنه البعض مكتملاً، وإنه تكوين في حد ذاته. بعد رحيل الزعيم الخالد، وفي غمرة الحزن عليه بادر البعض إلى تبني اقتراح باكتتاب شعبي لنحت تمثال يوضع فوقها، وذكروا أن الزعيم لم يسمح بإقامة أي تمثال له أثناء حياته، أما وأنه قد رحل.. فالواجب إذن حتمي والضمير يملي، ما إن شرع البعض حتى أقدم خليفته على الحركة التي وُصفت أولاً أنها تصحيحية، ثم اعتبرت ثورة، وهوجم الزعيم الراحل، واتهم في ذمته، وطعن عليه البعض بالمؤلفات وما لا يحصى من المقالات، ولمح الأشخاص عينهم إلى ضرورة تزيين القاعدة الخالية بنحت جميل لمصحِّح الثورة ومعدل المسيرة، غير أن ذلك لم يتم لمصرعه المفاجئ أثناء ارتدائه لباس مارشال البر، واستمرت القاعدة شاغرة حتى بدأ الفرنسيون ينفذون مشروع مترو الأنفاق. وكان لابد من إزالة عدة مبان قديمة فوق الأرض مثل المتحف الجيولوجي، وأيضًا الكعكة الحجرية التي تتوسط الميدان، كما أطلق عليها شاعر جنوبي لم يعمر طويلاً..

اختفت القاعدة.

يمط الجواهري شفتيه تعجبًا وأسفًا..

هل يعرف القوم معنى الوفاء حقًا؟

أحق الخلق بنحت تمثال شاهق له هو المؤسس، لكن من يدرك ذلك الآن من؟

كثيراً ما فوجئ بنفسه ينطق أفكاره وخواطره بصوت مرتفع.

يتطلع بعض الجالسين حوله، ربما يتعجبون . . ما لهذا الرجل يكلم نفسه مثل المجانين؟ لا يعرف أى منهم بالطبع أنها إحدى عادات سيادته، أخذ ذلك عنه، كثيراً ما يردد بعضًا من جمله وعباراته، أو يطرق فجأة مثله، أو يلامس جبهته براحته، يدركه سرور إذا قال أحدهم: إنه أخذ بعضًا من ملامح المؤسس، إنه أقرب الناس شبهًا به.

كم يبلغ الجواهرى الآن؟

تجاوز السبعين بعامين، أب لخمس بنات وجد لسبع عشرة حفيدة، مع ذلك فإن وعيه حاد باليتم كأنه فقد والده أمس، كان المؤسس أستاذه ومرشده، بث فيه من روحه، اقترب منه وعايشه أكثر مما خالط أهله.

للأسف . . ما من شخص يمكن أن يسد بعضًا من الفراغ الذى خلفه، بعض منه موجود فى هذا، عناصر فى ذلك، لكن مثله لا يتكرر بسهولة، الأخوة يختلفون وهم أبناء بطن واحدة، من أين يجىء صنوه؟ من أين؟

كثيرون يبذلون الجهد الآن للوصول إلى الطابق الثانى عشر، يوظفون مهاراتهم، يجندون صلاتهم، بل إن ثمة قوى عالمية ترقب منتظرة، وربما تتدخل بشكل ما. فى الخمسينيات والستينيات اتجهت الأنظار من الداخل والخارج إلى أى تغيير يجرب فى قطاع ما من المؤسسة. اعتبر ذلك مؤشراً ودلالة تستدعى كتابة التقارير الدبلوماسية والتحليلات الصحفية وأحيانًا . . التعليقات الإذاعية. كانت الوجوه المحيطة بسيادته ذات دلالة على أمور أعم وأشمل . . ما البال إذن بمن يجلس فى المكتب الدائرى؟

صحيح أن المؤسسة الآن ليست مثل الزمن القديم ، الآفل المولى ، الذى اعتبره المؤسس فى غمار محنته مرحلة ذهبية ، سمع ذلك منه مباشرة ، لكن . . للمؤسسة هيبتها ، ومكانتها ، مازالت . .

المؤكد الآن أن الجهات المعنية لن تأتى بشخص من خارجها ، الأوضاع داخلها لا تحتمل ذلك ، ولا خارجها أيضًا ، بعد البرقيات التى انهالت على مراكز القرار تأكدت وحدة العاملين ، وقدرتهم على اتخاذ موقف موحد .

لم يخلف سيادته غريبًا باستثناء هذا الضابط المتقاعد الذى يختلف بشأنه الآن المعنيّون بتاريخ المؤسسة ، هل يمكن اعتباره من الرؤساء المتعاقبين أم لا؟

كان القصد من تعيينه إذلال الجميع بعد بدء المحنة الكبرى لبانيها ومُشيدها حجرًا فوق حجر ، لم يستمر وضعه مع أنه جاء فى زمن السطوة والهيبة الوافرة ، فشل فى إرغام عم صديق على إعداد فنجان قهوة له . . مجرد فنجان .

آخر أيامه ، قبل خروجه بلا عودة ، قال المتقاعد إن روح المؤسس مبثوثة فى كل شىء ، حتى الجدران والفراغ ، وإذا سعى أى قرار إلى التغيير ، فلا بد من استبدال الناس والجماد معًا يبتسم الجواهرى .

حتى لو تم ذلك ، لو أزالوها تمامًا ، من يقدر على ردم الحفرة الدائرية التى حيرت الجميع بمن فيهم العلماء والمتخصصون؟ من يجبر أهالى إمبابة القدماء وبولاق الدكرور على محو قدوم سيادته إلى الناحية ، الذى يؤرخون به لوقائع حياتهم حتى الآن ، فيقولون : قبل ظهور المؤسس بكذا

أو بعـده بكذا . . بل إن بعـضـهم يحـيى هذه الذكـرى بتـلاوة الأوراد والأذكار، وأدعية خاصة، لا . . لن يأتى إليها غريب أبدًا .

من إذن؟

تشير الدلائل والمعلومات المتناقلة إلى اثنين لا ثالث لهما، الأول: هو مدير قطاع البحوث. والثانى: رئيس قطاع الحواسب الآلية، أما القائلون باحتمال تولية الدكتورة مديرة القطاع التجارى لصلتها الوثيقة بزوجة أحد المسئولين الكبار، وقراءة كل منهما الفنجان للأخرى والأخريات، فهذا من قبيل التشنيع، إذ كيف يمكن أن تتولى امرأة هذه المؤسسة التى لا مثيل لها فى المنطقة، صحيح أن كل شىء جائز، لكن هذا صعب . . صعب، لابد أنها أمنيات الدكتورة نفسها . . إذ يذكرها الجواهرى أو يتمثلها بقامتها الفواحة بالإنوثة، وسعيها الجميل، وتماسك ثمارها رغم تجاوزها الخمسين، فإنه ينتشى لكن هذا عنده شىء، ودخولها المكتب الدائرى أمر آخر! قال عطية بك برزانته الثاقبة . .

«لماذا تستبعد ذلك . . كل شىء متوقع» . .

حـقًا، إنه زمن العـجـائب، كل مـا جـرى يؤكـد ذلك، ألم يكن البروفيسور قاب قوسين أو أدنى؟

البروفيسور قلقاسة، البروفيسور قرع أصلى، وأخيرًا دكتور بليب . . ألم يغلق الباب على نفسه ويذرف دمعًا كالنساء بعد تسليمه الجهاز أمس . . لكن الأمر حسم، ما زال فى العقول بقية قادرة على وقف مهزلة كهذه .

أكد عطية بك أنه يتمنى حسم الأمر بسرعة، الوضع المذبذب خطر، مكروه، ألم يقل المؤسس أنه يفضل لحظات الخطر اتخاذ قرار، ليس مهمًا صحته أو خطؤه، المهم القدرة على الحسم.. وافق الجواهرى، لكنه قال..

«لا تبالغ»..

غير أن الانتظار لم يمتد، صباح اليوم التالى دخل عم صديق مقهى رشيدة النمساوية، اتجه مباشرة إلى الجواهرى، لم يكن بدأ بعد رشف كوب الحلبة الذى يبل به ريقه صباح كل يوم.

قال عم صديق إن الخليفة - هذا ما يطلقه على ورثة المؤسس - جاء مبكرًا على غير عادته وأنه يلم حاجته!

نبـــوءة مــــــرورية

ماذا يجرى فى الدنيا؟

من يصدق ذلك؟

مـن؟

يستعيذ الجواهرى من الشيطان الرجيم، ظن حتى اليوم أنه عاش وجرب وخبر ما لن يدع - عنده - مجالاً لأى دهشة، لكنه ها هو يتحدث إلى نفسه بصوت مرتفع، فى المقهى، فى الطريق، أثناء طلوعه السلم.

فى البداية لم يدرك العلاقة، كان مشغولاً بالإصغاء إلى رئيس اللجنة النقابية الذى زاره فى مكتبه، وأفضى إليه باسم المسئول الجديد الذى سيدخل المكتب الدائرى اعتباراً من صباح الغد، مال إلى الأمام قال: إن القرار السيادى الجمهورى سيذاع فى النشرة السادسة، وإن باقات الزهور بدأت تصل بالفعل حتى أنها زحمت المدخل الرئيسى.

بشكل ما لم يفاجأ الجواهرى بتعيين رئيس قطاع الحواسب الآلية، صحيح أنه من جيل جديد، لم يتجاوز السادسة والثلاثين بعد، لكنه مشهود له بالكفاءة النادرة، والذكاء اللامع، ليس بسبب حصوله على درجتين علميتين فى تخصصات وعرة، ولكن لتأسيسه هذا القطاع المهم

المستحدث فى مصر زمن بدء العمل فيه، وتحقيقه أرباحًا طائلة للمؤسسة، وسمعته الطيبة التى اكتسبها فى الخارج، حتى قيل إنه يخضع لشكل خفى من المراقبة الأمريكية بسبب حرص خبراء البنتاغون وحذرهم منه باعتباره أحد عشرة أشخاص فى العالم - منهم امرأتان - يمكنهم النفاذ إلى الحاسب الآلى وفك الشفرات الخاصة به، وبالتالى الحصول على أدق أسرار القوة النووية الاستراتيجية التى لا يلم بها الرئيس الأمريكى نفسه.

يا سـلام!

لم تخب نظرة المؤسس قط، لمحه أثناء إلقائه محاضرة فى الجامعة الأمريكية، تعرف إليه، طلب منه الاتصال لتحديد موعد، أثناء اللقاء أهداه منحة علمية وصلت إلى المؤسسة من هيئة لنكولن الدولية، مخصصة لدراسة الحواسب الآلية بجامعة فيلادلفيا، هكذا أضاف سيادته هذه الكفاءة النادرة إلى المؤسسة، مع أنه لم يره إلا حوالى ربع ساعة، عبر لقائهما الوحيد. لم يعد المؤسس موجودًا فى العالم بعد انتهاء البعثة وعودته ليبدأ العمل على الفور، من هنا لا يعتبره الجواهرى دخيلاً مثل البروفيسور، إنه ينتمى إلى سيادته حتى وإن لم يعايشه طويلاً، لم يأخذ عنه مباشرة، لم يصاحبه، لكنه غرسه وثمره.

يدرك الجواهرى ويعى أن المؤسسة سوف يتولى أمرها خلال سنوات قليلة مقبلة من لم يعرف بانيها وسيدها الأول، من لم يلتق به قط، هذا منطق الزمن وقانونه، لن يكون الجواهرى أو عطية بك أو صديق النوبى فى هذه الحياة الدنيا، لذلك من المهم الإبقاء على روح تلك المنشأة الجبارة، على تقاليدها، على القيم التى زرعها سيادته فى هذه التربة الخصبة.

ترى . . ما مدى إلمام الرئيس الجديد بهذا الموروث كله؟

لا يدرى . .

إنه ينفض عن وعيه ما نما إليه من أقاويل بثها الحاقدون، أعداء أى ناجح، ألم يقل سيادته فى اجتماع صباحى يومًا عقد فى الخمسينيات، إنه كلما هوجمت المؤسسة أدرك ثباتها وصحة تقدمها؟

لا . . لا . . إن ما يتردد كلام فارغ، بعضهم يقول إن ما يتردد عن عبقريته وهم، وإنه كان فى مهمة غامضة بالولايات المتحدة، يبدو أنها كانت أحد أسباب المحنة العظمى، بعضهم يقول إنه ابن غير شرعى لسيادته، بينما يقول آخرون إنه كان سببًا فى دخوله السجن مع بدء الكارثة . . هل يستقيم هذا؟

يقولون إن الوحيد المطلع على سره هو عم صديق النوبى، إنه يعرف أمه التى ارتبطت بالمؤسس، وكان يضاجعها فى الطابق الثانى عشر، فى حجرة ملحقة بمكتبه، فيها علقت منه، لو نطقت جدران هذا الطابق للذهل القوم، غير أن الإنسان الوحيد الملم يظل صامتًا حتى الآن، هل يتكلم عم صديق يومًا؟

لا أحد يدرى . .

إذا قدم إليه فنجان القهوة المحوج فسيعد ذلك علامة رضاء وقبول، إذا امتنع ولزم الانطواء فسيكون ذلك علامة شؤم وضيقة، سيتضح ذلك . .

يلوح الجواهرى بيده . .

تموج المؤسسة بكلام فارغ كثير، وشايات، أحقاد، قال سيادته يومًا: إنهم بشر، وما ينطبق على غيرهم يسرى عليهم . .

يجب عليه ألا يصغى طويلاً إلى تلك الشائعات .

هذا ما ردده لنفسه حتى الظهر ، لكنه بعد سماعه بما جرى اليوم يمكنه أن يصدق أى شيء ، حتى لو قيل إن البغل يلد ، وإن النار تشعل الماء .

إنه مضطرب ، مقلقل . . هو من أحنت ظهره التجارب والأيام الصعبة . من كان يتصور وقوع ذلك من أقرب الناس إليه . . من؟ عندما تحركت السيارات التى تقل العاملين فى تمام الثانية والربع ، بعضها اتجه إلى ميدان سفنكس ، والآخر إلى شارع جامعة الدول العربية . لكنها جميعًا لم تتحرك إلا أمتاراً معدودات ، كان الزحام غير عادى ، مئات المحركات تهدر ، أبواق قلقة تتردد ، دخان عارم كثيف يتصاعد مختلطًا بحر الظهيرة والغبار القادم من الفراغات الصحراوية المحيطة بالمدينة ، وتلال المقطم الشرقية ، أدرك السائقون المتمرسون أن التوقف سيطول فأوقفوا المحركات تمامًا ، بينما بدأ بعض الركاب يشعرون بغثيان وتدركهم دوخة .

صحيح أن توقف المرور طبيعى فى ساعة الذروة تلك ، لكنه معتاد بدرجة ما ، أما هذا التكدس فبدا غريبًا ، وخاصة أنه لم يمر موكب رسمى ، آخرون قالوا إنه ما من مناسبة قومية تستدعى خطابًا فى مجلس الشعب الذى يقوم مقره وسط المدينة ، أى احتفال به يصاحبه موكب وتشريفة يربك المرور من حلوان إلى عين شمس ، الشوارع مثل الأوانى المستطرقة ، لا يوجد الآن زوار كبار من الملوك أو الرؤساء ، أما وصول بعضهم فجأة فلا يترتب عليه ذلك !

مؤكد . . أن الأمر غير طبيعى !

فى المقعد الخلفى للسيارة روسية الصنع تململ عبده النمرسى مدير العلاقات العامة، إنه مشغول منذ الصباح الباكر فى تقصى المعلومات المتاحة كافة عن الرئيس الجديد، انزعج عندما اكتشف لأول مرة أنه لا يعرف ملامحه. غير متأكد منها، فى ذهنه إطار عام، لكنه مهما اجتهد لا يستطيع إدراك علامة مميزة، كيف يمكنه الاطلاع على مزاجه الخفى، ميوله التى لا يدركها الآخرون؟

ما يحيره. . من أين يبدأ، وكيف؟

لابد أن عم صديق يعرف عنه الكثير، لكنه لا ينطق، أما ما عدا ذلك فأوهام وشائعات يرددها البعض من تلقاء أنفسهم، إما بحسن نية أو سوء قصد، يتتجه اهتمام بعض الأجهزة الأمنية المختلفة، ودوائر أجنبية بأوضاع المؤسسة وشئونها. المهم بالنسبة له الآن أن يحاول الاطلاع على جوانب وزوايا لا يهتم بها أحد. . لو أنه اهتم به من قبل، لكنه بدا خاملاً نائيًا، منطويًا، لا يظهر فى مآتم، ولا أفراح، ولا يجامل أحدًا ببرقية عزاء، أو تهنئة، مع أن اللوحة الكبرى فى المدخل الرئيسى لا تخلو يوميًا من نبأ ميلاد أو زواج أو شفاء من عملية جراحية أو رحيل أحد الأقارب أو أحد العاملين عن العالم. قيل إن طبيعته هكذا، وإنه لا يلتقى بأحد، وعند وصوله يغلق الباب ولا يفتحه، عنده قدرة على الاستمرار فى الحديث بدون التفاته إلى رنين هاتف، أو أى مصدر إزعاج، يروى أحدهم ثباته عندما كان يتناول اللحم المشوى فى مطعم لاتينى بمكسيكو سيتى، عندما اقتحمت عصابة مسلحة وأغلقت الأبواب، وكان هدفهم عقدا من الماس، يحلى جيد امرأة أربعينية فارهة، مكتملة الثمار، لم يرفع عينيه عنها منذ جلوسه، أشاعت العصابة رعبًا، خاصة بعد إطلاق

النار فى الهواء، الوحيد الذى لم يهتز له جفن، لم تختلج فى وجهه عضلة، استمر بتذوق الطعام متمهلاً، متطلعًا إلى الأمام وكأن الأمر لا يعنيه، مع أن شركاءه الثلاثة انبطحوا أرضًا. فى اليوم التالى أشارت الصحف إلى ثبات أعصابه، وعلق أحدهم قائلاً: إنه لولا ثبوت أجنبيته، وجنسيته المصرية، ومجيئه بدعوة رسمية من أكبر مركز للحواسب الآلية لتمسك البعض فى صلة ما بالمجرمين الملثمين الذين اختفوا وكأن شيئًا لم يكن. مثل هذا. هل يزعجه رنين هاتف، أو فرقعة جوفاء، أو صخب ما، يبدو أنه اكتسب بعض ملامح وصفات العقول الآلية، والحواسب التى أمضى عمره خبيرًا فيها، وربما كان هو نفسه حاسبًا على هيئة آدمى. .

على أى حال سنرى.

لا يتم الاتصال به إلا من خلال مديرة مكتبه الآنسة انتشار، لكنه. . رد عليه مرة عندما أدار الرقم الداخلى، فى الأيام التالية حاول مرارًا لكن. . لم يجبه إلا رنين أجوف.

الآنسة انتشار؟

هل تكون هى المدخل؟

ربما. .

سيبدأ من الغد اهتمامه بها. يبتسم. . يستعيد لحظات مماثلة، عندما يشرع تجاه أنثى معينة، هذا التحدى الممتع، تتضاعف متعته كلما اشتدت مناعتها، . وصعبت ظروفها، مهما بدت إحداهن مستحيلة، فلا بد أن ثمة ثغرة لا تستعصى، المهم. . تلمّس الطريق، ثم. . النفاذ إلى اللب مباشرة.

فى البداية ظن ذلك مقصوراً على بنات الجمالية والباطنية وقلعة الكبش، لكنه اكتشف فيما بعد أن أصل الموضع واحد، وهذه البيوت الأنيقة، الثرية، تخفى فجائع جمة، المهم. . مجال حركته، وإدراكه مفتاح القضية.

فى الجمالية يقولون إنه قادر على غواية أى مصونة، إخراجها من خدرها، ترويضها وتطويعها ثم اللعب بها كالخاتم فى الأصبع، أجمل الجميلات، اللواتى استعصين على رجال أصحاب جاه ونفوذ استسلمن له.

إن منظره يبدو منفراً للوهلة الأولى، قصر ملحوظ مع امتلاء فى منطقتى الصدر والأرداف، صلعة برّاقة لا مثيل لها فى المؤسسة إلا صلعة البروفيسور، غير أنه يبدو مائلاً إلى الوراء عكس جبهة الآخر المنكفئة إلى الأمام وكأنها واجهة إعلانات، شفتاه مضمومتان، مزمومتان، إذا تحدث طالتا قليلاً وكأنه يصفر، كان قادراً على اكتساب ثقة النساء بسرعة، ثمة شىء ما أنثوى فى تكوينه، ربما يسهّل أموره معهن، كلهن. . المثقفات، شبه الأميات، الثريات والفقيرات، خصيصة غامضة تجعلهن يفضين إليه بالمكنون المستتر، يثقن فيه، ماذا جرى؟

يتطلع عبده النمرسى حوله، يسأل، يجيب السائق مشيراً إلى توقف المرور تمامًا، يتطلع إلى الساعة، يخشى التأخير، إنه على موعد مهم فى نادى القاهرة الرياضى، لم يدخله من قبل، هناك سيلتقى بإحدى قريبات الآنسة انتشار، أول خطوة عملية تجاه سيادته، غداً صباحًا سوف يمضى إلى أرشيف الصور، وأرشيف المعلومات، سيطلب عشرة ملفات، من بينها ما يخصه هو، لا يريد لفت أى أنظار إلى تحركه، طبعًا. . وظيفته

كمدير علاقات عامة غطاء جيد، مقنع، يمكنه الحركة فى جميع الاتجاهات، المهم . . أن تبدأ الحركة، انتهاء هذا التوقف.

تذكر سائق عربة أجرة اليوم الذى توقفت فيه الحركة تمامًا، حاول الدخول إلى طرقات جانبية لكن كل المسالك سدت، فيما بعد عُرف السبب، إذ قامت قوات الحراسة الخاصة بإجراء مناورة فى غاردن سيتى خلال ساعات الذروة، افترض المخططون وقوع هجوم ضد المركز الثقافى التابع للمؤسسة، والمخصص لاطلاع الباحثين فى الأدب والتاريخ والآثار والاقتصاد، ويقصده عدد كبير من الأجانب القادمين والوافدين.

أربع سنوات وبضعة شهور مرت منذ تلك الظهيرة، كثيرون استعادوها، خاصة لحظات ظهور الجنود المرتدين سترات سوداء شاهرين أسلحتهم فى وجه المارة متخذين الأوضاع الاستعدادية القصوى، توقفت الحركة تمامًا حتى تخوم المدينة، لم تستطع عربات الإطفاء الوصول إلى مكان الحريق رغم إطلاق صفاراتها باستمرار، ولجوء رجالها إلى قرع الجرس التقليدى، لكن . . بلا فائدة.

ما من بادرة تلوح الآن بانفراجة قريبة، بل إن بعض العابرين قالوا إن الوضع عينه فى شارع ستة وعشرين يوليو، وفوق كوبرى أكتوبر، وجسر مايو.

ماذا يجرى إذن؟

لا أحد يعرف على وجه الدقة، حتى الشائعات التى تسرى فى مثل هذه الحالات، والأخبار مجهولة المصدر لم تتردد، ما من إجابة دقيقة،

البعض يمط الشفاه، بينما يهز آخرون رءوسهم نفيًا أو حيرة، أما أولئك الذين اعتادوا الظهور فى مثل هذه الأحوال قرب المفارق لمساعدة رجال المرور فلم تفلح جهودهم، بدا الأمر غير طبيعى، لم يعهده أحد من قبل خاصة فى منطقة الإسعاف، وميدان الأوبرا، وميدان التحرير حيث تواجهت مقدمات العربات وتقاطعت المسارات.

خرج من المدخل الرئيسى للمقر الأصلى بعض رجال الأمن الخاص، اتجه كل منهم إلى إحدى العربات التى لم تبتعد كثيراً، وجه كل منهم سؤالاً: هل رأى إنسان عم صديق النوبى؟

بدوا مكلفين بالعثور عليه، والواقع أن المؤسسة تلقت عدة مكالمات متتالية من خلال أجهزة الهاتف العادية، وأجهزة الاتصال البديلة، وقيل إن الهاتف الأحمر الحساس رن مرتين فى الطابق الثانى عشر، وكان المتحدث فى جميع المرات منتميًا إلى إحدى الجهات الأمنية السيادية، كما نشطت الحركة فى برج الاتصالات الدوّار. اضطرت سكرتيرة مدير قطاع البحوث إلى إبداء غضبها وقلقها المكتوم، الأسباب الباعثة للكدر عندها عديدة، أهمها الآن، انتظار أطفالها الثلاثة فى الطريق، هكذا رتبت أمورها يوميًا على وصول العربة إلى ناصية شارع خسرو بضاحية حلوان البعيدة، فى الرابعة تقريبًا، أوصت الأولاد بالوقوف بعد خروجهم قرب مدخل المدرسة، ألا يتحركوا من أماكنهم، ألا يبتعدوا حتى ظهور السيارة، ألا يلعبوا الكرة فوق الرصيف، أن يحذروا أى غريب، خاصة الصغير، الولد أبيض وممتلئ عكس أخويه، فى الأسبوع الماضى أدركها رعب عندما أنبأها باقتراب رجل يرتدى طاقية، ابتسم له وقال له: تعال لتحصل على الجائزة، عندما ظهر شقيقه الأكبر ابتعد، إنها فى خوف دائم

أن يضحك أحدهم على الصبى، من قبل عانت رعبًا على شقيقه، تحاول مرة بالتلميح، ومرات بالتصريح، تحذرهم من ممارسة الألعاب التى ينحنى فيها الأولاد أو يقفز بعضهم فوق البعض، كل أسبوع تتلقى خطابًا من زوجها المدرس المعاد منذ ثلاث سنوات إلى جمهورية اليمن، محافظة ذمار، ينبهها إلى المخاطر التى يمكن أن يتعرض لها الأولاد، أن يضحك عليهم أحد، أن يصاحب أحدهم الأكبر سنًا، ألا يشتروا حلوى من أكشاك الطريق، خاصة المحيطة بالمدرسة، ألا يقبل أحدهم أى زهرة تقدم إليه من قريب أو غريب، إنهم يضعون البودرة المخدرة فى الحلوى والورود . . فلتنتبه! إن قلبها ليهفو الآن، العربات مسرعة والعقول طائشة . . ربنا يستر . .

عندما تصل العربة يصعدون إلى السيارة، أوصتهم بمصافحة السائق وجميع زملائها، وكثيراً ما تبرز شطائر أو حلوى من حقيبتها، تصبيرة سريعة حتى وصولهم إلى البيت . فى أيام الشتاء يصلون إلى البيت فى المنطقة السادسة بمدينة مايو والغروب مكتمل، كان الله فى عونهم . . وعونها أيضًا، الدروس كثيرة، والواجبات ثقيلة، وحملها كله صعب، خاصة بعد سفر الرجل . . كان الله فى عونه هَو الآخر، حقًا . . اشتاقت إليه!

انتظار الأولاد وركوبهم معها يوفر عليها الاشتراك السنوى فى الحافلة المدرسية، يكلفها كل منهم ثلاثمائة جنيه .

ألف جنيه فى السنة . . هم أحق بالمبلغ .

إنها تتطلع إلى الساعة، الرابعة وخمس دقائق .

تضطرب أمعاؤها، تتوالى دقات قلبها، الأولاد بمفردهم الآن، معرضين لجميع الاحتمالات، ماذا سيفعلون؟ كيف سيدبرون أمورهم؟ الولد الكبير عاقل، إنها فزعة لقلقهم وخوفهم عليها.

ما لهذا اليوم يبدو أغبر منذ الصباح؟

بعد التأكد من صدور القرار السيادى بتعيين رئيس قطاع الحواسب الآلية رئيسًا أدركها غم وكدر، لكم منت نفسها بوصول الرجل الذى عملت معه إلى الطابق الثانى عشر، كان من أقوى المرشحين، بل بدا واثقًا، متمكنًا، بعد الإطاحة بمشروع البروفيسور، ماذا جرى؟ لا تعرف، هذه أمور علوية لا تدرك إلا أعراضها أو ما يمر تحت عينيها من سطور يتاح لها الوقوف عليها، والنفاذ إلى خباياها.

ضاعت الفرصة!

لو أنه أصبح رئيسًا للمؤسسة لصعدت هى أيضًا إلى الطابق العلوى، لحقَّ لها المطالبة بعربة خاصة لتوصيلها من وإلى البيت، عربة بسائق ينتظرها أمام البيت، تلتقط أنفاسها عند النزول صباحًا، تتحكم هى فى الموعد، ولا يتحكم فيها كما يحدث الآن، وعند العودة يقطع الطريق مباشرة، لا يتوقف فى دار السلام، والمعادى، والمعصرة، يمكنه انتظارها إذا أرادت شراء خبز من الفرن الأفرنجى لإعداد سندويشات الصباح، أو قضاء بعض الحوائج من هنا أو هناك.

حظ!

لا تدرى ما ينتظرها خلال الأيام المقبلة، لم يخف عليها اكتئاب المدير وغمه طوال اليوم واعتذاره عن عدة مواعيد، لا أحد يعرف نوايا سيد

المؤسسة الجديدة ربما يصدر قراراً بنقله إلى أحد الفروع الإقليمية . . ماذا يكون مصيرها عندئذ؟

عقارب الساعة تتقدم بإصرار لا يمكن رده ، مع كل ثانية مولية يتصاعد جزعها ، وشعورها باتساع المسافة بينها وبين الصغار ، توشك على البكاء .

لم يطرأ أى تغير ، حتى الحركة الضئيلة التى كانت تقدم عليها بعض العربات توقفت ، فى الفراغ العلوى حلقت طائرة مروحية ، تطلع إليها البعض ، قالوا إن القوات المسلحة تراقب الوضع ، وتبدى النصح ، بينما أكد مدير أمن المؤسسة أنها تقل عم صديق النوبى بعد العثور عليه إثر عمليات بحث مكثفة جالسًا فى أحد المقاهى قرب مسجد السلطان الحنفى بالناصرية .

لم يعد التكدس مقصوراً على وسط المدينة ، إنما امتد حتى الأطراف ، وصل إلى طريق المطار ، وإلى مدينة الملاهى الجديدة التى يُعلن عنها يوميًا فى التليفزيون بعد نشرة التاسعة مساء ، تراصت العربة فى جميع الاتجاهات ، فوق جميع الجسور الواصلة بين ضفتى النيل ، من إمبابة شمالاً حتى كوبرى الجامعة جنوبًا ، أما مسار القطارات فتوقف أيضًا بسبب محاولة بعض العربات المحملة بخضار سوق روض الفرج التقدم فوق الخط الحديدى ، وتعطل أحدها فوق النيل مباشرة ، اضطر مدير الحركة الرئيسية إلى وقف القاطرات القادمة من الجنوب ، ولكنه رفض فتح أبواب القطار التوربينى القادم من الإسكندرية قبل وصوله إلى رصيف المحطة بسبب مخالفة ذلك لاتفاقيات التشغيل الموقعة مع الجانب الفرنسى والتى قد تؤدى إلى وقوع تلفيات تفسد مدة الضمان الدولية .

توقف القطار قرب المساكن الشعبية بغمرة التى أنشئت للفقراء آخر العصر الستينى الشمولى، كما تصفه المقالات الافتتاحية الرسمية، ومعظم هذه المساكن أقامها الفرع المعمارى التابع للمؤسسة.

المهم.. تعطل التكييف داخل التوربينى، مما حول العربات إلى ما يشبه الأفران، وأغمى على قاضى المحكمة العليا الذى اعتاد السفر صباح كل اثنين إلى الثغر فى قطار الثامنة، والعودة فى توربينى الثانية والنصف، كما ارتبك أمين المكتبة الشبابية، عندما أخبرته زميلته التى أمضى بصحبتها ثلاثة أيام كلها متعة وهناء فى مدينة الإسكندرية أن الدورة الشهرية بدأت منذ لحظات، وأنها تنزف دمًا، تشعر بنفاذه إلى ثوبها، أنها فى حاجة ضرورية إلى قطن، إلى فوط صحية، إلى أى شىء.. كيف يمكنها أن تمشى؟ هل يمكنه التصرف؟

فى الوقت عينه تجرى اتصالات على أرفع مستوى سيادى، خاصة بعد فشل خبراء المرور، وبعض المتخصصين الذين تم الاستعانة بهم سرًا من السفارة الأمريكية، مثل هذا الوضع خطير، خاصة فى المرحلة الأولى التى لم يعرف فيها أحد السبب الحقيقى، يعنى هذا التكدس شل الحركة فى قلب العاصمة النابض، عندئذ يمكن للجماعات الإرهابية، والمناوئين الحاقدين ومن بقلوبهم مرض تنفيذ بعض العمليات، مثل مهاجمة الأماكن الحساسة، أو محاولة السيطرة على مقرات البث الإذاعى الموجه على الموجات العاملة، القصيرة بأنواعها، والمتوسطة والـF. M.

كل شىء ممكن..

هذا ما ردده البروفيسور لنفسه أثناء جلوسه منزويًا فى المقعد الخلفى. انشغاله بما يمكن أن يحدث له، ولكن امتلاء مثانته قليلاً مع صعوبة لجوئه

إلى دورة مياه، أو مغادرة السيارة وإنزوائه هنا أو هناك، جعله أكثر تململاً وقلقًا، تذكر يوم تمرد جنود الأمن المركزى، عندما انطلقوا هائجين يدمرون كل شىء فى طريقهم بعد سريان إشاعة لا يدرى أحد من أطلقها حتى الآن؟ تقول إنهم سوف يمضون ستة شهور إضافية فى الخدمة الإجبارية، فى ثوان اشتعل الموقف، لا يذكر البروفيسور من قال على مسمع منه إن الأمور فى مصر تقع فجأة، ويمكن لأسباب تافهة جدًا، أن تفجر أمورًا طال تراكمها . . ترى من قال ذلك؟ أو . . أين قرأ هذا المعنى؟ يتلفت حوله، يتحرك جالسًا عند حافة المقعد ليخفف الوخز السفلى المؤلم.

ماذا يجرى بالضبط؟

لكنه فى صباح اليوم التالى، عند وصوله إلى مكتبه، وبعد سماعه السبب نسي غمه وهمه وتوقعاته لما يمكن أن يلحقه الرئيس الجديد به، ضحك غصبًا عنه!

الحق أن الجميع، سواء خارج المؤسسة أو داخلها أدركهم عجب وذهول، كما أن الأنظار كلها التفتت إلى المقر الأصلى، وسعى إليه المراسلون الأجانب المتربصون، المتحفزون دائمًا لأى صغيرة أو كبيرة تعكس اضطرابًا كامنًا، أو خللاً دفينًا، لكنهم لم يتمكنوا من مقابلة أى مسئول، المهتمون بتاريخ المدينة أضافوا إلى أيامها الاستثنائية المستقرة فى ذاكرتها الجماعية يومًا آخر مماثلاً للسادس والعشرين من يناير/ كانون الثانى والتاسع والعاشر من يونيو/ حزيران، والسابع عشر من يناير/ كانون الثانى، ويوم تشييع جثمان الفريق عبد المنعم رياض، وجنازة الزعيم عبد الناصر، غير أن الفرق جوهرى، فالأيام السابقة كلها نتجت

عن ظروف عامة وأسباب متشابكة، منها الاقتصادى والاجتماعى، والسياسى، لكن ما جرى أمس سببه شخص واحد، شخص فقط لا غير، يعتبر من رموز المؤسسة.

نعم. . إنه من القدامى، من الجيل الأول، واحد ممن عملوا عمرهم كله فى هذا الصرح المتين.

مرة أخرى يستعيذ الجواهرى بالله من الشيطان الرجيم، بعد إدراكه السبب الذى تهامس به الجميع، ولم يجرؤ أحدهم على البوح به، أو التصريح، انتابته شفقة، حتى إنه سأل عن الجهة المعنيَّة بالتحقيق الآن ليمضى إليه زائراً ومطمئنًا ومستفسراً إذا أمكنه ذلك.

سيرة صاحبه على كل لسان الآن، كل صغير وكبير فى المؤسسة يردد ما يحلو له الآن، انشغلوا بما تناقله البعض أمس عن فضيحة العثور على سروال بنفسجى اللون معلق أمام المصعد الرئاسى المخصص للطابق الثانى عشر، كتب عليه أنه يخص رشيدة النمساوية، عندما كانت تسعى فى المقهى المواجه، وأن مسئولا مهمًا فى المؤسسة احتفظ به فى درج مكتبه حتى عصر أمس! كان السروال رقيقًا، أنيقًا مثيراً للفتنة، يحمل علامة مصنع يقع بمقاطعة شرقية أصبحت الآن جزءاً من ألمانيا الموحدة.

إذن. . عطية بك هو السبب!

عطية بك أقرب الناس منه وأعزهم عليه، لم يعرف عنه طوال خدمته عوج أو ميل، الكل ينهشون فيه الآن، حتى الذين يجهلونه.

لو التقى به، لو أتاحوا له مقابلته، لن يلومه. . لن يؤنبه بل سيعاتبه: كيف أخفى عنه هوايته ومهاراته؟ عطية بك القديم، العارف بالأصول،

الذى تلقى عن المؤسس مباشرة، أحد اثنين لابد من مقابلتهما، والإصغاء إليهما فى المكتب الدائرى، قبل إصدار أى قرار، أو إجراء أى اتصال، كيف ستتم هذه المراسم . . كيف؟

من أجل المؤسسة هجر تخصصه النادر فى اللغات القديمة، الآرامية والسريانية والهيلوغرفية، والكتابة المسمارية، فارق الجامعة فى سن مبكرة وتبع المؤسس الذى تعرف إليه أثناء زيارته لقطب برلمانى شهير وقتئذ . . منذ دخوله الخدمة لم تقع منه مخالفة حتى اعتبر مثلاً يحتذى، كان خفيف الظل، مقبول العشرة، بادى المودة، عنده قدرة على بث الثقة فى محدثه، لذلك لعب دوراً مهما فى مفاوضات ومناقشات مهمة ومصيرية، كان قليل اللفظ، لا ينطق إلا بحساب، يذكر الحراس وعلى المبنى القديم أو الفروع الأخرى أنه لم يكتف بالتحية، بل كان يتقدم مصافحًا من يجهله ومن يعرفه، غير أن أهم خصاله التى اكتشفها المؤسس قدرته على توليد الإشاعات، وتأليفها، وأيضًا . . نشرها بين الناس.

يقولون الآن إنه أخفى هوايته تلك عن ولى نعمته، عن المؤسس، لكن عم صديق النوبى ينفى ذلك تمامًا بهزة صارمة من رأسه، فيما بعد قال إنه صارح سيادته بحبه وميله إلى رجال المرور، وفى أول لقاء جرى بينهما، وأثناء تقديم فنجان القهوة الخاص إليه، سمع عم صديق بأذنيه قوله أنه قد يضطر إلى النزول يومًا لإشباع رغبته . عندئذ أومأ المؤسس موافقًا ومجيبًا، تذكر عدد من العاملين أنهم قرأوا عن صديق المرور، الرجل الذى يرتدى ثيابًا مدنية، يظهر فى أوقات الذروة عند النواصى، ونقاط الاختناق، يتحرك بهمة بادية، وحماس، مقدمًا المساعدة لرجال المرور،

وبين الحين والحين يلوح مبتسمًا لتلاميذ المدارس الذين يعرفونه ويتحدثون عنه.

أكد ثلاثة موظفين فى قطاع التصدير أنهم شاهدوه فى رمضان الماضى عند تقاطع شارع الأزهر بطريق صلاح سالم، لكن لم يخطر لهم قط أنه عطية بك، يبدو أنه كان يجرى تغييرات فى ملامحه، ويرتدى ملابس لا يظهر بها أبدًا عند تردده على المؤسسة، قال بعضهم إنهم لمحوه لمدة ثوان معدودات غير كافية للتحقق من شخصه.

بعض الصحف أشارت إليه فى أخبار المجتمع باعتباره مواطنًا صالحًا، يتجاوز ذاته، ويبذل من جهده، جريدة الأخبار أطلقت عليه لقب «صديق المرور»، لكنها لم تذكر اسمه قط، كما صرحت باسم أشهر قارىء صحف، عيسى متولى، ونشرت مرات عنوانه فى إمبابة، كما أجريت معه مقابلة إذاعية فى برنامج الظهيرة الشهير قبل إقصاء مقدمته نتيجة وشاية استجاب لها مركز قوة مؤثر عظم نفوذه خلال العهد الشمولى.

يبدو أنه نجح فى إخفاء شخصه، ألم يخف هوايته عن أقرب الناس إليه، عن صنوه الجواهرى.. إذن، هل سيعجز عن إخفاء شخصه أو تمويه حقيقته.

متى وكيف أصبح صديقًا للمرور؟

بعد أيام عديدة من وقوع الزحام المدبر، كما أطلقت عليه إحدى الوكالات الأجنبية، أمكن للجواهرى لملمة أطراف الخيوط المتباعدة، ما كان يراه منها، وما خفى عنه، لم يسع من أجل تقديم هذه المعلومات

إلى جهة ما، أو لكتابتها فى تقرير خاص، إنما حاول أن يدرك ما أخفاه عنه.

يقول الجواهرى: إن صاحبه لم تبد منه بادرة تدل على معاناته من أمر خفى، لم ينطو قط، ولم يذهب ليعالج عند طبيب نفسى كما ردد بعضهم مؤخراً، بل إنه كان اجتماعيًا ودوداً، متواجداً فى المناسبات السارة والمحزنة التى مرت بالمؤسسة، لم يخلف جنازة تم خلالها تشييع أحد العاملين، أو قريب لهم، كذلك الأفراح، لم يكتف بالحضور، إنما يشارك فى الترتيبات والإجراءات.

فى المآتم يقف ليتقبل العزاء. وعند الدفن يناقش الحانوتية والتربية يدخل فى التفاصيل الحرجة التى لا يقدر على خوضها الأقارب المذهولون بحزنهم، فى الأعراس كان هو الحجة والمرجع فى معرفة التكاليف الدقيقة هنا أو هناك، فى صالات الفنادق أو النوادى، أو أندية القوات المسلحة، بل يضع الترتيبات ومحتويات القوائم التى ستقدم بما يحقق وفراً فى التكاليف، فى درب البرابرة يعرفه أصحاب محلات الحلوى، والعلب التذكارية المصنوعة من المعدن أو الخزف، وعندما احتفل بخطوبة ابنته، أعد بنفسه مائدة بهرت المدعوين، وقف على قدميه ثلاثة أيام بلياليها، أثنى عليه المؤسس الذى حرص على حضور الحفل من بدايته حتى نهايته، كان أول الحاضرين وآخر المنصرفين، وتلك منزلة ولفتة لم يحظ بهما الجواهرى نفسه.

كل من يتردد على المقهى يعرفه، كان موضع ثقة رشيدة قبل سفرها، وإليه أفضت بسرها ومكنونها، كان يحضر مبكراً، يأوى إلى الركن عينه، لم يبدله قط، يجلس بالقرب من العمال وصغار العاملين الذين

أنهوا نوبتهم الليلية أو القادمين من بيوتهم النائية ولم يتمكنوا من تناول إفطارهم لبعد مقر إقامتهم، وعدم اشتراكهم فى حافلات المؤسسة المخصصة تقريبًا للفئات الوسطى من العاملين.

عطية بك لم يخجل قط من جلوسه إلى أصغر العاملين ولعب الطاولة وتدخين النرجيلة، استراحوا إليه بعد استقرار ثقتهم به وتأكدهم أنه لا ينقل عنهم إلى الإدارة العليا، بل نما إليهم أنه تعرض لضغوط شتى أثناء الحقبة الشمولية الستينية، خاصة قبل وبعد وقوع المحنة الكبرى، لكنه لم يستجب وأبى أيضًا.. حظى بثقة النساء، معظمهن كن ينفردن به ويفضين إليه بأدق شئونهن، كان يجيد الإصغاء إليهن، مبديًا الاهتمام الشديد، مصمصًا بشفتيه بين الحين والحين، أو محركًا يديه تمامًا كما يفعلن.

كيف يمكن اعتبار شخص مثله منطويًا، أو مصابًا بالفصام، أو مقامرًا على استقرار الدولة؟

غير أن ما كتمه الجواهرى ولم يعبر علانية عنه، ألمه لإخفاء نشاطه عنه، وحيرته لقدرته على إبقاء هوايته بعيدًا عن متناول أى شخص.

متى بدأ نشاطه كصديق للمرور؟

لابد أن ذلك جرى فى فترة مبكرة من حياته، بالتأكيد.. قبل التحاقه بالمؤسسة، ألم يصارح سيادته بهوايته، فضل الاعتراف والتصريح بدلاً من تطوع أحد الوشاة بإبلاغه.

الضباط الذين وصلوا إلى رتبة لواء الآن سمعوا عنه أثناء دراستهم بكلية الشرطة، يقول مسئول مرورى كبير إن الإدارة تحتفظ بملف شرفى

له، إلى جانب ملفات رجالها، لكنه لا يحمل رقمًا مسلسلاً، بعد أن جرى منه ما جرى تم فحصه بدقة، لم يعثر فيه أحد الأخصائيين على ورقة واحدة تشينه أو تضعه فى دائرة الشبهة.

بدأ عطية بك نشاطه شابًا غضًا فى ميدان النزهة، كان يعيش فى أحد البيوت القديمة، الفسيحة التى بناها البارون أمبان بداية القرن عند تشييد ضاحية مصر الجديدة، كان يتأنق، لم يُر يومًا طويل اللحية قط، دائمًا تفوح منه رائحة عنبر، اعتاد شراءه من عطار قديم فى سوق الحمزاوى، إلى جوار مسجد برسباى.

كان يقف وسط الميدان، قرب جندى المرور، فى الأربعينيات كان القدامى بمفردهم فى الخدمة، لكل منهم هيبة وعلم بالأصول، لا يقبلون الرشوة مهما كان مصدرها، كلمتهم مسموعة، بمجرد ارتفاع يد الواحد منهم تتوقف أى سيارة مهما كانت شخصية راكبها، لا يعنيهم التهديد أو الوعيد، لم يجرؤ أى إنسان.. مصرى أو أجنبى على أن يفتح عينيه فى مواجهتهم، أو النطق بجمل مثل، «انظر لترى إلى من تتكلم».. «ألا تعرف من يقف أمامك»؟ «كم نمرتك.. كم»؟

عرف عطية بك الوقفة الشماء من هؤلاء المؤصلين، منهم تعلو كيف يبرز الهيبة؟ كيف يقف وسط الطريق؟ متى يدير ظهره إلى العربات، ومتى يرفع يده الممسكة بعصا قصيرة، يد تسمح وأخرى تمنع، متى يتقدم ليساعد طفلاً أو عجوزًا على عبور الطريق.

للأسف.. انقرض أولئك المجربون، القدامى، كان الواحد منهم يقف كأنه قائد يستعرض جندًا أو قومًا، أو عظيمًا يتأهب لأداء قسم، عرف بعضهم فى أيام الحر المبكرة خلال مارس/ آذار أو أبريل/ نيسان،

أو موجات البرد المفاجئة فى أكتوبر/ تشرين الأول، تغيير الملابس يتم أول نوفمبر/ تشرين الثانى، وأول مايو/ أيار، المهم هو التاريخ وليس الطقس، وقديمًا التزم كثيرون من المواطنين الصالحين بتلك المواعيد، لكم رأى عددًا منهم يتصببون عرقًا أو يرتجفون بردًا، فلا يبدو عليهم أى أثر لإرهاق أو نصب.

أين ذلك من جنود هذه الأيام، هزال القامة، صفر الوجوه، مضطربو الثياب، معظمهم مجندون، يمضون المدة الإلزامية، قادمون من الريف إلى صخب المدينة وضجيجها، يهابون العربات الفارهة وركابها المتجهمين الممسكين دائمًا بسماعات الهاتف، والحافلات السياحية الفارهة، وركابها الأجانب المتطلعين بدهشة وفضول إلى الموجودات كافة بما فيهم هؤلاء الجنود.

واظب على الكتابة فى بريد الصحف، موقعًا بأسماء مستعارة - جارى متابعتها الآن وحصرها - منبهًا إلى ضرورة إصلاح أوضاع رجال المرور كبداية للنهضة الحديثة، ملمحًا إلى أنهم رمز للدولة، وأوضاعها، ليس كل منهم مقصود فى حد ذاته، لكنهم عنوان بارز، واضح فى الطرق طوال الليل والنهار لهيبة الحكم، وحالته أيضًا.

كيف يتركون مهملين هكذا؟

هكذا تساءل أثناء التحقيق معه، غير أنه نفى بشدة أى دافع عنده للفت النظر إلى أحوال هؤلاء الغلابة.

نعود إلى صلته بالمرور، بعد ظهوره فى ميدان النزهة واشتهار أمره بين رجال مرور المنطقة الشمالية، انتقل إلى ميدان الإسماعيلية، ثم إلى

العباسية، كان ظهوره فى هذا الميدان بالتحديد نقلة كبيرة فى حياته وممارسة هوايته، الطرق المؤدية والمتفرعة عديدة، ولابد من اليقظة التامة، حتى بعد إدخال نظام الإشارات الآلية، لم يكن ذلك كافيًا للتقليل من أعداد الرجال المدربين، لم يسترح أيضًا للوقوف فى الكشك الخرسانى الجديد المرتفع، المهيمن على الميدان كله، موقعه المفضل، الأثير عنده فى زحام الشارع، عند النواصى، فى قلب الميدان، عندما يضاء الأحمر يدرك ذلك تلقائيًا بدون تطلعه إلى مصابيح الإشارات، قبل تغير اللون إلى الأخضر يتراجع خطوتين رافعًا يده، مشهراً علامته، بينما الصفارة بين شفتيه، صفارة إنجليزية الصنع، متينة، يستخدم مثلها الكشافة الحاصلون على الشارة الخشبية، تتدلى منها سلسلة ذهبية الطلاء، طرفها مثبت فى حزام بنطلونه الجلدى، لا يعرف أحد متى حصل عليها؟ هل أهداها إليه المؤسس، أو أنه أحد الكونستبلات الإنجليز، أو أوصى أحد أصدقائه بشرائها من المتاجر المتخصصة فى بيع لوازم المرور بلندن؟ من الثابت أنه لم يسافر إلى الخارج قط.

صفارة مستطيلة، أسطوانية، عالية الترددات، عند ظهوره فى الصباح يتوقف طلبة المدارس الصغار للفرجة، أحيانًا يبتسم لهم، ويوزع عليهم خلوى «الفوندام» التى أدمنها منذ الثلاثينيات، وعندما اختفت الأنواع الممتازة منه آثر سياسة الانغلاق، كاد يجن، لكن المؤسس أمده بكميات صغيرة من فترة إلى أخرى، كان طعمها إذ يعبق به فمه، يعيد إليه الزمن الجميل المنقضى، يرد روحه التائهة للأسف . . بعد انتهاء الزمن الستينى، وبدء سياسة انفتاحية، موسعة، بعد ظهور الزبادى السويسرى بالفواكه، والجبن الكامامبير الفرنسى، وثمار الأناناس الآسيوية، قوى أمله فى

عودة «الفوندام» القديم، أعلن التليفزيون عن حلويات شتى، أشكال وألوان لكن . . ليس بينها «الفوندام»، مما ألحق به ضيقًا وكمداً وحنينًا إلى أيام زمان.

شب الصغار وكبروا، بعضهم لم ينسه، تفرقوا على مهن شتى، بعضهم أصبحوا نجومًا بارزين فى المجتمع فى الجيش، الخارجية، السلك القضائى، النقل البحرى والبرى، أحدهم يصر على إيقاف سيارته السوداء، المسدل على نوافذها ستائر قاتمة، يفارقها متجهًا إليه على قدميه، يصافحه مسببًا بتصرفه المفاجئ ارتباكًا مروريًا، ولحرسه الخاص الذى اعتاد الجلوس إلى جوار السائق وعربة الحراسة التابعة بركابها الأربعة المرتدين ملابس مدنية متشابهة، المحملقين إلى الآخرين بتحد وعدوانية، لا يخفون أسلحتهم سريعة الطلقات.

يستعد لإعلان أمرٍ جلل.

مرة قال إنه أدرك ضعف الدولة ومضيها إلى النازل منذ بدء ملاحظة هوان جندى المرور.

جملة عابرة سمعها الجواهرى بنفسه لكنه لم يربطها بأى دلالة، عطية بك هذا، قصير الخطى، بادى الشيخوخة، متمهل النطق، لم تنل السنوات من نشاطه عند وقوفه فى إشارات المرور والقيام بعمله التطوعى، لم يكل قط، بعد وقوفه عدة ساعات فى ذروة الزحمة كأنه بدأ للتو، لا شك أن أمتع اللحظات عنده أثناء تقدمه عبر الطريق مشيراً بيده، غير عابئ بالعربات التى يقبل بعضها بسرعة كبيرة ثم يسمع صرير الفرامل المفاجئة عند احتكاك العجلات بأسفلت الطريق بعد تجاوزها الخطوط البيضاء الفاصلة، حتى تلك العلامات لم يهملها، كان يشترى الطلاء

على نفقته ويخرج فى الليالى مرتديًا لباسًا خاصًا، يجدد اللون بحذق نادر.

عبر السنوات التى صاحب فيها رجال المرور وأدى مهامهم، بعد تعاقب عديد من النظم الإدارية والفنية عليه، تراكمت عنده خبرات، بدءاً من التلويح بالعصا القصيرة، حتى التعامل بالأجهزة اللاسلكية الصغيرة، المحمولة بالأيدى.

كان يظهر فى اللحظة الحرجة، خاصة أوقات الظهيرة، وليالى رمضان التى يشتد فيها الزحام بمنطقة الأزهر وفى الليالى الكبيرة للموالد العظمى، سيدى الرفاعى، والسيدة زينب، والإمام الشافعى، وسيدى البيومى، وقبل وبعد المباريات المهمة التى تقام فى الاستاد الكبير، بمدينة نصر، ويصاحبها زحام يتحسب له الخبراء، مع بلوغ الأزمة ذروتها يظهر صديق المرور، حضوره مهيب ونشاطه فوار، فعال، ينتقل من هنا إلى هناك، من ناحية إلى أخرى، لا تكف يده عن التلويح، مرة ممدودة ومرة منثنية، ومرة تتحرك فى تتابع منظم، متقن، تندر رؤيته الآن.

خلال ثوان . . يسيطر على الموقف، تنتهى الأزمة، يفضل بعض ضباط المرور الفرجة عليه من مسافة، إنه تاريخ بالنسبة لهم، قام بالواجب الأتم مع كل منهم، لم ينقطع عن زيارتهم، التردد على مكاتبهم. لا ليطلب حلولاً استثنائية، أو إعفاء من مخالفات متراكمة، أو إصدار رخصة بغض النظر عن الشروط والقواعد . .

لا . . لم يقدم على أى شىء من ذلك، مع أنه لو فعل للقى كل استجابة، كان يزورهم ليهنئ بالأعياد، بالمواسم، ويذكر مناسبات نسيها القوم، ولم يعد الإعلام يهتم بها، مثل عيد الجلاء الأول، والبدء فى بناء

السد العالى، والانتهاء منه، وعيد الجهاد الوطنى فى الثالث عشر من نوفمبر/ تشرين الثانى، يشرح أحيانًا المناسبة التى تغمض عليهم، لم يفته عزاء، أو تهنئة وإرسال الورود إلى المرضى منهم أو عند ترقية ضابط . إلى رتبة أعلى، أو زفاف أو مجيء مولود أو عند النقل من إدارة المرور إلى إدارة أخرى بالوزارة. ومن خلال علاقته الخاصة بالمؤسس أمكنه حل عدد من مشاكلهم، مثل إلحاق طفل بمدرسة لغات، أو التدخل لتعديل قرار بالنقل لا يتفق مع الوضع والمصلحة. من جهتهم كانوا يبدون له الود، ويحرصون على دعوته إلى مأدبة الإفطار الرمضانى بالمقر الرئيسى فى الدراسة، وجلوسه بالصدارة، كثيراً ما أفضى بخبرته الطويلة إلى من يطلبها منه، لم يبخل بجهد قط، وعندما أقدم عضو مجلس شعب مؤخراً على إهانة ضابط برتبة نقيب وحمله على مقدمة عربته، جند اتصالاته كافة، حمل بطاقة هذا إلى ذاك، واتصل بمسئولين كبار فى بيوتهم، وانتظر ساعات طويلة ليقابل بعض كتاب الأعمدة المشهورين، يرجع إليه الفضل فى تأليب الرأى العام، والتعاطف مع الضابط الشاب، كان الخبراء الكبار يلجأون إليه عند تعقُّد الحالة المرورية فيلبى، أثبت أنه أكثر كفاءة من طائرات الهليوكوبتر الحديثة التى تحوم فوق المدينة، عند حدوث ارتباك . . لكن . . لم ينتبه إنسان قط إلى أن خبرته تلك يمكن انقلابها إلى الضد . .

هذا ما جرى بالفعل .

ما السبب الذى جعله يقدم على هذا الفعل الخطير؟

استمر ملتزمًا الصمت بعد وصول ضابط قديم أحيل إلى التقاعد منذ سبع سنوات، يعرفه، أكل معه الخبز والملح، كانا من مريدى السيدة

نفيسة، فى صباح كل جمعة يذهبان معًا ويكنسان الضريح وساحة المسجد، أبدى الضابط المتقاعد تأثراً ورقة بالغة، طمأنه، وطلب منه أن يشرح له، أولاً: كيف اهتدى إلى هذا الموضع بالذات الذى يعتبر عقدة المرور فى القاهرة كلها؟ حتى أن وزير الدفاع طلب من الصحف عدم ذكره فى الصحف، أو حتى الإشارة إلى المكان الذى وقف فيه عطية بك لأنه يعد من أسرار الدولة العليا، فمنه يمكن شل الحركة فى الطرق الرئيسية والفرعية كافة، ولا يحتاج الأمر إلا خطوات سبع متناقضة.

ثانيًا: ما هى تلك المراحل التى أقدم على تنفيذها حتى أمكنه وقف حركة المرور فى المدينة خلال عشر دقائق، بحيث أصبح من المستحيل على أى سيارة أو مركبة أن تتقدم إلى أى اتجاه، كان المشهد عجيبًا بحق كما وصفه طيارو المروحيات من الجو، وهم ينقلون تفاصيل الموقف إلى غرفة العمليات الموجودة تحت الأرض على عمق كبير بمكان ما.

كان الهدف.. الوصول إلى الخطوات التى نفذها صديق المرور ومقارنتها بالمعروف منها عند القيادة وغرفة الطوارئ السيادية.

غير أن عطية بك تطلع بعينين فيهما قدر كبير من اللوم إلى صاحبه المتقاعد، مريد السيدة الطاهرة، مما دعاه إلى الانسحاب فوراً، والاعتذار لكبار المسئولين المنتظرين فى الخارج وبينهم مندوبو الأجهزة الأمنية الحساسة.

سيظل ماجرى له خلال الاستجواب غير معروف، إلى أن يكتب أحد القائمين به مذكراته أو اعترافاته، كما أن اللجنة المحلية لحقوق الإنسان ليس بوسعها الإحاطة بما يجرى فى الغرف المغلقة، المبطنة بعوازل الصوت.

الجواهرى يثق أن صاحبه القديم لم ينطق بكلمة، وأن آخر ألفاظه المسموعة تلك التى خاطب بها صديق النوبى الذى صحبوه من المقهى القريب من مسجد السلطان الحنفى بعد جهود مكثفة شاركت فيها المؤسسة، عندما وصل إلى حيث يقف عطية بك، تطلع كل منهما إلى الآخر، بدا تأثر على ملامحهما، تعانقا، ثم رفع عطية بك يده مشيراً إلى عم صديق بالكف، ألا يتكلم، قال: إنما أردت أنذر. . وأحذر. . ما بنيناه.

لم نقم بالسهل!

ثم استدار على الفور، وبعد سبع إشارات بالضبط من يده، صاحب كل منها حركة، وصدى، بدأت العجلات تدور، والحركة تتدفق، وعندما وصلت تقارير طيارى المروحيات إلى غرفة العمليات العليا بانتظام الحركة المرورية. صدر القرار العلوى باعتقاله.

فصــــــل

حقًا، ما أصدق عم جويلى أقدم السائقين المحال الآن إلى التقاعد، لم يكف يومًا عن ترديد مقولته التى أصبحت الآن شائعة، يرددها الكثيرون. . لكن خفية، فالجو غائم، وبداية الحقبة الجديدة مضطربة، لا يمكن تشبيهها بأى فترة سابقة، إن خوفًا غامضًا وحذرًا يسيطر على المقر الأصلى، والفروع التابعة، يهز البروفيسور قلقاسة رأسه أثناء الاجتماع، إذا سأله أحد الحاضرين، يسارع بالنطق حذرًا، مؤكدًا أنه ما من شىء، ما من أمر محدد، لكنه فى الحقيقة يستعيد ما ردده عم جويلى دائمًا، قوله إن كل شىء يمكن أن يحدث فى المؤسسة، وأى شىء يمكن ألا يحدث.

حقـًا. .

من تصور يومًا أن عطية بك، الرجل العاقل، المتزن، الذى لم تصدر عنه العيبة يومًا، الذى لم يخطئ فى حق إنسان قط، من أطلق إشاعات متقنة حمى بها المؤسسة ونفعها فى أوقات حرجة، من يصدق أنه قابع الآن فى الحبس، يواجه اتهامات عديدة، المعلن منها، تعمد تعطيل المرور، والإضرار بالمصلحة العامة، وتهديد الأمن العام، أما الاتهامات الخفية فعديدة، يعرف كل من عنده أدنى خبرة أن الجهود تبذل الآن لجمع

الأدلة والقرائن، أبسطها. . العمل لحساب جماعات إرهابية تهدد المجتمع لفترة ليست بقصيرة، طبعًا يمكنها القيام بعمليات خطيرة، مستغلة انسداد الطرقات، وعجز قوات التدخل السريع عن الوصول إلى الأماكن المستهدفة، طبعًا الاتهام بالجماعات المسلحة يمكن أن يمتد ليشمل جهات خارجية تكن العداء للوطن والدولة.

لا يعرف أى شخص المدى الذى يمكن أن تصل إليه الأمور، غير أن دهشة العاملين فى المؤسسة لم تكن خفية أو مستترة، عطية بك هو صديق المرور؟

كيف؟

لماذا أخفى هويته، لأى سبب؟

طبعًا. . كانت دهشة الجواهرى تتجاوز الجميع، فهو الألصق، لكنه لم يطلع على شيء من هذا، غير أنه كان منتبهًا إلى ما يخشى الجميع الخوض فيه، ما أقدم عليه عطية بك مرتبط تمامًا بمجيء رئيس قطاع الحواسب الآلية، بدخوله الطابق الثانى عشر، إنها رسالة أراد توجيهها إلى من يهمه الأمر، إنه إنذار يرفعه إلى الجميع، ومن يدرى. . ربما اتفق مع المؤسس على الإعداد للحظة كهذه!

من يدرى. . ماذا يخفيه الغد؟

لماذا لم يطلعه عطية بك على ما أخفاه؟ على دوافعه؟ على الأسباب التى جعلته يقدم على تصرف خطير كهذا؟ لماذا؟ الجواهرى حائر، لا يجد تفسيراً مقنعًا، ولا يمكنه تقديم الشرح لما جرى، فى المقهى سمع من يقول إن أصواتًا غامضة، تشبه الدبدبة، سمعت منذ منتصف الليل وحتى

صباح اليوم، منبعثة من الحفرة الدائرية، كل من مر قربها أفزعه ذلك، بل أكد بعضهم أن هذه الأصوات توالت مع إعلان قرار تعيين الرئيس الخامس، أو الرابع إذا استثنينا الضابط المتقاعد الذى دخل المكتب الدائرى عقب وقوع المحنة الكبرى.

لاحظ الجواهرى أيضًا وقوف الأبله أمام المدخل الرئيسى، ظهر أمامه بعد استقراره زمنًا عند الساحة الخلفية قرب الفتحة الدائرية. وعندما حاول حراس الأمن إبعاده، ومعظمهم شباب لا يعرفونه، جأر بصراخ مدو، وكشف عن عورته، أجبرهم على الابتعاد عنه، ويبدو أن مسئولاً ما نصحهم بتجنبه، يحار الجواهرى فى تلخيص ما يجرى فى جملة دالة، موجزة، ما يحدث يخرج عن طوعه، لا يقدر على لملمة أطرافه، لكن ثمة شىء خطير على وشك الوقوع، أو تلوح بوادره، لا يمكنه إدراكه أو تحديده، أو تعيينه بالضبط.

إنه حزين.. يتمنى لو يذرف دمعًا، يحسد النساء لقدرتهن السريعة على البكاء، على إبداء الحزن، لكنه مقبوض، معكوم من الداخل..

أستر يا كريم..

لأول مرة منذ قيام ذلك الصرح، لا تتم المراسم الأصلية، لا يتجه بصحبة عطية بك إلى المصعد العتيق، الذى لم يتسع إلا لهما، لا ينتظرهما عم صديق فى الطابق الثانى عشر، الرجل لم يظهر اليوم، لا يقف الرئيس الجديد عند حافة السجادة التبريزى، ما من فاتحة على روح المؤسس، ولا شرب قهوة فى فناجين تحمل شارات آخر القياصرة الروس..

أين عطية بك أين؟

الجواهرى نفسه تم تجاهله تمامًا، لم يرن جرس الهاتف فى مكتبه، لم تتصل به السكرتيرة لإعداد نفسه، حتى لو اتصلت به فأين صاحبه؟

كما يقولون فإن الشدائد لا تأتى فرادى، فى اليوم التالى، بعد اجتياز الجواهرى مدخل المقر الأصلى، اتجه كعادته إلى موقع الساعة الأوتوماتيكية، إنجليزية الصنع، التى يوقع فيها كبار العاملين وأصحاب المناصب المتوسطة، حتى رؤساء الأقسام الفرعية، هذا تقليد قديم بدأه المؤسس نفسه عندما كان يتجه فور دخوله ليوقع ثم يدير اليد المعدنية ذات الزخارف القوطية. لو أن الجواهرى لم يوقع فلن تحاسبه إدارة شئون العاملين، ليس لأنه احتل مواقع رفيعة، منيعة، ولكن لأنه محال على التقاعد، واستمراره نتيجة وصية المؤسس التى لم تعلن بنودها حتى اليوم، بخطواته المتمهلة، الوقورة، وانحناءته على الساعة، وتوقيعه الرصين، إنما يؤكد الأصول، ويحيى المراسم غير المدونة.

الأهم.. أنه يذكِّر الجميع بولى نعمتهم، السبب فى فتح بيوتهم وجريان أرزاقهم.

بعد إخراجه قلمه الحبر «الترويين» القديم، الذى يطمئن عليه مرات فى اليوم الواحد، وينظفه بالماء الدافىء أسبوعيًا، ويبذل جهداً حتى يعثر على زجاجات الحبر الأسود الآخذة فى الانقراض الآن بعد انتشار أقلام الحبر الجاف والفلوماستر.. لا يطيقها، لم ير المؤسس يستخدمها قط، وصباح أحد أيام الخمسينيات الجميلة أطال النظر بدون قصد إلى قلم أسود فوق المكتب، فوجىء بسيادته يتناوله، يقدمه إليه، أبدى شكراً

وامتنانًا واعتذاراً، لكنه قال بلهجة يعرفها جيداً كل من تعامل معه، «هذا لك». . منذ تلك اللحظة لم يفارقه القلم.

قبل إدارة الغطاء، فوجئ بمن يلمس ذراعه.

الأشمونى؟

يوشك على ملامسة ذراعه، لم يخطر بباله قط أى احتمال معكر أو مفاجئ، الأشمونى قصير القامة، نحيف، أشقر، مستطيل الوجه، ثعلبى الملامح، مهذب أكثر من اللازم، يعرف الجميع أنه لم يركب إلا الترام منذ أربعين سنة، حتى بعد تغيير الخط رقم ثلاثة وثلاثين من العباسية إلى إمبابة بالتروللى باص، رفض المواصلة الجديدة وآثر المشى مسافة حتى محطة ترام العجوزة رقم خمسة عشر. بعد بدء إزالة خطوط الترام زادت معاناته لكنه تحمل المسافات المتزايدة المضطر إلى قطعها مشيًا، نشرت أخباره فى بعض المجلات الأسبوعية، لكن الأنظار اتجهت إليه بعد مقابلة أجرتها معه القناة الثانية الفرنسية، بعدها التقى به رئيس المؤسسة الثالث، وأهداه آنية زجاجية، ومنحه إذنًا كتابيًا بالانضمام إلى جمعية محبى الترام والحفاظ عليه، كل أسبوع يمضى إجازته متنقلاً ما بين المطرية والسيدة زينب، آخر خط ترامى متبق حتى الآن، علل البعض حرصه هذا بعشقه الالتصاق بالنساء والاحتكاك بهن من خلال أوضاع متقنة لا تعرضه أبداً للحرج، وأنه يحقق نشوته بذلك، وهذا ما أعاقه عن الزواج.

الجواهرى لم يهتم به، سنوات طويلة لم يتبادلا خلالها إلا إيماءات عابرة، بشكل ما لم يرتح إليه، وكلما رآه تداعى إلى ذهنه كمسارى قصير

القامة، كان معروفًا فى ترام رقم تسعة عشر الذى يصل الأزهر بميدان العتبة، وكان يقترب متمهلاً من الركاب وكأنه سينقض عليهم فجأة، حتى أن بعض النساء كن يفزعن منه، ويصدرن أصواتًا فزعة لكن فى مويجاتها دلع وشهوة خفية، وإذا تصادف ركوب الشيخ الأجل، المهيب، العالم صالح الجعفرى، رحمه الله رحمة واسعة، يعلو صوته ناهراً، آمراً بالتزام الحشمة، وخفض الصوت، فيسود على الفور صمت.

دائمًا الأشمونى يذكره بهذا الكمسارى، لأول مرة ينتبه إليه، إلى ملامحه التى يراها عن قرب، إنه أقدم موظفى الاستعلامات أو كما تعرف فى الأوراق الرسمية والأوامر الإدارية بالمكتب الأمامى، دائمًا كان بمثابة معبر إلى الإدارات أو القطاعات المختلفة، يلتحق حملة المؤهلات المتوسطة، ثم يحصلون على شهادات جامعية، وأحيانًا درجات علمية رفيعة وهم فى موقعهم المتقدم هذا، وفى لحظة معينة يصدر المؤسس قراراً فينتقلون إلى الداخل، إلى مستويات أرفع، بعضهم الآن فى مراتب عليا، أو يقود منشآت أخرى مهمة، لم يمكث أحد فى هذا الموقع إلا الأشمونى حتى اعتبر علامة، وجزءاً من مدخل المقر.

حقًا.. كيف لم ينتبه إليه من قبل مع أنه من أقدم العاملين، العينان الضيقتان، والبصة المستهانة الشاردة، والشعر الأصفر الخفيف الذى لا يمكن معرفة ما إذا كانت الشقرة لونه الأصلى، أم صبغة متقنة.

«تفضل معى لحظة..».

هل استمر فى مكانه بسبب قدرته الفذة تلك على النطق، إمكانية

الجمع بين التهذيب العميق، والأمر الصارم، والقسوة الكامنة، واللطف البادى.

مقدرة.. حقًا مقدرة!

لفترة طويلة لن ينسى الجواهرى إيقاع الصوت، لا.. سيذكر اللحظة ما تبقى له من عمر، ألم تحدد النهاية؟ على الأقل من حيث المظهر، على مهل. بحزم أمسك الأشمونى ذراعه، قاده إلى اللوحة المخصصة للأوامر الإدارية والتعليمات الداخلية، وتلك غير اللوحة القريبة من المصعد التى يعلق عليها أخبار العاملين من وفاة وزواج والإعلان عن رحلات أو مكافآت فردية أو جماعية، أشار الأشمونى بأصبع مستقيمة، صارمة الإشارة، فيما بعد استعادها الجواهرى كثيراً، ولكم آلمه ذلك، هو من تنصح جدران المؤسسة بعرقه وجهده، هل تصوب نحوه مثل هذه الأصبع.

«من فضلك اقرأ..».

على الفور أدرك ما ينتظره، إنه موظف قديم، ومثل هذه الإجراءات ليست بعيدة عن توقعاته، حدث ذلك مرات فى العصر الملكى، والجمهورى والشمولى، لكنه لم يتصوَّر أن يوجه إليه ذلك، أن تحين اللحظة التى يوقفه فيها الأشمونى، هو نفسه الذى أدى الدور نفسه مع الآخرين. تلك لحظات سوف يذكرها العاملون، يعى توقف الحركة تقريبًا فى المدخل، والشرفة الدائرية المظلة، حراس الأمن، الموظفون الذين تصادف مرورهم، عليه أن يتماسك، أن يشد قامته، أن يرفع رأسه، كل تصرف يبدر منه الآن محسوب عليه، ليحذر. أما الألم

فأمامه وقت طويل بمفرده، هكذا تصرف المؤسس عندما اقتحمت قوة مدججة بيته وأحاطت به مع بداية المحنة الكبرى، لم يبد جزعًا، إنما وقف ثابتًا، مهيبًا حتى إن قائد القوة انحنى له وكف أفراده عن عبثهم بمحتويات المكتبة، لم تهتز منه أصبع وهو يعقد ربطة عنقه. . طبعًا ما أبعد الفارق، وما أشد اختلاف اللحظتين، ولكنه لم يتصور حدوث ذلك قط.

خلع النظارة الطبية على مهل، استبدلها بنظارة القراءة، بقدر الإمكان حرص ألا ينحنى بدرجة كبيرة، أن يُبقى ملامحه جامدة، ألا يدع سبيلاً لدقات قلبه المتهارعة، وما انفغر داخله من هوات لا قرار لها، التمويه. . الإخفاء ضرورى الآن فى مواجهة ما لم يدر بخلده يومًا، ما رد فعل المؤسس لو أنه عاش حتى اليوم الذى يسمع فيه مثل ذلك؟ أى تعابير تبدو على ملامحه، وأى الألفاظ سينطق. .

إلى المقهى، إلى ركنه الأثير، المهم ألا ترتجف الخطى، ألا يهن، لن يسمح بارتجافه يد تهز كوب اليانسون الساخن، كلهم يتطلعون إليه بصمت مدو، كأنهم يعرفون السطور القليلة جافة الألفاظ، حادة الصياغة، سطور أجهزت على عمر امتد، وضنى بُذل. .

لكم يفتقد عطية بك الآن، جلسته، سماحته، رد الله غربته وأنهى سجنه وفك ضيقه. لو ظهر أمامه لتطلع إليه صامتًا وذرف دمعًا عزيزًا، كل منهما يفهم الآخر بالصمت.

لحظة اجتيازه عتبة البيت خبطت امرأته صدرها بيدها:

«ما لك. . ما لك يا سيدى. . ».

أم البنات لم تخف جزعها ولهجتها النادبة، الراثية ما قبل الأوان،

كأنها أدركت بدء نهايته، أحاطت رأسه. قربته كطفل، عندئذ بدأ يبكى، ينهنه، يرتجف، تتوالى شهقاته، بينما تربت ظهره مهدئة..

كل العاملين مروا وتوقفوا أمام اللوحة، كثيرون بوغتوا، لم يعلقوا، إجراء مفاجئ وغير متوقع، خاصة أن الجواهرى أحد اثنين يقومان بمراسم خاصة عند تعيين رئيس جديد، هذا ما أوصى به المؤسس، صحيح أنه لا يوجد نص مكتوب، خاصة أن وصية سيادته لم تعلن كاملة حتى الآن.

بعض العاملين فى قطاع الحواسب الآلية تهامسوا، ضحكوا، غير أن القدامى غصت حلوق معظمهم عدا قلة، معظمهم من المسئولين عن الفروع المختلفة.

عندما تسلم البروفيسور صورة من القرار بادر باستدعاء سكرتيره وأمره بتصوير عدة نسخ وتعليقها فى أماكن بارزة من الكراج والأماكن التابعة له، لم يكتف بذلك إنما تعمد المرور أكثر من مرة فى الكراج والتوقف أمام كل من يتوقع صلته بأمن المقر، أو الطابق الثانى عشر، مؤكدًا أن القرار جاء فى موعده تمامًا، وأنه فاتحة عهد جديد، وهكذا تُدار الأمور حتى يتسع الطريق أمام الأجيال الصاعدة التى حان الوقت لتسلمها المسئولية فى المؤسسة.

بدأ البروفيسور مبالغًا فى تعليقاته، وعُد ذلك خفة منه، ورأى كثيرون ممن يعملون بالكراج أن تصرفاته تعكس ذعرًا خفيًا يحاول التمويه عليه، معظمهم أخفى ضيقه، للجواهرى منزلة خاصة عندهم، إن لم يساعد فهو لم يضر، لم يسع إلى إيذاء مخلوق، بالعكس.. تدخل لإنصاف كثيرين وشرح مواقف كانت تبدو صعبة، مستغلقة، لا.. لا يصح هذه المعاملة لمن أفنى عمره بالمؤسسة!

لم يجهر أحد بذلك، غير أن المشاعر صعب مداراتها، لفت الأنظار وجوه مدير قطاع البحوث، ومديرة الصادر والوارد، وكلاهما كان مرشحًا للطابق الثانى عشر، تردد اسمه، وهذا يجعلهما عرضة لأى تطورات مفاجئة، وأن ما واجهه الجواهرى يمكن أن يلقاه هذا أو ذاك.

فى الواحدة والربع أقدم البروفيسور على خطوة لم يفكر فيها أحد، أراد من خلالها أن يطمئن نفسه، إذ بدأ داخله خوف غامض، لم يعرفه من قبل، ربما لأنه فى المواجهة، ألم يكن أقوى المرشحين لدخول المكتب الدائرى؟

من الطبيعى أن يطاله إجراء ما خلال تلك البدايات المفاجئة، بل إن القرار الذى استهدف الجواهرى كان منطقيًا جدًا أن يحمل اسمه.

صحيح أنه لم يتجاوز السن القانونية، أمامه أحد عشر عامًا من الخدمة، لكن الإجراءات الضارة كثيرة، أقلها.. نقله إلى أحد فروع النشاط النائية بالصحراء الغربية أو الجنوب أو البحر الأحمر، أو إسناد مسئولية تبدو من ناحيةالشكل أكبر، لكنها فى الحقيقة أقل بكثير، وفى كل الأحوال سوف يصبح مضغة فى الأفواه.

كأنه يهرب من ذاته، يود لو بدل بشخص آخر، ملامحه مختلفة، حياته مغايرة، لا يدرى ما يحاك ضده الآن فى الطابق الثانى عشر، ولا سبيل عنده للاطلاع عليه.

أثناء حديث عبر الهاتف هفا لسانه بلفظ أصيب بعده بقلق، إذ قال «بليب» بدلاً من «بلاء»، على الفور أوضح لزميله القديم فى مدرسة خليل أغا الثانوية أنه لا يقصد، لم يذكر «البليب» من قريب أو بعيد،

الغريب أن محدثه سأله عن «البليب» . . ماذا يعنى به؟ ليس لديه فكرة . خشية البروفيسور من طرف ثالث يتنصت عليهما ، مجرد ظهور اللفظ فى قاموسه يعنى أنه يفكر بشكل ما فى إمكانية الحصول عليه مرة أخرى . . طبعًا . . يتمنى ذلك ، مازال يشعر بوجوده الملاصق لبطنه ، بل إنه قام فزعًا من نومه ظنًا بفقده «البليب» ، وعندما اكتشف أنه سلمه منذ فترة راح يغمغم :

«اللهم اجعله خيراً . . » .

يتمنى محو تلك الفترة القصيرة التى عاشها ممتلئًا بطموح الاستقرار فوق .

طموح؟

لقد دنا فعلاً . . اقترب . .

على أى حال ، منه إلى الله من تسبب فى ذلك ، سواء بإشعال جذوة الأمل عنده ، أو بوقف المساعى ، أما الآن فيجب أن يخفى كل ما له علاقة بتلك السويعات الآفلة ، وأن يعلن ولاءه بكل صورة ممكنة ، المهم . . توضيح موقفه ، من هنا أقدم على الاتصال بالسيدة انتشار سكرتيرته ، وأبلغها تأييده الكامل للقرار الذى أعلن اليوم . .

عندئذ استفسرت بتأن : أى قرار تعنى؟

أخفى اضطرابه وحيرته ، أى قرارات أخرى؟ هل هناك شيء يجهله؟ بسرعة قال إنه يود إبلاغ سيادته بتأييده لإنهاء خدمة الجواهرى ، وأن ذلك يفتح أبواب الأمل للشباب .

قالت بلهجة محايدة إنها ستبلغ رسالته تماما كما هى . .

قال إنه يمكن أن يكتب ذلك . .

قالت : كما تشاء . .

هل بدا صوتها ساخرا؟ هل رصد فيه ملامح غضب؟ بالتأكيد كانت هادئة جدا ، محايدة ، هل تعامل معها من قبل؟

لا . .

وكأنه يكتشف لأول مرة أن سيادته لم تخصص له سيارة من الكراج ، كان يستخدم عربة خاصة ، ألمانية الصنع ، يقودها بنفسه ، كيف غاب عنه ذلك؟

الحقيقة أنه لم يخطىء ، لم يرتكب مخالفة ، لم يهمل ، ذلك أنه لم يطلب ، البروفيسور يجهد ذاكرته فى استعادة ملامحه ، مثل كثيرين فى المؤسسة يتضح لهم شيئا فشيئا أنهم لم يلتقوا قط بالرئيس الجديد ، لم يتحدثوا إليه وجها لوجه ، بل إنه نادرا ما حضر الاحتفالات العامة ، أو المناسبات الخاصة بالعاملين ، كما أنه لم يشهد جنازة ، ولم يقدم تهنئة ، أو يرسل برقية إلى أحد . .

حقًا . . من هو؟ ما علاقاته؟ من أقرب الناس إليه؟

كيف عاش هذه السنوات كلها لا يشعر به أحد ، ولا يتعامل معه إلا عدد محدود جداً ، بل إن الاجتماعات التى حضرها مرغما لأهميتها القصوى ، لم يفتح خلالها شفتيه بكلمة ، ولم يبد حتى إيماءة .

لم يشاهد أيضا أى مسئول فى طريقه إلى الطابق الثانى عشر لتقديم

التهنئة ، أما باقات الزهور التى توالت على المقر فلم يتم رصها فى المدخل كما جرت العادة ، إنما تم إرسالها أولا بأول إلى جهة لا يعرفها إلا الأشمونى الذى كان يوقف العمال القادمين ، وينزع البطاقة التى تحمل اسم المهنئ ، ثم يلتفت إلى أحد مساعديه الأربعة فيتناول الباقة ، يحملها بعيدا .

قيل إن الزهور كلها ألقيت فى الحفرة الدائرية ، وحار البعض ، هل ثمة علاقة بما تردد عن سماع أصوات هدير غامضة تشبه تلك المصاحبة للهزات الأرضية العنيفة ، وأنها بدأت فى اللحظة نفسها التى أعلن فيها قرار تعيين سيادته على قمة المؤسسة .

المصير نفسه الذى انتهت إليه الزهور ، لاقته أيضا برقيات التهنئة الملونة التى وردت من جهات شتى داخل مصر ، ومن خارجها ، منشآت مصرفية ، وشركات تصديرية ، وأخرى استيرادية ، ومراكز إعلامية ، وجهات حكومية ، نجوم سينما ورياضة وورؤساء أندية رياضية واجتماعية وشركات طيران أجنبية ، وشخصيات دولية بارزة ، وأسماء مجهولة ، ولم ينقطع رنين جميع أجهزة الهاتف فى مركز الاتصالات الخاص بالمؤسسة ، ولم تكف أجهزة الفاكس عن تلقى رسائل التهنئة من القطر والبلاد الشقيقة والصديقة ، تلك البرقيات كافة حُملت إلى الأشمونى الذى وضعها فى أكياس من البلاستيك ثم أرسلها خارج المقر كله .

صباح اليوم التالى أقدم البروفيسور على الاتصال بالطابق الثانى عشر للمرة الثانية ، عندما أصغى إلى انتشار القليوبى خيّل إليه أن صوتها . . استفسر مبديا اللهفة .

«مالك؟ كفى الله الشر . . ».

قالت بهدوء إنها متعبة قليلا .

«كان الله فى العون . . المهام ثقيلة وعديدة . . ».

تنهدت متثاقلة، هنا نفذت نبراتها إلى سلسلة ظهره مباشرة، اقشعر جلده، كأنه تمدد مستلقيا فى وقوفه، حاول لملمة نفسه، ألا يبدو فى صوته ما يجرى داخله.

قال إنه يتمنى لها توفيقا دائما، يرجوها إبلاغ سيادته تحياته، إنه ينتظر التعليمات لإعداد السيارات المناسبة التى يحتاجها سعادته، إنه جاهز من اللحظة. لكنه فى انتظار التعليمات، كما توجد عربة أخرى مخصصة لسيادتها . .

«أنا؟»

ياه . . صوت بضّ، يتلوى، يركز حرارة الرغبة فى مويجات تلهب الفراغ المؤدى إلى داخله، أى متعة هذه؟ إنّ دواراً يدركه. كيف لم ينتبه من قبل . .

«ط . . طبعا . . عربة مزوّدة بهاتف . . »

ضحكت، ضحكة متقطعة، متموجة، ليست صادرة من مكتب وإنما من صميم مخدع، كأنها لحيظات الملاطفة الأولى، قبيل التوالج الأتم، أو . . بعده، كأنها تعى ما تفعله به، ما يجرى عنده.

تهمس فيما لا يستقيم فيه ذلك النبر المؤجج برخامته، وتمهله ونفوذه الأنثوى الفواح، إنها تشكر له اهتمامه، لكنها تفضل استخدام عربتها

المزودة بجهاز هاتف متصل بالدائرة الدولية، أما بخصوص سيادته فليس لديها أى تعليمات الآن، إنها مشغولة فى مصائب الجواهرى.

ينتبه من نشوته الأخّاذة، إنها توحى إليه أمرًا، ينتبه. . إن إيقاع صوتها يتغير، يفارق الحالة الحذرة، كأنها تشكو إلى إحدى صديقاتها. .

«هل تتصور كم كان يكلفه علاجه سنويا؟ أكثر من مائة وخمسين ألف جنيه. . تصور. . أكثر من مائة وخمسين ألف جنيه. . لماذا تتحمل الميزانية مبلغا كهذا لرجل، لم يعد فى الخدمة. .».

بدا صوته غاضبا، مستفزا وهو يردد:

«غير معقول. . هذا تخريب. .»

بعد انتهاء المكالمة، رغم خدره الجثمانى، وذلك الحذر الغريب الذى أحدثه صوتها داخله، إلاّ أنه تلقى الرسالة وأدرك الإشارة، كل من تردد عليه، أو التقى به، أو اتصل به عبر الهاتف سمع منه فى عبارات متشابهة تقريبا، دهشته واستنكاره لتكاليف علاج الجواهرى المحال إلى التقاعد، وشغله حجرة فسيحة مزوّدة بأحدث أجهزة الاتصالات، أما البدلات التى يتقاضاها فتقفز بمرتبه إلى مستوى لم تعرفه المؤسسات من قبل.

هل هذا معقول؟

هكذا يُنهى البروفيسور كلماته، ثم يسكت على الفور، أو ينصرف مبتعدا، ثمة مهمة ما عليه أن ينفذها، وهذه فرصته ليثبت أنه أخلص العاملين، وأنه نسى تماما أمر ترشيحه، ولم يعد لديه أى أثر لضيق، أوعثرة فى النفس، يجب أن يُبدل مظهره وملامحه طبقا لما يرغبه سيد

الطابق الثانى عشر وليس كما يريد، يكفيه خوفه من لحظة كتلك التى واجهها الجواهرى، يقولون إن الرجل حاول التماسك، ولكن فكه تدلى ولم يعد إلى مكانه، وأنه حافظ على تماسكه عند خروجه من المقر، ولكنه يبكي كالنساء، يبدو أن بعض قدامي العاملين زاروه سراً، وأنه كان متأثرا جدا من صيغة القرار، لصالح العمل!

تُنهى العلاقة القائمة . .

كان يشير إلى نفسه، يلمس صدره بطرف أصبعه.

«طردى أنا لصالح العمل . . طردى أنا؟».

عندما يتأكد البروفيسور أنه بمفرده في البيت، أنه بعيد تماما عن كل مخلوق، حتى زوجته، عندئذٍ يرفع يديه ضارعا، مبتهلا أن تمر هذه الأيام على خير!

غير أن كل يوم حمل إلى العاملين جديدا، مثيرا، إذ تمّ تعليق أمر داخلى جديد فى اليوم التالى مباشرة لإنهاء عمل الجواهرى، لكنه لم يوضع فقط فى لوحة المدخل المجاورة للأشمونى، إنما فى مصاعد المبانى المختلفة، وفى الاستراحات المخصصة لشرب الشاى والقهوة، وكان الرئيس الثالث أصدر قرارا حازما بمنع تقديم المشروبات الساخنة أو الباردة فى المكاتب، وخصص أمكنة فى الطابق السادس من كل مبنى.

علّق الأمر أيضا فى الممرات الطويلة المنحنية داخل المقر الأصلى، وعند بدايات الدرجات المؤدية إلى أعلى، كما وجده رؤساء القطاعات فوق مكاتبهم.

أصدر سيادته قرارا بإنهائه التعاقد المبرم بين المؤسسة وفرقة معهد الموسيقى الشرقية، والذى يقضى بعزف بشرف سماعى رصد لمحمد القصبجى وإنشاد الموشح الأندلسى:

جـادك الغيث إذا الغيث همى

يا زمـان الوصـل بالأندلس

مساء كل خميس عند قبر المؤسس تنفيذاً لوصيته. إلاّ أن القرار تضمن غير ذلك فى الشرح المطول الملحق به، وتلك سمة جديدة لم تعهد من قبل، إذ جرت العادة على الصيغ المقتضبة المركزة، بحيث لا يتضمن أى قرار تفاصيل عديدة، أوشرحًا، غير أن الأوامر والتعليمات الصادرة من الطابق الثانى عشر اتخذت شكلا مختلفا منذ استقرار سيادته، فهو يوجه خطابه مباشرة إلى العاملين، بصيغ شبه شخصية، بحيث يشعر كل منهم أنه المعنى بهذا الخطاب، لا يشير إلى أرقام قرارات سابقة أو مواد قانونية أو لوائح متبعة، إنما يذكر مادتين فقط. الأولى تحوى القرار المتخذ، والثانية تتضمن شرحا مفصلا، قيل إنه يكتبه بنفسه على حاسب آلى متطور جدا أقل حجما من علبة السجائر، لكنه يحوى إمكانات لا حصر لها، منها الاتصال بأى مكان فى الكوكب، وتوجيه الحديث من خلال أجهزة الاستماع العادية، والتليفزيونات، والهواتف، وأحيانا الدخول فى الدوائر الكهربائية، عندئذ يسمع الصوت فى كل مكان ولكن بدون تحديد المصدر، وعندما جرى ذلك بعد توزيع الأرباح المكثفة حدث ذعر فى المؤسسة، ولكن اعتاد العاملون ذلك وأصبح مصدرا لفخر الكثيرين منهم، غير أن الخوض فى تلك التفاصيل أمر سابق لأوانه.

تضمن البند الثانى من الأمر الجديد تشكيكا فى نسبة الرغبة إلى المؤسس، ذلك أن الوصية ما تزال سرا حتى الآن، فكيف يمكن الاستناد إلى نصوص لم تعلن، واتخاذ إجراءات يترتب عليها تشويه الوجه المؤسسى الذى يجب أن يحرص الجميع على إبقائه نظيفا، متوهجا، خاليا من كل سوء. لقد قام معهد الموسيقى بأداء التزاماته بالفعل فى العامين التاليين لتوقيع الاتفاق، وبالفعل كانت الفرقة المكونة من اثنى عشر عازفا تصطف عند القبر بالزى الكامل، وتعزف البشرف والموشح، حتى إن بعض سكان القبور اعتادوا القدوم، والإصغاء، ثم التصفيق وتلقى بعض الصدقات التى كان يوزعها المقربون والمحبون ومجهولون أحسن إليهم المؤسس ولم يعلن عن هوياتهم، ثم الإهمال يسرى إلى الفرقة، فلم يجتمع أفرادها طوال العام الثالث إلا مرة واحدة، ثم بدأ تغيُّبُ معظمهم حتى أن بعض الأسابيع حضر اثنان منهم فقط، ويبدو أن المعهد أوكل الأمر إلى بعض الموسيقيين الفقراء من رواد مقهى التجارة بشارع محمد على بعد انشغال فرقته فى العمل مع المطربين الشبان الجدد، والذين استخدموا تقنيات حديثة لا تستدعى حضور الأعضاء كلهم معا، هكذا أصبح الأمر مثيرا للسخرية، بل إن بعض سكان المقابر صاروا يقابلون العازفين بالسخرية والصياح، وخاصة أنهم لا يرون من ورائهم لا أبيض ولا أسود.

هل يليق ذلك بسيرة المؤسس؟

هل يتناسب ذلك مع الحضور المهيب الذى تشكله وتكونه تلك المنشآت الجبارة التى تضع البلاد كلها فى عصر مغاير؟

هل يعرف العاملون تكلفة هذا البشرف وذلك الموشح؟

لكل تلك الأسباب مجتمعه تقرر إنهاء هذا الوضع بكل ما يترتب عليه من التزامات.

لا يبالغ البعض عند تأكيدهم أن ما لحق الجواهرى عند سماعه ذلك يفوق ما حلّ به لحظة اطلاعه على قرار إنهاء مدته لمصلحة العمل.. لمصلحة العمل؟

قال الجواهرى لا مرأته بعينين منتفختين من غزارة الدمع، وبقلب موجوع على عمر مضى، وزمن آت لا يعلم ماذا يمكن أن يحدث فيه لبناته بعد تيتّمهن؟ قال إنه يجب أن يعد نفسه لما هو أدهى وأمرّ، وأن ما سوف يسمعه غدا أشد فظاعة مما يجرى اليوم، هذا ما لم يتوقعه قط، لكنها مشيئة الله. لقد كان على وشك الوصول إلى انتزاع قرار من وزارة الأوقاف باعتبار ذكرى المؤسس مولدا يحتفى به سنويا فى يوم معلوم..

ليس صحيحا أن الناس يسخرون من عزف البشرف وغناء الموشح، بالعكس.. فى البداية كانوا يتجمعون ويصغون صامتين مستمتعين، وفى الأيام القليلة التى تغيّب فيها بعض العازفين أو المنشدين، قام السكان والزوار المجهولون بالحلول أماكنهم، هكذا اكتسبت المقطوعتان معانى ودلالات مغايرة دفعت أساتذة كلية الفنون إلى التردد أكثر من مرة وتسجيل الأمسيات كلها. كما اهتم بعض الأجانب المقيمين، وبعضهم يجرى دراسات أنثروبولجية.

لا.. ليس صحيحا أبدا ما يتردد علنا الآن، أما ما يقال عن الوصية فغير دقيق، إن البند الوحيد المؤكد، المعلن، هو الخاص بهذا الأداء الموسيقى، فى فترة سابقة سعى البعض لإلغاء الفرقة واستبدالها بمسجل وشريط عليه المقطوعتان، غير أن الجواهرى قاوم ذلك، وأصرّ بمساندة

من عطية بك ـ فك الله سجنه ـ على احترام رغبة سيادته، وبالفعل . . تمكنا من ذلك، إلى أن جاء واحد من أبناء المؤسسة، الذين أعطاهم سيادته الفرصة، ودفعهم إلى الأمام، ويبدأ يهدم الأسس ويقوّض المقدسات. كان عطية بك على حق عندما أعلن احتجاجه المدوى بطريقته الخاصة، ويبدوأنه على علم بما لم يصرح به من قبل.

الجواهرى مقهور، وشائعات عديدة بدأت تتردد عن صحته، لكنه رغم كل شىء، رغم المساس بالثوابت العليا، فهو يعتبر وقفته ضد البروفيسور صحيحة، وأنه أنقذ المؤسسة من كوارث أعمّ وأشمل، ثم إن ما بذله لم يتبدد عبثًا، يعرف معنى اتصال عدد من العاملين به، وما ينطوى عليه ذلك من تحد للرئيس الجديد القابع فى الطابق الثانى عشر منذ صدور قرار تعيينه، وعندما أصغى إلى رشيدة النمساوية تتحدث من مكان ما فى العالم، قال متأثرا:

«يا أصيلة يا بنت الأصول . . ».

قالت إنها ترجوه ألا يغضب، وألا يدع للمرارة سبيلا إلى نفسه إنه أكبر من أي إجراءات، وجهده وروحه مبثوثان فى كل موضع، حتى المنشآت الجديدة تحمل آثارا منه . . أما عن علاجه أو احتياجاته فلا يفكر فى هذا كله أبدا . .

تحشرج صوته، وتذكر بعض من تقدموا فى العمر وكيف يتصرفون كأطفال صغار فى مواجهة أبنائهم، لو أن رشيدة أمامه الآن لبكى، لكنها مجرد صوت، غير أنه حمل إليه الونسة والألفة وبث عنده طمأنينة، لم يقل لها إن ما تردد عن تكاليف علاجه كذب وافتراء، وثائق الإدارة الطبية موجودة، يمكنها أن تسأل، ما يزعجه لهجة الحديث، والمعنى الكامن،

أى إنسان بذل جهدا وقدم عمره من أجل المؤسسة يُلفظ مثل الكلب الأجرب، لا يحق له العلاج على نفقة الإدارة، وهذا ما يعنيه الإجراء، والتشنيع، وهذا ما انتبه إليه أولئك الذين لم يتبق أمامهم إلا سنوات خدمة قليلة.

رشيدة أجدع من مائة رجل، مثل ابنته، يلوم نفسه لأنه اشتهاها يوما، خاصة بعد رحيلها وبدء هذيان عفت الشبراوى، بعد أن سمع أوصافها وقدراتها، كان الشبراوى المجنون يفيض فى وصف حنانها، وإقبالها على الرجل، كانت تدرك بالنظر طبيعة من يواجهها وماذا يرضيه، فتلبى وتغدق بعد أن ترضى وتقرر، جسد نحيف لكنه ممتلئ، فياض، معطاء، قادر على الهدهدة، إذا ما بدأت الاحتواء تقبض فلا تفلت، يداعب داخلها الآتى، القادم، يمس برهافة ولين، أو يلف الخناق، وأحيانا يبدو كأصابع عازف الناى الماهر، إذ تنتقل من أعلى إلى أسفل، أو العكس فتخرج النغمات نشوى، راضية مرضية.

لن ينسى يوم وقوفه فى وسط المقهى. وصفه الدقيق، البطىء، لخروجها كما ولدتها أمها، تطلعها إليه بعد بلل جسده إثر انتهاء حمامه، دنوها، تجفيفها له بطرف لسانها..

أنثى كهذه.. أيطيق فراقها؟

لعن الله صاحبه الأدبجى، من أغواها ودفع بكنوزها إلى أوروبا، إلى البعد، كل من دنا، كل من عرف أتونها، قبضها وبسطها، لا يمكنه النأى أو الفكاك، وإذا أدارت له ظهرها سعى إثرها إلى أبد أبيد.

لا بد أن هذا الطبيب الثرى الأجنبى، ذهل عن نفسه عندما عاين تكوينها الفريد، صار إليها، وسكن.

يبتسم الجواهرى، لأول مرة تنفرج ملامحه منذ وقوع الغمة، لم يغب ذلك عن امرأته المتأهبة لتلقى أى إشارة منه، حمدت الله وكتمت فرحها خشية أن تحسده إذا أعلنت وفسرت، بينما كان يحاول تخيل رشيدة عارية متسائلا: أى أنثى هذه؟ لم يسمع عن شبيهة لها، وما حكاه الشبراوى المجنون يعنى أنه لم يعرف جنس النساء، وأنه لم يتبق له الآن إلا التخيل أو التمنى. .

صباح اليوم التالى ظهر الجواهرى فى المقهى، لم يتجه إلى ركنه المعتاد، إنما اختار منضدة صغيرة تحت مرآة مستطيلة، موقعها يمكنه من رؤية مدخل المقر الأصلى عبر الطريق. جلس بمفرده متطلعا إلى الناحية الأخرى، مبتدئا طورا جديدا. .

الآن. . يبدو كل من ينتمى إلى المؤسسة وكأن عينيه فى وسط رأسه!

لا يعرف أحد ما يجرى أو ماذا سيقع غدا أو بعد ساعة، كل لحظة ربما تحمل مفاجأة، أو حدثا غير متوقع. أو تغير حال هذا أو ذاك.

ماذا يجرى فوق؟

الكل يتطلع إلى الطابق الثانى عشر خفية أو علانية، حتى هذه اللحظة لم يُبلغ الأشمونى بأسماء زائرين حتى يمكنه مقابلتهم كما ينبغى وتكليف بعض رجال الأمن بمصاحبتهم حتى المصعد الخاص، لكن الأغرب، ما لم يصدقه البعض فى البداية أن العاملين فى المكتب الأمامى، ونقاط الأمن المتقدمة لم يلمحوا سيادته، لم يروه داخلا أو خارجا منذ صدور القرار العلوى، حتى سكرتيرته انتشار القليوبى توارت. .

قال بعضهم إن آخر مرة شوهد فيها خلال ذروة الإشاعات القائلة

بتعيين البروفيسور رئيسا للمؤسسة، شوهد يجتاز المدخل متجهما، بينما أكد الحراس الخصوصيون أنه بدا باسما سعيدا. لكن الجميع بمن فيهم عامل المصعد الخلفى المؤدى مباشرة إلى أعلى أجمعوا على بقائه فى الطابق الرئاسى، لم يغادره، إنه مقيم لتدبير الأمور واستيعاب الأوضاع، والإحاطة بتخصصاته وتقويم الأشخاص الذين ستسند إليهم المهام الأساسية. علمتهم التجربة أن كل قادم جديد يختار الأقرب. من يرتاح إليه ويثق به، المحير هذه المرة أنه لم يعرف عن سيادته حبه أو كرهه لهذا أو ذاك. غير أن التجربة تقول أيضا إنه لن يمضى وقت طويل حتى يظهر للجميع شخص معيَّن - أو أكثر - يدرك الجميع أنه المقصود.

غير أن عدم ظهور المهنئين وتوقف الزوار، وصدور القرارات التى لم يعتدها الجميع، خاصة فى الفترة الأولى، واتصالات السكرتيرة الحسناء برؤساء القطاعات، هذه الأسباب كافة جعلت التوجس والحذر والرهبة عوامل تخيم على الجميع.

استعاد الكثيرون ما تردد طويلاً عن تركيب الطابق الرئاسى، وتصميمه الفريد، وغرفه السرية التى حيَّرت رجال الأجهزة الأمنية، خاصة أولئك الذين اقتحموه عقب بدء المحنة الكبرى للمؤسس، وإقامتهم به أربعة أسابيع متصلة ليلاً ونهاراً، يجسون الجدران، والزوايا، والأبواب، وما وراء اللوحات المعلقة، يفتشون ثنايا الوبر الكثيف للسجاد النادر القديم، خاصة الطراز الصينى منه، بارز الزخارف، ثم فحصهم تصميمات المبنى وتشكيل لجنة مشتركة من أساتذة كليات الهندسة القاهرية والإقليمية، وبعض كبار الفنانين، انتهوا جميعًا إلى أن ما خط على الورق شىء وما قام فى الواقع شىء مختلف تمامًا، هذا

ما أكده الجواهرى بعد انتهاء المحنة الكبرى، وقال أيضًا إن جميع الخبراء أعجبوا بفرادة المبنى، خاصة أساساته التى لا مثيل لها فى بر مصر إلا أساسات الأهرام التى ما تزال تقديرية، لم يحسم العلماء أمرها بعد.

ما يتعلق بالطوابق التحتية لا يعد من أسرار المؤسسة، بل من الأمور التى تتعلق بأمن البلاد، والتى لم يحن الوقت المناسب بعد لإفشاء تفاصيلها، تلك أحوال لم يقترب منها أحد، ولم يحاول إنسان الخوض فيها، يشعر الجميع بوجودها، بمثولها فى حيز ما، فى زمن معين، لكنهم لا يخوضون فيها، يجرى التلميح إليها بمناسبة ما يجرى وما يمكن وقوعه خاصة زمن التحولات الأساسية، أما الطابق الثانى عشر فيظل محور الأفكار وهدف الأنظار باستمرار.

زمن المؤسس كان متاحًا الصعود إليه لكل شخص ينتمى إلى المؤسسة، حتى طلاب الحاجات وأرباب المصالح الذين سعوا إلى مقابلة سيادته. بالنسبة للعاملين كان المطلوب فقط الاستئذان من عم صديق، كان الطلوع مسموحًا به عبر السلالم والمصاعد الرئيسية باستثناء الخلفى. علل الجواهرى ذلك بقدمه وضيق مساحته وفرادة طرازه، حتى أن الشركة الفرنسية المنتجة له عرضت شراءه مقابل مبلغ ضخم، لكن سيادته -رحمه الله- رفض بشدة، وأوصى ببقاء هذه التقنيات، يكفى أن يتردد وجودها فى المقر، إلى جانب قيمتها التاريخية والفنية، ومثل هذا كثير.

غير أن قلقًا عم بعد ظهور عربات ضخمة، تجر كل منها مقطورة مصمتة، مغلقة، لا تفصح عن محتوياتها، يقودها عمال ملامحهم آسيوية، قيل إنهم يتبعون شركة مقاولات كورية، لكن غير معروف، شمالية أو جنوبية، وتردد أنها الشركة نفسها التى شيدت المبنى الشاهق

فى صحن مقر السفارة الأمريكية بجاردن سيتى، واكتمل فى سرعة قياسية أقل من الوقت الذى يستغرقه جفاف الخرسانة مما دعا بعض كتاب الصحف اليمينية إلى التهكم على شركات التشييد الوطنية وضربوا مثلاً بإصلاح مطلع كوبرى أكتوبر جهة المتحف المصرى والذى أغلق عدة شهور بحجة الخلخلة الشديدة التى لحقت دعائمه نتيجة تبول المواطنين وتفاعل النشادر القوى مع المكونات الخرسانية.

ليس الجواهرى وحده الذى أبدى انزعاجًا، إنما قدامى العاملين، وبعض الشباب المتحمس، إنها المرّة الأولى التى تمتد فيها أيد أجنبية إلى المبنى العتيق، إن ذلك لا يؤثر على المؤسسة فقط باعتبارها من بيوت الخبرة المتينة، وحجم أعمالها فى البلاد العربية مشهود به، لكن سيلحق الأثر السلبى بقطاع التشييد الوطنى كله، هذا القطاع الذى شيد السد العالى، والمصانع العظمى، لكن. نقل عن عبده النمرسى فى إشارة لا تخفى توحى أنه سيصبح من المقربين قوله بأن الزمن تغير، وأن كلمة أجنبى لم تعد تخيف، ما يهم حساب التكاليف، ومقدار الأرباح والخسائر. هذا كلام جديد لم ينطق به عبده النمرسى من قبل، لم يكن يجرؤ على التفوه به لولا تلقيه إشارة علوية.

فى اليوم التالى فوجئ العاملون بستائر ضخمة تغطى المبنى كله، تحيطه لمنع تساقط أى أحجار أو شظايا بعيداً، أما الطابق الرئاسى فاختفى تمامًا تحت سقالات ومواسير معدنية. عند الظهر تم رفع صناديق ضخمة ولفافات ومعدات بواسطة ونش ضخم.

إعادة صياغة الطابق الثانى عشر.

هذا ما تناقله الجميع، يعرف المعمرون منهم ضرورة قيام الرئيس

الجديد بتغييرات ما، لكنها ظلت محدودة، لا تنال الجوهر، أما تبديل طابق بأكمله . . وأى طابق؟ فهذا يجرى لأول مرة.

هل يتم العمل أثناء وجود سيادته؟

لا يعلم أحد على وجه الدقة، شواهد عدة تؤكد أنه باق، مستقر فوق، سكرتيرته لم تتوقف عن الاتصال ليلاً ونهاراً، كأنها لا تعرف النوم أبداً. كثير من تعليماتها كانت مثيرة للصدمات والقلاقل، الوحيد الذى كان يتطلع إلى الهاتف بصبوة ورغبة دونها حجب شتى هو البروفيسور الذى بدأ يعرف متعة لم يعهدها من قبل، حتى إنه لم يعد يقرب امرأته مدخراً قواه وطاقته للحظات انسكاب نبرات الصوت اللدن المتراخى فى سمعه، ما يشغله عند بدء الاتصال كيفية إطالة الحوار. اختلاف موضوعات وطرح استفسارات، حتى يستمر ترديدها لآهات إجاباتها المضمومة، المدثرة.

«آه» «آه» «أم».

يخشى أن يبدر منه ما يمكن أن ينم عن وضعه المستغرق «المنتشى» وهذه لذة مستحدثة عنده. غير أن هذا الصوت نفسه كان يثير الخشية والحيرة عند آخرين، خاصة هانم الدمياطية مديرة الصادر والوارد، والمهندس راسم الدمنهورى مدير قطاع البحوث، والمهندس رسمى الأبوتيجى، وآخرين كثر، جميعهم لم يعتادوا هذه المكالمات المتوالية، خاصة أثناء الليل.

أشدهم حذراً الآن المهندس راسم الذى بدا فى مرحلة معينة قاب قوسين أو أدنى من الاستقرار فى الطابق الثانى عشر، بعد تردد الأقاويل

عن نشاط شقيقه صاحب معرض السيارات الحديثة وتكثيف جهوده مع ضيوف قعدته الليلية، تضم اثنين من المقربين للقيادة السياسية، غير أن راسم لم يكن مرجوفًا خفيفًا مثل البروفيسور الذى أثار سخرية المحيطين به وصغار العاملين تحت رئاسته بما صدر عنه من أقوال وإرسال برقيات وتأكيد للولاء بمناسبة وبدونها.

راسم الدمنهورى أرسخ، أمتن حضوراً، ملامحه لا تعكس ما يدور داخله، معروف بعده عن الدسائس والوشايات، تستغرقه تفاصيل العمل، عينه دائمًا على التصميمات وخبايا المشروعات، وتحقيق أقصى قدر من الأرباح للمؤسسة، لا يفوته فرض، وإذا حان موعد الصلاة أثناء اجتماع يفارق مقعده ويفرد سجادته التى يحتفظ بها معه دائمًا، إذا فارق مكتبه فإنه يمضى لتفقد مشروع جار تنفيذه أو للاطمئنان على اتفاق يتم. لم يعرف عنه مطاردته لأنثى أو إيثاره إحدى العاملات دون أخرى. مرة قال عنه عبده النمرسى إنه يعلم عنه تفاصيل لو أذاعها لغيرت الصورة المتناقلة عنه، لكن.. لا داعى، إنه مثل الخباز الماهر.. لا يأكل ولا يسرق من فرن يعمل فيه.

يحيط بحياته الخاصة غموض، ولكن المؤكد أنه تزوج بعد الخامسة والثلاثين، وأنه أمضى عدة سنوات بدون إنجاب، طاف خلالها مع زوجته على أطباء مختلفين، وزار مقامات الأولياء والصالحين، ونذر للسيدة نفيسة نذراً كبيراً. أوفى به بعد وصول ابنه الوحيد، والذى جاء بعد صبر طويل، وعملية جراحية كبرى أجريت لامرأته، حاول البعض مناقشة الأوضاع الجديدة معه، لكنه لم يستجب. كان يتطلع هادئًا ثم يقول:

«قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا . . » .

أو :

«وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون . . » .

لم يبد أي رد فعل واضح ، لكنه بدا أكثر جدية من قبل ، وصار يمكث فى مكتبه وقتًا أطول ، أما ما تردد عن تمزيقه أوراقًا عديدة بعد إغلاق بابه جيداً لمدة خمس ساعات ، أو تخطيطه للاستقالة فلم يتأكد .

الحقيقة أن الإشاعات طالت الكثيرين ، وتوالى ترددها ، خاصة مع بدء الغموض الذى أحاط بما يجرى فى الطابق الرئاسى ، ودفع ذلك بعض أجهزة الدولة إلى الاهتمام .

فى اليوم التالى لإنهاء خدمة الجواهرى ، فوجئ رؤساء القطاعات المركزية ، وأعضاء المجلس الدائم بصور نصية لخطاب موجه من سيادته ، إلى الجواهرى ، يطالبه بالكف عن التحرك المريب الذى بدأ القيام به ضد المؤسسة ، ويعد التحذير الذى صيغ بعبارات قاسية ، يذكر وقائع المفروض أنها جرت خلال السنوات الماضية ولم يردعه أحد بعدها ، ومازال بعض آثارها السلبية سارية ولا يعلم أحد إلا الله كيف يمكن معالجة ما ترتب عليها .

وقف البروفيسور وسط الكراج ، صاح معلنًا أن ما ظنه القوم لسنوات طويلة موسى طلع فرعون . وحذر من أى اتصال بالجواهرى الذى يجلس الآن فى مقهى رشيدة .

غير أن ما جهر به البروفيسور قرأه المسئولون فى خطاب تال وتم توزيعه على نطاق أوسع ، شمل رؤساء الأقسام ، جاء فيه أن عطية بك

والجواهرى أصبحا يمثلان خطراً على الكيان المؤسسى، وأن تصرفاتهما طوال سنوات عديدة لم تواجه بما يجب وأنهما دأبا على إرجاع أمور غير موثوق بها، مشكوك فيها إلى بعض من يكن له الجميع محبة خاصة.

هكذا.. تمت الإشارة بصيغة المجهول إلى المؤسس فى أول سابقة من نوعها، ليت الأمر توقف عند ذلك، بل تم رفع اللوحات التى تحمل عبارات منسوبة إليه كتبها مشاهير الخطاطين.

أحدث ذلك صدمة، خاصة بعد أن عرف الجميع كيفية إزالة اللوحات، بعد منتصف الليل ظهرت مجموعة من العمال الكوريين عند المكتب الأمامى، يرتدون خوذات بيضاء معدنية تشبه المستخدمة بين رجال المناجم. عدا أحدهم، كانت خوذته صفراء، بعد أن أبرز أمراً موقعًا من انتشار القليوبى - التى منحت صلاحيات إضافية - تقدموا إلى جميع الحجرات بمختلف الطوابق، وبمفتاح واحد تم إيلاجه فى الأقفال التى لا يشبه أحدها الآخر، دخلوا الغرف كافة، أزالوا الإطارات المعلقة، جمعوها فى صناديق، بعد إغلاقها بإحكام دفعوا بها إلى جوف مقطورة صماء.

ماذا يجرى؟

إلى أين تمضى المؤسسة.

كيف يحدث هذا لذلك الكيان الراسخ القديم؟

لم تكن هناك فرصة كافية للدهشة، للغضب، لإبداء الاحتجاج إذا توافرت الشجاعة والعزيمة.

فى التاسعة صباحًا فوجئ كل من دخل إلى مقره بمنشور إما معلق على

الأبواب أو فوق المكاتب، يحذر من التعامل مع الجواهرى أو عطية بك، يطالب الجميع بالحفاظ على التضامن المؤسسى، لفتت الأنظار هذه الجمل والعبارات الجديدة مثل «الروح المؤسسية» «الهدف المؤسسى» «النقاء المؤسسى».

نصُ هذا المنشور أرسل إلى سائر الصحف القومية والحزبية، تولى عبده النمرسى متابعة نشره كإعلان، أضيف إليه ما يعنى أن هذين الاثنين لم تعد لهما صلة، وأن المؤسسة تحذر من التعامل معهما، هل يصدر هذا كله عن الرئيس الجديد الذى لم يسمع له صوت طوال مدة خدمته الماضية؟

كيف؟

أين التقاليد التى حرص المؤسس على بثها ورعايتها، خاصة فيما يتعلق بالزمالة؟ واضح أن هذا كله لم يعد له اعتبار، بدأ الكثيرون يحاولون استعادة ما يتعلق به، اجتهد البعض فى محاولة تذكر صفاته فوجدوا أنفسهم فى حيرة.

هل هو قصير أو طويل؟ أى ملامح كانت تبدو؟ أى انفعالات؟ الذين عملوا معه عن قرب، قالوا همسًا إنه لم ير ضاحكًا، أو غاضبًا، وعند الحديث إليه لا يمكن التنبؤ بما يجرى داخله، إنه يصغى، يصغى جيداً، ربما ينطق لفظًا أو اثنين ثم يعود إلى صمته، لا يواجه إنسانًا قط، لكنه إذا خلا بنفسه أخرج الحاسب الآلى الذى يصحبه معه باستمرار، يشبه حقيبة صغيرة، يكتب رسائله ومذكراته عليه، لا يستخدم القلم إلا فى التوقيع على القرارات والأوامر، توقيعه متداخل، غريب، يصعب تقليده. أكد المقربون السابقون أنه لا يناقش ولا يجادل، وليس بإمكانه نطق جملتين

متصلتين، لكن غضبه لا قبل لأحد باحتماله، غضب لا يعبر عنه بزعيق أو كلمات إنما بتصرفات تتجسد على الفور كقرارات لا راد لها، وما من سبيل إلى مناقشتها لأنه لا يلتقى بأحد، ولا يقابل إلا من يرغب رؤيتهم أو من يثق بهم، لا يرد على هاتف، لكن اكتشف البعض أنه يفتح الهاتف الخاص به فى أوقات يحددها هو، لا يمكن رصدها أو التنبؤ بها أو معرفة دوافعه، عندئذ يمكن الحديث إليه، يجىء صوته هادئًا، ذا طبقة واحدة، لا يعلو ولا ينخفض.

نقل البعض عن انتشار القليوبى أنه رقيق جداً، يجيد معاملة الآخرين إذا وثق بهم، وأن المرأة التى تعرفه لابد أن تتعلق به، له علاقات عديدة لكن لا يمكن لإنسان الاطلاع على تفاصيلها، لكنه عندما يقود السيارة بمفرده فإنه يكون متجهًا للقاء امرأة. تساءل الأشمونى أثناء حديثه مع صاحبه مفتش الصحة: كيف أقام علاقاته مع القيادة السياسية؟ ما هى الكفاءات التى رشحته لتولى صرح متين كهذا؟ حتى لو قيل الوفاء المطلق، فكيف أبداه، ومتى أعرب عنه؟

لا أحد يدرى، ما من تفسير شاف وإن كان أقربه إلى التصديق عند كثيرين صلة قديمة نشأت مع جهاز أمن سيادى، كلمته مسموعة فى العهود كافة، ومهما تقلبت الأحوال وتغيرت الظروف، يؤكد الأزميرلى أنه ما من مسئول يتولى موقعًا قياديًا إلا برضاء هذا الجهاز وثقته التى تقتضى صلة، هذه الصلة بدأت - كما يؤكد - خلال بعثته إلى أوروبا لدراسة الاتصالات الحديثة، كان يقوم بمهام مختلفة، منها مراقبة الطلبة المبعوثين وكتابة ملاحظات على سلوكهم واتصالاتهم، كذلك نشاط بعض القنصليات الأجنبية وشئون أخرى.

أيًا كانت الحقائق، فإن حذرًا بدأ يسرى عند الجميع، وصل عند البعض إلى خوف مكين، أصبح الطابق الثانى عشر مصدر رهبة بعد أن ظل مقصدًا لكل من له صلة، خاصة زمن المؤسس. لم تستغرق الأعمال التى قام بها الكوريون إلا أسبوعين، تم خلالها طلاء المقر كله، أما الطابق الرئاسى فجرت به تغيرات جوهرية، وشهدت نظم الاتصالات تطورات مهمة، الفروع كافة حتى المخازن النائية أصبحت مرتبطة بنظام داخلى دقيق يماثل أى منشأة كبرى فى اليابان أو الولايات المتحدة، بل إن بعضًا من النظم المستحدثة لا يوجد مثيل لها إلا فى البنتاغون الأمريكى «وناسا» الفضائية، وتأكد وصول خبراء سابقين من جهاز الـ «كى. جى. بى» سرحوا من أعمالهم بعد انهيار الاتحاد السوفيتى وفقدانهم وظائفهم، أحدهم يحمل رتبة مارشال، ولأن المؤسسة على صلة قديمة بالدول الاشتراكية سهل عليها الاستعانة ببعضهم، قال البعض إن مجىء هؤلاء الخبراء ليس لوضع نظام أمنى خاص يحمى المؤسسة، ولكنه ستار لأمور أخرى لم يخض أحد فى تفاصيلها. أكد آخرون أن القيادة الجديدة للمؤسسة تولى جمهورية روسيا، وجمهوريات آسيا الوسطى أهمية خاصة، وأن جزءًا كبيرًا من النشاط المؤسسى يوجه لاستقطاب خبرات نادرة لم تعد مطلوبة فى الكيان المتبدد. بالطبع أزعج ذلك بعض الجهات الغربية وكثفت جهودها لمعرفة ما إذا كان ثمة خبراء لهم علاقة بتخصيب اليورانيوم، أو تركيز الماء الثقيل، باختصار أى خبرة تتعلق من قريب أو بعيد بتصنيع السلاح النووى، ربما لهذا السبب تم تعديل بعض الهوائيات غريبة الشكل غير المألوفة فوق مبانى السفارات الأمريكية والإسرائيلية والألمانية، وسفارة هولندا الملكية بالزمالك. بعض هذه الهوائيات على هيئة أطباق استقبال البرامج التليفزيونية وبعضها يشبه شباك الصيد، إن

تحريكها وتغيير زوايا ميلها تماما بهدف رصد الاتصالات الخاصة بالمؤسسة، وربما ما يجرى داخلها أيضًا، لكن المؤكد أن هذه المحاولات تواجه بصعوبات جمة، لأن المسئول الأول عن المؤسسة خبير فى هذا المجال، مما دفع السفير الأمريكى الجديد الذى يتقن العامية المصرية كأبنائها إلى التلميح خلال لقائه بمسئول كبير إلى القلق السارى بسبب حجم معاملات المؤسسة فى هذا المجال والذى يفوق طاقتها، قال إن هذا القلق ربما يجد طريقًا للتعبير عنه خلال مناقشة الكونغرس الأمريكى لبرنامج المعونة الغذائية!!

لم يعرف أحد إجابة المسئول، كما لم يحط أحد بطبيعة ما جرى فى الطابق الثانى عشر، تردد أن هؤلاء الآسيويين ينتمون إلى كوريا الشمالية - وليس الجنوبية - هم مجندون فى الجيش النظامى، يخرجون فى ملابس مدينة إلى أماكن شتى من العالم لأداء مهمات ظاهرها مدنى وباطنها خفى لا يلم به أحد، لكن يبدو أن ما أقلق المرجعيات الغربية اشتراك عدة مؤسسات عالمية فى تكوين نظام الاتصالات الجديد، بحيث لا تنفرد إحداها بمجمله وتفاصيله. كذلك القدرة على التوفيق بين أنظمة مختلفة، مغاير كل منها للآخر، يضاف إلى هذا جوهر العلاقة بين المؤسسة وجمهوريات الكومنولث.

صحيح أن المؤسس كان عدواً لدوداً للشيوعية فى الداخل، لكنه أول من أقام علاقات تجارية خاصة، واسعة النطاق مع مؤسسات الاتحاد السوفيتى، وهو أحد أعضاء الجانب المصرى فى المفاوضات التى انتهت بإبرام صفقة الأسلحة التشيكية بعد نصيحة شو اين لاى الشهيرة لناصر فى مؤتمر باندونغ.

ماذا جمع بين الشامى والمغربى؟

ماذا يوفق بين البرى والبحرى؟

من هو الجواهرى؟

من أين استمد عطيه بك تلك القدرة والخبرة اللتين مكنتاه من شل حركة المرور فى عاصمة ضخمة معقدة يعيش فيها ويتحرك ستة عشر مليونًا؟

لماذا تبدو بعض أنشطة المؤسسة متناقضة والأخرى غامضة؟

ما الدافع الحقيقى للحملة ضد الجواهرى وعطية بك، مع أن كليهما بدون تخصصات حقيقية، وجودهما معنوى، هل يستحقان نشر هذا الإعلان التحذيرى يوميًا ولمدة أسبوع كامل؟

عندما قرأه الجواهرى لم يجزع، ماذا يمكن أن يحدث أكثر مما وقع بالفعل؟ ما يعنيه الآتى، ما سيجرى، أحد همومه الطابق الرئاسى، تتردد أقاويل عديدة تصل كلها إليه، أيسرها أن معالمه القديمة تبدلت تمامًا وأنه يحوى الآن مستويين، وبه غرف تضم كل منها حجرات متعددة، بعضها يدرك بالحواس والآخر من الصعب مثوله إلا وفق شروط معينة، لا يدرى أحد من يتحكم فيها، ومن يديرها. لهذا لا يمكن وصف محتوياته أو الوقوف على مضمونه، إذ يمكن رؤية جدران ماثلة ونوافذ لكنها تخفى جدرانًا أخرى ومكونات مغايرة لا يمكن الكشف عنها إلا بقدر، أو طبقًا لترتيبات مسبقة.

سمع باختفاء السجادة التبريزى، والساعة البرونزية، والفناجين الثلاثة التى تحمل علامة أسرة رومانوف. الرائحة المميزة، الخاصة التى

شكلت ملمحًا من الحضور القوى فى ذاكرة كل من سعى إليه اندثرت .
المكتب الدائرى اختفى، حل مكانه آخر، يبدو من الخشب وأحيانًا من المعدن، لا يمكن تعيينه، فى الصباح بيضاوى وعند الظهر مستطيل وفى المساء دائرى .

أغرب ما نما إليه أن الطابق كله لا يحوى إلا قاعتين، الأولى مدخل إلى الثانية، كلتاهما خاليتان من الأثاث، فراغ فسيح أشبه بقاعات المعارض، لكن . . ما من لوحات معلقة!

أين يستقر إذن؟

من أى مكان تمارس انتشار القليوبى مهامها واتصالاتها، وتصدر تعليماتها المتعاقبة. أحيانًا يتردد صوتها فى مكانين مختلفين بموضوعين مغايرين فى توقيت واحد .

آه . . لم يعد الثانى عشر موقعًا مهابًا، منيع الجانب كما ظل دائمًا، الذى يركن إليه كل صاحب حاجة، ومن ألمّ به ضيق، ومن يأمل فى المستقبل، يبدو الآن غامضًا، محيرًا .

من يتصور هذا المكان العلوى بدون عم صديق؟

بعد الجواهرى وعطية بك حل دوره، صدر قرار بإنهاء علاقته وقطع مكافأته الإضافية. ومنعه من دخول المقر كله وليس الثانى عشر فقط، صودرت متعلقاته الخاصة ومنها البن المحوج والملاعق الصغيرة التى تحمل الحرف الأول من اسم المؤسس، والصينية الألباستر. علق البروفيسور مؤيدًا :

«لا يمكن للمـؤسـسـة أن تصـبح مـخـزنًا للتـحف . . لابد أن نلحق بالعصر» .

أى تحف؟

عم صديق تحفة؟

الوفى، النبيل، المهيب، أكثر الناس قربًا من المؤسس، حتى لتتشابه أنفاسهـمـا ، ويقوم إذا قام حتى لو كان فى مكان بعيد عنه ، ويمرض إذا مرض ويصح إذا شفى ، عم صديق الصامت ، مجمع الأسرار ، المؤتمن ، قديم المودة . . هل يطرد هكذا؟

مرة أخرى ترددت أصوات مزعجة ، مربكة ، صادرة عن أعماق الحفرة الدائرية . سمعها العاملون فى النوبات الليلية وأفراد الأمن المرابطون ، وتكررت نهاراً عند الظهر ، لكنها لم تستمر .

حتى الأرض تضج لما يجرى ، هذه علامات يجب ألا تهمل ، لابد من الانتباه ، غير أن هذا كله لم يلق أذنًا صاغية فى الطابق الرئاسى ، بل جرى التلميح فى أول منشور يعلق باللوحة الرئيسـة إلى ضرورة تخلص المؤسسة من الأعباء الثقيلة المتوارثة من عهود سابقة . وعد ذلك تلميحًا قويًا إلى حقبة المؤسس . . بل إليه شخصيًا . ثم ترددت إشاعات قوية عن كشوف تعد لإحالة عدد غير قليل من مختلف التخصصات إلى التقاعد ، وأنه يجرى تكليف المستشار القانونى لتجهيز المبررات ، سبب ذلك خوفًا وحذراً ، وخيل لكثيرين أن أيامهم أصبحت معدودة .

لم يكن ذلك من قبيل التحذير أو التهويش ، إذ سرعان ما أذيع أمر بصوت يسمع لأول مرة تردد فى أنحاء المقر الرئيسى والفروع التابعة كافة

حتى دورات المياه والمخازن البعيدة عبر مكبرات صوت خفية، ظنه الكثيرون أنه صوت سيادته شخصيًا، وقال العاملون فى قطاع الحواسب الآلية إنه مخلق بالكومبيوتر ولا يمت إلى مخلوق حى. صوت غريب، غير مألوف، فيه رنة معدنية ونذير. أصاب البعض بالخشية والحزن، ومع تكراره اضطر عدد غير قليل إلى استخدام مضادات الاكتئاب وأقراص مضادة للخوف.

فى أول مرة يسمع فيها طلب من السعاة كافة التوجه إلى إدارة شئون العاملين، عمت الطوابق والمقرات حالة أسى، وارتفع بكاء رجال، وأغمى على آخرين.

معقول هذا؟

أن تلفظ المؤسسة من أفنوا أعمارهم بين جدرانها وطرقاتها؟

صحيح أن كلمة الفصل لم تتردد، لكن ثمة عبارات أخرى أشد وقعًا وأكثر إثارة للحيرة والتشتت مثل «ترشيد العمالة» «فائض القوى» و«إعادة التأهيل».

ترشيد، تأهيل.. من؟

إلى أين يذهبون؟

كأن هاتفًا خفيا دعاهم أجمعين للتوجه إلى مقهى رشيدة بعد أن أمضى الجواهرى أيامًا معدودات وحيدًا، لا يقربه إلا القدامى العتاة الذين تقلبوا عبر ظروف شتى وخبروا الاستجوابات المثيرة للغثيان، ومحاضر التحقيق فى المكاتب المليئة بظلال صفراوية.

التف السعاة العجائز وصغار السن حوله، أنهوا إليه ما جرى علنًا وعلى مسمع، مع علمهم الأتم أنه مرصود وممنوع الاتصال به. ولا حول له ولا قوة الآن، هذا تصرف أثار حيرة المتابعين!

طلبوا منه النصيحة، إنه قديم، عنده دراية، وهم لا يعرفون الطرق الموصلة إلى أصحاب الكلمة المسموعة. من أين لهم وقد أفنوا أعمارهم فى أروقة المؤسسة وعلى أبواب مكاتبها.

أصغوا إلى نصائحه بهدوء.. ثم فارقوه متأثرين، مضوا إلى دور الصحف، وحاول أحدهم عبثًا دخول مقر التليفزيون، لم يلتق بهم أحد. لكنهم أودعوا الشكاوى والاستغاثات فى المكاتب الأمامية، أرسلوا صوراً منها عبر البريد إلى كتاب مرموقين، ومقدمى برامج إذاعية وتليفزيونية، وبعض أعضاء المجلس النيابى، بل شرعوا فى جمع أموال لرفع قضية، لكن.. هذا كله يستغرق وقتًا وربما ينتهى إلى خسران مبين. حقًا.. هل نجح أحد فى مواجهة المؤسسة من قبل؟

هكذا.. تم التخلص عمليًا من مئات السعاة، بعضهم قدامى شاركوا فى بناء المقر الأصلى، حملوا المقاطف والمؤن، بعد تمام البناء استجاب المؤسس وأبقاهم، وصار بعضهم من العلامات، وركنًا فى تمام المسيرة.

منهم عبد الله القناوى، كان طويلاً، راسخًا، مهيبًا، هاجر من بلدته لسبب لم يفصح عنه، وإن خمن الجواهرى أنه يتعلق بثأر، كثيراً ما ردد القناوى أنه لم يرغب العمل الحرام، ولو قبل ما عرض عليه لأصبح شأنه مغايراً، تنقل من عمل إلى آخر، من مركب فى النيل تنقل الجرار الفخارية إلى سقالات البناء، إلى تحميل عربات نقل الأثاث. كان يمكنه حمل برميل زيت ممتلئ أو بالة قطن تزن قنطاراً كاملاً، لم تهن قدرته حتى

تجاوزه الستين. كان بمجرد رؤيته المؤسس يسارع محاولاً تقبيل يده، مع أنه لم ينحن لأى مسئول آخر، بل أدركه الغضب الوعر عندما طلب منه موظف بإدارة الشئون القانونية كوبًا من الشاى والوقت رمضان. الحقيقة أنه اعتبر ذلك مهينًا له سواء فى رمضان أو الشهور الأخرى. يقول إن المؤسس طلب منه نقل المراسلات فقط من إدارة إلى أخرى ولم ولن يقوم بأى عمل خلاف ذلك. وعندما بدأت أحداث المحنة الكبرى أقدم على ما اعتبره الكثيرون طيشًا وجهلاً، إذ مضى إلى ليمان طرة الذى سمع باعتقال سيادته فيه، ورابط أمام الباب جهة النيل حتى أقنعه سجان قديم برتبة باشجاويش أن يبتعد عن مصدر الأذى بعد أن وعده بإبلاغ السلام والدعوات. لم ينقطع عن زيارة الأولياء، وأضرحة الصالحين، خاصة سيدنا الحسين وسيدى البيومى الذى كان يسكن على مقربة من ضريحه جهة الحسينية.

لا يذكره الجواهرى إلا ويترحم عليه، يبسط يديه ويقرأ على روحه الفاتحة رغم كثرة الهموم وجفاء الوقت.

السعاة الذين يشردَّون الآن، كانوا موضع رعاية المؤسس، يصغى إليهم، يهش ويبش لهم، يستفسر عن الأبناء والأحوال التى كان يلم بها فى دقة عجيبة، ويستوعبها بذاكرة أثارت الدهشة وبقيت مثلاً. أمر لهم بكساء فى الصيف، والشتاء، أنفق من ماله الخاص لمساعدتهم، وخصص منحًا دراسية للمتفوقين من أبنائهم أوصلت بعضهم إلى الجامعات الأوروبية، لذلك.. حمل معظمهم الود الجميل له، رفعوا أيديهم بالدعاء، فتح بيوتهم وساعد مرضاهم، تمكنت محبته من قلوبهم.

منهم عم إسماعيل القبرصى، تجاوز الثمانين الآن ولم يتغير سواد شعره وإن خفت كثافته، ما زال يدعى أنه يسقى الأرض ثلاث مرات أسبوعيًا، لم يتخلف مرة واحدة إلا بسبب نوبة روماتزم حادة أقعدته عن الحركة ومنعته أسبوعًا واحدًا لا غير قلق خلاله على امرأته التى تجاوزت الستين لأن المرأة كما يعودها الرجل. الحق أنه لم يقصر، وهى أيضًا لم تتأخر عنه طالما بقيت قادرة، فهمته وقدمت إليه ما يرضيه، اعتادها واعتادته، حتى أن مسامهما لتتطابق فتحاتها، معها لا يعرف البرد، إذ تحيل ليالى الزمهرير الخارجى والداخلى إلى دفء متصل بصهدها المشع، يتكلم عم إسماعيل ببساطة عن أدق أموره، وكثيرًا ما يقص وقائع الليلة الماضية أثناء وقوفه مع زملائه بصوت مرتفع، مما دعا الآنسة ابتهال الساملى إلى تقديم شكوى ضده، ولولا تدخل الجواهرى شخصيًا لكبر الأمر. يومها مال عليها. قال إنه لا يكن لها بغضًا بعد أن علم بسوء بختها وميل حظها، فى المرة الأولى انتهى زواجها بعد سنتين، خرجت منه عذراء لم تمس، أما الثانى فسافر بعد عقد القران وقبل أن يدخل بها إلى الخليج وهناك وافته المنية ولم يعرف السبب، أما الثالث فألعن حالاً من الأول، قال مشفقًا، معاتبًا..

«لو أنها عرفت الـ..».

قاطعه الجواهرى:

«يا رجل حرام عليك..».

لا يمت عم إسماعيل إلى قبرص بأى صلة، بل إنه لا يعرف موقعها من العالم. وعندما قال الأستاذ حسنين الرسام على مسمع منه أنه أمضى المصيف فى بلطيم، مكان هادىء، جميل، وفى الليالى الصافية يمكن

رؤية أضواء قبرص، أبدى اهتمامًا، قال إنه لم يتصور قربها هكذا، خاصة أن سكانها لا يوحِّدون الله!

كان والده يبيع الزيتون الأسود لسكان مقابر قايتباى ولسبب ما أطلقوا عليه القبرصى، ربما نوع منه، لم يكن عند عم إسماعيل تفسير آخر، غير أن شهرته فى المؤسسة ترجع إلى أمانته التى ضرب بها المثل، وتحدثت عنها صحف الخمسينيات قبل التأميم، عندما عثر على حقيبة صغيرة قرب خانقاه فرج بن برقوق، احتوت على فصوص ماسية نادرة أحدها يخص ملكة هولندا الجدة والذى اختفى قبل نشوب الحرب العظمى الثانية مباشرة، قدرت القيمة بمليون وربع مليون دولار أمريكى، وهذا مهول بمقاييس الوقت، قام بتسليمه إلى نقطة الشرطة الفرعية، بادر قائدها - برتبة نقيب - واستدعى الصحفيين. عندما ظهر صاحب الحقيبة النمساوى الأصل، القاهرى الإقامة، وتم التحقق من شخصه وما يثبت ملكيته للمجوهرات النادرة، أعيدت إليه، عدا الفص الملكى النادر الذى نشبت بسببه أزمة دبلوماسية ليس هذا مجال التطرق إلى تفاصيلها أو خباياها، غير أن المثير فى الأمر هو رفض عم إسماعيل للنسبة القانونية واعتذاره عن قبولها بحجة أنه لم يعرق من أجلها ولم يتعب فيها مع أن المبلغ كان هائلاً، مما دفع البعض إلى اتهامه بالجنون أو العته، لكن كتابًا مرموقين أشادوا به ودللوا على أن القيم الأصلية ما تزال سارية، وأن الدنيا بخير رغم كل ما يقال. ما أثير حوله من ضجة كان السبب الذى أدى به إلى إلحاقه بالمؤسسة. بعد هدوء الضجة وعودته إلى النسيان المألوف الذى يسعى فيه، إلى بيع الزيتون القبرصى والنوم ظهراً فى صحن مسجد قايتباى، جاء سيادته شخصيًا بحثًا عنه، لم يتردد عم إسماعيل فى قبول

العمل، التحاقه بالمؤسسة عين الراحة عنده، أن يضمن عملاً شهريًا، ثابتًا، يتقاضاه فى يوم معين، هذا حلم وأمل كل بائع متجول أو سريح أرزقى لا يعرف ماذا سيأتيه غدًا؟

قالت إحدى جاراته:

«مبروك يا عم إسماعيل . . بقيت مثل موظفى الحكومة . .».

عندما ذهب إلى المخزن ليتسلم الزى الرسمى واجهته مشكلة، جميع المقاسات المعروفة للأحذية أضيق من قدميه، قال أمين المخزن إنه لم ير مثلها فى الفلطحة وكبر الحجم، لم يكن ممكنًا السماح له بالتردد حافيًا كما اعتاد طول عمره.

ضحك سيادته - يا سلام على لطفه ورقته - عندما سمع بذلك وأمر صديق النوبى بمصاحبته إلى إسكافى قديم، دكانه عند ناصيتى شريف وعبد الخالق ثروت، باشوات مصر من قبلى ومن بحرى كانوا يلبسون من صنع يديه، قام بتفصيل ثلاثة، رغم تجهمه الدائم إلا أنه ابتسم مرات عندما رأى القدمين الضخمتين، سلّمه اثنين وعرض الثالث فى الواجهة الصغيرة لمدة أربعة أشهر، كثيراً ما استفسر الزبائن منه وكذلك بعض الفضوليين.

«حذاء حقيقى أو نموذج للدعاية؟».

ومنهم خميس القفطى، كان ضئيل الجسم، كبير الدماغ، لم تعرف المؤسسة شبيها له إلا البروفيسور مع اختلاف التكوين، كان، خفيف الظل، كثير الدعابة، سريع النكتة، قادر على توليدها خلال حوارته، ويقال إنه مصدر العديد من النكت المتداولة فى المؤسسة والتى تخضع

أحيانًا لتحليلات الجهات المعنية . التحق بقسم المراقبة القديم ، إذا غضب عليه رئيسه وبدأ مضايقته يلجأ إلى وسيلة غريبة لمضايقته ، يحلق شعره بالموسى ، جلد رأسه ذو لمعة تميل إلى حمرة غريبة . بمجرد ظهوره حليقًا هكذا ينتاب رئيسه هياج ممتزج بخوف غامض ، يغادر المكتب على الفور ، يبقى فى بيته لا يظهر إلا بعد تأكده من ارتداء القفطى لقلنسوة .

غير أنه انطفأ بعد وفاة زوجته فجأة ، لم ينجب منها ، وأبى الزواج من أخرى رغم إلحاحها ، لكم ردد بحسرة ما تزال ماثلة فى أذهان الكثيرين :

«كانت مريحانى» .

آوى إلى صمت غميق ، لزم مكانه فى الممر وأبى الحركة فى مواعيد الانصراف ، اضطروا إلى نقله للعلاج فى المستشفى ، ما زال حيًا يرزق ، لكنه لا يفارق مدخل بيته فى حارة سيدى معاذ ، يتطلع دائمًا إلى نقطة مجهولة من الفراغ ، أما دماغه فتضاءل .

ومنهم صابر الرفاعى ، بدأ ظهوره فى المقر عند استدعائه من بلدته ناحية أبو النمرس ، لاستخراج الأفاعى التى ظهرت فى المقر الأصلى عقب افتتاحه ، تسربت إليه من الشقوق الغائرة زعموا أن مصدرها الحفرة الدائرية ، لكن . . لم يثبت ذلك . لم يمض أسبوع إلا وشوهد جالسًا أو مقرفصًا أو منحنيًا فى مواجهة صوان ، أو شق ، يتلو تعاويذه ويحرك أصابعه ، فى لحظة معينة تطل الرأس ، يبرز منها اللسان المشقوق ، أحيانًا يسمع فحيح الكوبرا .

أنواع عديد تم تحنيطها أو إهداؤها إلى حديقة الحيوانات بالجيزة ، إحدى الحيات بلغت من الطول حدًا أذهل القوم ، استغرق خروجها

المتمهل البطيء ما بين صلاة الظهر وآذان العصر، خلال المدة لم يغير وضعه، ولم يكف عن تلاوة التعاويذ الغامضة. مع مرور الوقت خفت الثعابين، ربما لانتشار العمران أو لدبيب القدم البشرية، غير أن المؤسس لم يصرفه ولم ينه علاقته، عندما حدثوه فى أمره يومًا، قال ملوحًا بيده، مبديًا العطوفة:

«خلوه ياكل عيش..».

أخاف مظهره الصامت الكثيرين، وتلاوته المستمرة للتعاويذ، وتجنبه معظمهم لقدرته المؤكدة على استدعاء ما يشاء من الأفاعى. وانفراده بالسيطرة على نوع معين من الحيات لا يوجد إلا فى مصر، وتوجيهه لمسافة خمسة وعشرين ميلاً بحريًا، أثار ذلك ذعرًا خاصة بين النساء عندما ردد حمدى الأزميرلى أنه ينوى توجيه إحدى هذه الحيات التى تعد صغيرة الحجم، شديدة الفتك، حتى يستقر بين فخذى إحدى العاملات التى شاء حظها أن يكن لها إعجابًا مكتومًا لم يجرؤ على إعلانه أو البوح به، وأكد الأزميرلى قدرته على إبقاء الحية فى هذا الموضع مدى الحياة.

ضحك المؤسس عندما سمع ذلك، قال إن هذا مستحيل، ورفض وقف صابر أو نقله إلى مكان آخر، قال إن من وضعوا اللبنات الأولى فى المقر يجب ألا يلحقهم أذى غير مبرر. غير أن اضطهاد الأزميرلى له لم يتوقف لأسباب غير مفهومة، حتى تمكن من الزج به فى المعتقل، تمامًا كما فعل مع كيرلس القبطى وفهيم الشتوتى وعباس المنياوى فيما بعد، قيل إن صابر اتهم بعضويته للجهاز السرى للإخوان المسلمين منذ طفولته، وإنه كان على وشك تجهيز قنابل من الأفاعى، بسلال مستديرة داخلها الأنواع الأشد فتكًا، يرميها على الموكب الرسمى، أمضى ثلاث

سنوات وشهرين فى السجن، خرج قبل حرب الأيام الستة بأسبوعين، لكنه لم يرجع إلى المؤسسة، لم يدخلها قط، إنما مضى مباشرة إلى بلدته، استقر هناك لا يتلو التعاويذ ولا ينطق، يعيش مما يجود عليه القوم، وما يرسله إليه الجواهرى. لكن المؤكد أن علاقته بالأفاعى لم تنقطع - كما قال عطية بك - والدليل ما جرى للأزميرلى فيما بعد . .

ومنهم نفير الدلنجاوى، عرف بالأخرس لطول صمته، كان عضواً فى عصابة أدهم الشرقاوى خلال العشرينيات، شوهد المؤسس يصافحه بود مرتين بعد قيام الثورة، أمضى فى المؤسسة أربعين عامًا، لم يحل إلى التقاعد حتى وفاته، أنجب ثلاثة عشر ذكراً وستة وثلاثين حفيداً، والمؤكد أنه تجاوز الثمانين.

ومنهم عبد الله العربى المقيم بنزلة السمان ناحية الأهرام، ورث فدانًا عن أبيه يؤجره للزراعة، فى بداية الستينيات اقترب العمران، وبدأ بيع الأراضى بالمتر للبناء، أثرى بسرعة، بدّل ملبسه ودار إقامته وأيضا . . أم عياله، وبعد اختفائه من المؤسسة شوهد راكبًا عربة رمادية اللون، محلية الصنع، ويدخن سيجارة أجنبية. وقيل إن الأمر لا يتعلق بارتفاع سعر الأرض، لكنه عثر على خبيئة من الزمن الفرعونى، ويبيع محتوياتها قطعة . . قطعة، هو الآن من أرباب المقاولات، ولكل من أبنائه الثلاثة نشاط معروف فى السوق، كلهم من الأولى، أما الثانية فلم تنجب.

ومهم مصطفى السرينى، كان طويلا، نحيلاً، الوحيد الذى سمح له بارتداء الجلباب والمعطف، حظى بمنزلة خاصة، لم يطلع أحد على أسبابها، ولم يعرفها حتى الجواهرى، لزم مكانًا قريبًا من الممر الخلفى المؤدى إلى الفتحة الدائرية.

حكايات عديدة تُروى عن كيفية التحاق بعضهم بالمؤسسة، مثل الشبراوى الذى جاء لزيارة أحد أقاربه يومًا، ثم استمر تردده وانتظاره فى الممر الرئيسى بالطابق الرابع. فى أحد الأيام وأثناء مرور سيادته رآه، سأل الجواهرى الذى كان يلازمه، يمشى دائمًا إلى يمينه:

«من هذا؟».

«عباس الشبراوى..».

«مع من يعمل؟».

«مع الإدارة القانونية».

«لا.. انقلوه إلى الحسابات».

يبدو أن الجواهرى لم يعرف موقفه بالضبط فأجاب طبقًا للإدارة التى تقع بالطابق، لكنه بعد أن استفسر فوجئ أن الشبراوى لا يمت إلى المؤسسة بصلة، ولأنه لم يخف أمرًا قط عن المؤسس طلع إليه، أصغى سيادته ثم ضحك، تلقى الأمر ببساطة قال:

«إذن اعتبره معينًا.. المهم أن يقبل».

وإذا كان الشىء يذكر بنقيضه فلا بأس من ذكر نادرة تُروى عن سيادته، إذ حدث أثناء تفقده لأحد أجنحة المؤسسة أن انتابته حالة غضب عاصف، صاح.

«أنت مفصول..».

قال الشاب حديث التخرج:

«لكننى غير مثبّت . . ».

لوّح - رحمه الله - بأصبعه الشهيرة التى هابها الكبير قبل الصغير:

«إذن . . عينوه وافصلوه . . ».

قام الجواهرى بتنفيذ الشق الأول وتحدث فى الثانى، أشار إلى ذكاء الشاب، والخطأ غير المقصود، والمستقبل، تغاضى سيادته عن الفصل، بقى الشاب فى المؤسسة، أصبح مسئولاً عن العلاقات بسائر الموانىء، فى مصر، وجميع أنحاء العالم، أوتى ذاكرة عجيبة حتى أنه ألمّ فى فترة قصيرة بكافة المعلومات المتاحة عن الموانىء، غاطس كل منها، وعدد الأرصفة المتاحة، وأماكن التخزين، وأسماء المتصرفين فى شئونها، عُدَّ حجة فى ذلك. رعاه الجواهرى كثيراً ولكنه لم يعمر طويلاً إذ وافاه الأجل بعد تناوله قرص دواء يخص أمه على سبيل الخطأ. لم ينقذه علاج مكثف لمدة أربعة أيام فى معهد السموم. حزن عليه عطية بك.

وجوه عديد عبرت أو أقامت مدداً متفاوتة، غير أن القول الذى تردد كثيراً على الشفاه أن المؤسسة فتحت بيوتًا، وأن كثيرين من أبناء العاملين مدينون لسيادته، لولاه لما أصبحوا أطباء ومهندسين وأخصائيين فى علوم شتى، هؤلاء ما كان ممكنًا لهم أن يفكوا الحرف لولا المنح التى رصدها سيادته، وتشجيعه أبناء الفقراء خاصة. بعد صدور القرارات التى تم بموجبها إحالة السعاة القدامى إلى التقاعد، وإخلاء المؤسسة منهم بطرق شتى، ترددت أقاويل عديدة - وهذا شأن تكرر كثيراً مع صدور القرارات - منها كثرة عددهم، حتى زعم البعض أنه لا يوجد إحصاء دقيق بهم، وأن بعض من أقاموا سنوات يحملون الرسائل وأكواب الشاى وفناجين

القهوة لم تكن لهم أى علاقة رسمية بالمؤسسة، بعضهم مطلوب للعدالة، وآخرون تجسسوا على أدق أسرار القرارات ونقلوها إلى منشآت أخرى.

ليس باستطاعة أحد تحديد مصدر معين لتلك الحكايات والوقائع التى تنتشر بسرعة عقب كل قرار يصدر، أو تحول يجرى فى النظم والمعاملات. البعض يرددها بتلقائية غامضة ظنّا منهم أن ذلك يرضى القيادات العليا. وآخرون يتظاهرون بتصديق ما يقال ويضمرون خلاف ذلك. تزايدت كثافة التفاصيل عقب ما جرى للسعاة، وطال بعضها المؤسس نفسه، بل ألحقت به ما بدا مصدمًا، متناقضًا تمامًا مع كل ما قيل وبدا ثابتًا. مثال ذلك اعتقاد سيادته بساعٍ من الصعيد اسمه جودة الضبع.

كان أبا لثمانية، أربعة ذكور وأربع إناث، . كلهم أنهوا دراستهم الجامعية، كان الضبع ملازمًا لمقام الإمام الحسين، يكنس أرضه، وينفض تراب أبسطته ويطوف بالضريح قبل الغروب وبعد صلاة الفجر، يرفع صوته أحيانًا بالدعاء أو يتمتم بما يعسر فهمه أو التنبؤ بمضمونه. كثيراً ما شوهد المؤسس يقف أمامه كالطفل أمام والده، أكد البعض أنه لم يتخذ قراراً إلا بعد نوال بركته، ولم يسافر خارج البلاد إلا بعد استشارته، وكم ألغى مهامّ كانت مقررة أفقدت المؤسسة فرصًا هائلة للاستثمار، والسبب كلمة أو إيماءة من الضبع. . هذا هو الرجل الذى كان اليابانيون يحسبون له حسابًا، والأمريكيون يسعون للتقرب منه، والروس يحاولون التأثير عليه.

بمعنى آخر غير معلن، تلك حقيقة المؤسس الذى تحاك حوله الأساطير، يعلق الجواهرى:

«حرام والله حرام..».

أو يردد مقهوراً، مغمومًا:

«حسبى الله ونعم الوكيل..».

كان يتابع اختفاء السعاة من المؤسسة، وقيام السكرتيرات بإعداد الشاى والقهوة، وتخصيص أماكن معينة لشربها فى كل طابق، ومنع دخول المأكولات من الخارج تمامًا، إلا أن المؤسسة شهدت ظهور شخصين يمتان إلى الطابق الثانى عشر، لا يمكن اعتبارهما سعاة، ولا يمكن إدراجها بين الموظفين.

الأول أكبر سنًا، تجاوز الخمسين، عريض الكتفين، مدبب الذقن، أفطس الأنف، أمامى النظريات، مشيته عسكرية إلى الأمام والأخرى إلى الخلف، خفيف الخطى، يسرى ولا يمشى، يظهر فجأة أمام من يقصده، لا يفعل أى شىء سوى تسليم تلك المظاريف زرقاء اللون التى تحمل شعارات المؤسسة، ولا تحتوى إلا خطابات يكتبها سيادته شخصيًا على ورق أخف زرقة وتحمل توقيعه بالحبر الأسود، أما الرسائل نفسها فمكتوبة بالحاسب الآلى الخاص به.

لم يعرف للرجل اسم، كما أنه لم يتحدث إلى أحد، ولم يبتسم مرة، ولم يعلق على أى قول سمعه، وشيئًا فشيئًا أصبح له اسم متداول خفية، «الطويل» قياسًا إلى الآخر «القصير»، إنه أكثر شبابًا، ربما فى الخامسة

والثلاثين، بعينيه جحوظ خفيف، وشفتاه مفرجتان دائمًا، كأنه يعانى صعوبة ما فى التنفس.

إن الأوامر والقرارات والإرشادات المختلفة تبلغ الآن بطرق شتى، وبوسائل حديثة جداً، لكن مجرد ظهور «الطويل» أو «القصير» القادمين من الطابق الرئاسى، مجرد وقوف أحدهما أمام أى مسئول، مهما كان مستواه المؤسسى، كفيل برفع سرعة النبض، وزيادة إفراز القلوب لمادة الإدرانيل، والخشية مما سيقع ويحدث..

إلى الطابق الرئاسى

بعد أسبوعين من صدور القرار الذى انتظره العاملون والمتصلون، وأرباب الحاجات، وترتب عليه نتائج عديدة مؤثرة فى السياق، بدأ عبده النمرسى يهدأ ويستقر لأول مرة منذ تولى سيادته. راحة لم يعرفها بسهولة، إنما بعد جهد وكد كديد. فحص ملفات عديدة، استقصى واستفسر، أحيانًا بحذر، مرات بالتصريح، التقى برجال أعمال وأصحاب مشروعات فى مدينتى السادس والعاشر، وعاملين فى المناطق الحرة، وخبراء جمارك، ورجال أمن سابقين، وآخرين فى الخدمة، ومندوبين لمؤسسات غامضة، ومقدمى برامج إذاعية، مسموعة ومرئية، وقوادين محترفين، وعاهرات مسجلات، وموظفات فى بنوك أجنبية وشركات سياحية، ممثلات ذائع صيتهن وأخريات ما زلن فى الظل، وأصحاب شقق مفروشة، ومديرى فنادق بالبحر الأحمر والساحل الشمالى، ومسئولى حجز بمكاتب طيران وفنادق مشبوهة. أمضى ساعات طويلة فى الأرشيف المركزى لصور المؤسسة. يفحص، يتمعن، يقارن ويستنتج. غير أن منطلقه ومفتاح بدايته تلك الصورة.

بعد إمساكه بها، وقوع بصره عليها، تأملها لساعات متتالية مستنفرًا أدق ما فى ثنايا خبرته، محاولاً إحياء اللحظة المحنطة بالظلال وضوء

شاحب، ليس من أجل إدراك ظاهرها، إنما للنفاذ إلى ما تخفيه الملامح، إلى الدلالات الكامنة التي يصعب على الماثلين في الصورة النفاذ إليها. فما البال بالمتفحص من بعيد؟

إنه هادىء الآن، لم يخنه تقديره قط، لذلك لم تفلت منه امرأة، كل من سعى إليهن استجبن، المهم.. معرفة المدخل الصحيح، بعضهن صارحنه أنهن كن ينتظرنه، كم من منيعات، محصنات أصبحن عجينة لينة مطواعة في يده.

الصورة منحته الإشارة. لم تكن إلا تسجيلاً لاجتماع ما، عقد في زمن معين، في المقر الأصلي عندما كان سيادته مجرد موظف في قسم الحواسب الآلية محدودة الطاقة والسعة. البيانات المدونة على ظهرها لا تتجاوز سطراً.

فقط.. مكان الاجتماع وزمنه.

لم يهتم، لم يتوقف عند تفاصيل صغيرة يمكن أن تعوقه، ما تمهل عنده طبيعة البصة، نظرة سيادته إليها. ناضحة بالرغبة، فياضة بالشهوة المكتومة.

إذن.. هي.

صفية الأبنوبي.

صفية الهيفاء، الغامضة، المتكبرة. المنيعة.

ليبدأ العمل باتجاهها.

لو قام بتدوين ما اتبعه من خطوات، وتسجيل ما سلكه من دروب،

ومـا أبداه من تفنن ومـحـايلة سـيكون مـثـار إعـجـاب للأعـداء قـبل الأصحـاب، يومًـا سيـفعل، سيؤكـد للجمـيع أن القـوادة فن وعلم. . موهبة!

تأكد قبل كل شيء من انعدام لقائهـمـا، سيادته حريص على إحاطة تحركاته بالكتمان، خاصة ما يتصل بحياته الخاصة ونزواته، لا يعرف أحد ملامح امرأته، يُقال إنها ليست مصرية الأصل، أمها أو أبيها، أحدهما أجنبي، أنجب صبيا وفتاة، الولد فى الجامعة الأمريكية الآن، أما البنت فـمـاتت وهي دون الرابعـة عـشـر فى حـادث غـامض لم يطلع أحـد على حقيقته حتى الآن، ويقال إنه كان متعلقًا بها، وأن سبب حزنه البادى فقدها المبكر، طوال مدة خدمته الماضية كـان معتزلاً، بعيدًا عن التناول، لم يجتمع بإحدى العاملات على انفراد، ولم يتبسط عبـر الهاتف مع إحـداهن، أمـا سكرتيـرته انتـشـار القليـوبي فـتبـدو مسـتنفـدة لمخزونـهـا الأنوثي، صـارمة، وإن كان عبد النمرسي يستهويه مثيلاتها، ويقسم أن هذه الجهامة، وذلك الجفاف يمكن أن يسفرا عن أنغام لا قبل لسمع بها إذا ما عزفت الأصابع بمهارة على الأوتار الخفية!

كان ممكنًا لشغفه بالنساء أن يبقى سرًا، لكن. . تلك البصة كشفته، بل إنها حددت الوجهة، وسرعـان مـا بدأ العـمل. يومًـا. . قـال عم جـويلي أقدم السـائقين إن كل شيء ممكن فى المؤسسـة، وإن كل شيء غيـر ممكن أيضًا. . المهم، معرفة التوقيت والظرف المناسبين لإثارة هذا المطلب أو إبداء ذلك الغرض. عم جويلي كان يقصد ظروف العمل، غيـر أن قـوله هذا ينطبق على المرأة أيضًا، هذا ما تؤكده تجربة النمرسي. . المهم، إدراك الظرف الملائم، موهبته الحـقيـقـيـة تتلخص فى الإمسـاك بتلك اللـحظة

المؤاتية . . لهذا . . لم يخب قط . يعرف ما يُقال عنه ، ما يدبر أحيانًا ضده ، لكنه لم يهن ، لم ينثن ، يعرف رجالاً كثيرين فى مستويات مختلفة ، داخل المؤسسة وخارجها ، يودون سلوك دربه ، أن يقوموا بما يُقدم عليه . لكنهم جبناء ، قناعته راسخة أن داخل كل منهم قوادًا متينًا بدرجة أو بأخرى ، لقد تعلم من هذا الأكاديمى المهيب ، أستاذ معروف للتاريخ ، يكتب فى الصحف والمجلات ، ملامحه فى الصور هتلرية ، وهو أول من يوجه الأسئلة إلى المستويات العليا من القيادة السياسية ، أسئلة متفق عليها مسبقًا ، وإثارتها للإجابة عنها مطلوبة لأغراض وأهداف قومية ، غير أن هذا الأكاديمى العتيد . تقرب إلى أصحاب الشأن بمن فيهم قيادات المؤسسة بأسلوب يصعب رصده . أو نسبته إلى فنون القوادة ، ذلك أنه كان يكلف تلميذاته الجميلات المتميزات ، بإجراء بحوث تقتضى مقابلات شخصية مع مسئولين كبار فى المواقع الحساسة ، أو ساسة قدامى لعبوا أدوارًا مهمة ثم تفرغوا للتجارة والأعمال الحرة ، كان يؤكد دائمًا على أهمية الوثيقة للمؤرخ ، خاصة إذا كانت الوثيقة حية متاحة ، فينبغى اللقاء بها .

من الأكاديمى استوحى النمرسى خطته .

سيادته يرغبها ، أمر لا شك فيه ، ما يحتاج إليه غطاء ، على الأقل فى البداية . هنا . . يبدأ دور عبده النمرسى ، إنه مُعد . متأهب ، مُيسر . قادر دائمًا على إيجاد الوسيلة ، إن متعته الحقيقية خلال تلك المرحلة . لكن . . من هى؟

وضعها غريب من خلال ما ألمَّ به ، كل أنثى جميلة ، مرغوبة تتردد

حولها حكايات وإشاعات، معرفة الحقيقى من الزائف مرهق ويقتضى جهداً غير هين.

صفية متزوجة.. وليست متزوجة!

كيف؟

منذ سنة ونصف عقد قرانها فى ناد تابع لجهة أمنية سيادية، مطل على النيل عند المعادى. زوجها متخصص فى صيانة آلات الحفر والتنقيب عن البترول، وله إضافة مهمة مسجلة باسمه فى سجلات الاختراع بروتردام، يعمل فى صحراء دولة الإمارات، شركة نفط أمريكية، مرتبه مرتفع، لا ينفق منه إلا القليل، إقامته وتكاليف معيشته مجانية، أسرته ميسورة، والده مستشار متقاعد ممن عرفوا بنظافة اليد وخلو السجل، بل إن بعض مواقفه تدرس لطلبة كلية الحقوق بجامعة عين شمس. يعنى ذلك عند النمرسى أنه لم يجمع ثروة. الحقيقة أنه خرج وليس لديه إلا الستر، معاشه الشهرى وإيراد بيت قديم ناحية المطرية آل إليه بالوراثة، صيانته واستهلاك كهرباء المدخل والسلم تكلف أكثر من دخله، كيف التقى ابنه بصفية؟

هذا ما لم يتأكد منه النمرسى، لم يهتم، لكنه لو رغب وصمم لتوصل إلى ما يريد، غير أن ما تجمع لديه من معلومات جعله يحن ويتعاطف مع هذا الشاب الذى لم يلتق به، وربما لن يرى وجهه أبداً. لكم رأى ولكم سمع، نساء متزوجات وأرامل بلا حصر، ينسى ملامح بعضهن الآن رغم أنه عاينهن وهن متجردات تماماً من ملابسهن، تأملهن على مهل فى أقصى درجات الخلوة، أصغى إلى تفاصيل عجيبة، إحداهن كانت

لا تقدم إلاّ على إغواء معارف رجلها، أرملة تبحث عن أصدقاء الراحل ولم يمض عليه بعد أسبوع واحد، أخريات دفعتهن ظروف العيش الصعب إلى التعرى فى فراش غرباء تمامًا عنهن. عرف أزواجًا سليمى النية، لم يخطر لهم قط بعض ما يجرى خفية عنهم، أما النزوات والعادات فبلا حصر، رغم ما عرفه إلا أنه أشفق على هذا الشاب المغترب فى صحراء العرب، لا يمر شهر إلا وتتلقى صفية هدية ثمينة، زجاجة عطر نفيس، ملابس أنيقة تحمل علامات بيوت فرنسية شهيرة، أما أقل حجر كريم فمرصع بزمرد أو ياقوت نادر أو ماس برلنت، إحدى زميلاتها أحصت عشر قلادات وسبع أساور ظهرت بها فى أقل من شهرين، هذا ما تجيء به المؤسسة نهاراً، فبأى حُلى تتزين ليلاً؟ أما الملابس فكلها مستوردة من بيوت الأزياء الشهيرة بفرنسا وبلجيكا، الفستان لا يتكرر ارتداؤه، أما الأحذية فأشكال وألوان. لا يكف عن إرسال الهدايا عبر البريد وبواسطة المسافرين، وشركات البريد، السريع المضمون الدولية.

صفية كانت واضحة، حازمة منذ البداية . . سفر . . لا، لن ترحل لتعيش بالقرب منه أو معه، رغم أن وجودها معه سيضاعف مخصصاته، ولن ترهق نفسها أبداً، كل شيء متوافر، لن تشعر بملل، بضيق، عدد كبير من زملائه اصطحبوا عائلاتهم معهم، بعضهم عقد قرانه غيابيًا، ولم يلتق بعروسه إلا فى المطار عند وصولها بثياب الفرح . . سيرعاها مثل نن عينه.

لا . . لا يمكنها قضاء يوم واحد هناك فى أى وضع كان. ليعمل هناك. ولتبق هنا، حتى يكون المدخر المعقول الذى يؤمن لهما حياة رغدة، أما لقاءاتهما فلتكن خلال الإجازات، فى عواصم ترغب فى

زيارتها أو يتمنى هو الإقامة بها، منذ عقد قرانهما لم يمضيا فى مصر إلا ليلة الدخلة، ثم سافرا إلى باريس ونيس ومونبلييه، التقيا فى استانبول خلال الربيع، وفى مدريد صيفًا، وفى تونس منذ شهر واحد، إجازاته أمضاها معها بعيداً عن مصر. يلتقيان فى مطار ويفترقان فى آخر، هو إلى الصحراء، وهى إلى عملها، إلى المؤسسة، تردد على مسمع منه ومن الآخرين أنها تحب عملها ولا ترضى به بديلاً، وأنها تمضى بخطى واثقة، ثابتة إلى ما تريده.

ماذا تريد بالضبط؟ ولأى غاية تخطط؟

هذا ما لم يعرفه زوجها، ولا أحد من معارفها، ولا النمرسى نفسه، امرأة صعبة.

يبدو هذا الشاب المغترب مجتهداً، طيبًا، هائمًا بها، وبالتأكيد ضاجعها بخياله أكثر من الواقع. قالت لصاحبة مقربة لها فى النادى أثناء مشيهما حول الملعب أنها لم تسمح له بالعبث فى نهديها، لم تمكنه من مس حلمتيها، تحرص على صلابتهما، واستقامتهما، تخشى ترهلهما، ثم إنها نفرت من رضاعته لهما، كأنه ما زال صبيًا لم يفطم بعد، وعندما حاول احتضانها أثناء النعاس لم تطق ذلك، تخلصت بلطف، شرحت عاداتها عند النوم، تفضيلها الوحدة عند الاستغراق فى السبات، لو شعرت بأنفاس تتردد على مسام جلدها تفزع، تأرق، قالت إنه من الأفضل أن يتعرف كل منهما على عادات الآخر حتى لا يقع نفور.

قالت إنها لم تسمح له إلا بوضع تؤثره أثناء المضاجعة، ليست لديه خبرة، لكنه بالتأكيد رأى أفلامًا جنسية فى غربته، أظهرت الحشمة،

وعندما رغب فى الوضع الخلفى أبدت فزعًا، وقالت إنها لا تتصور ذلك، وأنه لا يمكن إلا من حيث أمر الله، قبل يديها وأقسم أنه لم يقصد، ولم يفعل ذلك فى حياته، وأن هذا الوضع طبيعى، بل إنه الأصلى، وعندما طلب مشاهدة شريط يثبت ذلك، رفضت بحدة، وقالت إن هذه الأفلام مبتذلة وتصيبها بالغثيان.

الحق إنها لم تتجاوب معه، لم يستطع فض بريدها، أو قراءة شفراتها السرية، لم يقلب كوامنها، ما إن يبدأ حتى تتمنى فراغه بأقصى سرعة، مع أنه حرص دائمًا على إرضائها مع متانة تتمناها أى أنثى مجربة، لكن.. ماذا تقول؟ لا تطيق اقترابه منها، لم تشعر بنفسها معه.

أقنعته بضرورة نومهما منفصلين لأن ذلك صحى أكثر، استجاب لها، لم يناقشها، لم يجادلها، لم يسمعها لفظًا خشنًا، بالعكس واصل التقرب منها، والإكثار من هداياه وتحويل المبالغ اللازمة لفرش شقتهما فى المهندسين، ما تزال فى مرحلة الإعداد وبعض مكونات الأثاث والحمام سوف تستورد بالطائرة.

ما تجمع عند النمرسى أثاره وأدهشه، ساعده فى دفعها إلى الطابق الرئاسى. تمامًا كما دبّر وخطط.

استوثق من تاريخها السرى، تأكد من إقامتها عبر ثلاث علاقات فى وقت واحد وهذا غريب!

الأول: فنان تشكيلى يتخذ مقرًا له فى وكالة الغورى، مولع، موله برسمها، يعتبر جسدها الفاره نادر التكوين، بمطالعه الخصبة، ومنازله المرتوية، ونحول منتصف مسافته واستداراته المذهلة، إحدى لوحاته تبرز صدرها

المستنفر الأشم تستقر فى مدخل سفينة سياحية خمس نجوم ترسو فى أسوان، يكن لردفيها هيامًا فريًا، يمرغ وجنتيه بتكوينهما الربراب، وفى إحدى العصارى قام بتلوينها مستخدمًا درجات نادرة تحاكى ألوان الغسق.

الثانى: مضيف فى شركة أجنبية للطيران، يزاها لسويعات عند مروره بالقاهرة، تعرفت إليه أثناء عودتها من أزمير واستانبول، تلبى دعوته بمجرد سماع صوته حتى لو كانت تؤدى واجب العزاء فى مأتم، أو التهنئة فى فرح.

الثالث: دبلوماسى يعمل حاليًا فى السفارة المصرية بموسكو عاصمة روسيا الاتحادية، مكانهما المفضل، شقته بثكنات المعادى، غاب عنها أن الضاحية المفضلة لسكنى الأجانب عامرة أيضًا بالشرطة السرية، وجهات رقابية سيادية، إضافة إلى كوادر أجهزة المخابرات الأجنبية.

ما لم يلم به النمرسى الفروق الدقيقة بين العلاقات الثلاث. ماذا يجرى خلال اللقاءات المغايرة؟ كيف تبدو الاستجابات؟ أى عبارات تلفظ فى ذروة الخضم؟

يتمنى أن يسمع منها يومًا.. الإصغاء إلى أنثى جميلة تبدو منيعة أمر ممتع، كان متئدًا، حذرًا فى تقربه منها، لكن الأمور مضت أسرع مما قُدر لها.

صفية تستقر الآن فى الثانى عشر، متمكنة، الدنو منها مخاطرة. صحيح أنه هو من سعى، لكنه حرص على ألا يكثر من الظهور أمامها، أو الاتصال بها، أو ممارسة أى ضغط قريب أو بعيد على أساس أنه يعلم، القواد المتمكن من يعرف متى يظهر، ومتى يتوارى.

جمع بينهما عندما طلب منها الاجتماع بسيادته وإجراء حوار معه ينشر فى المجلة الفصلية التى تصدر عن المؤسسة بلغات ثلاث، صعدت ملبية لتمضى ساعة على الأكثر ولم تنزل، طبعًا الحوار لم يتم. دوره بدأ عندما اكتشف رغبته الخفية، وانتهى عند الجمع بينهما. يعرف حدوده، الاقتراب من النار يلسع، صفية لهبها مهلك، أصبحت من أولئك المستقرين فى المقاعد الرئاسية الدوارة، يحتاجون إلى هذا أو ذاك من البشر. وبمجرد حصولهم على ما يريدون لا يطيقون النظر إلى من سعوا لإرضاء نزواتهم، مهما عظم الثناء فإنه يحذر لحظة يتغير فيها الخاطر عليه. يصبح مكروهًا، ممقوتًا، يعرف تمامًا الفرق بين لهجة محدثه قبل دخول غرفة النوم والانفراد بمن يشتهى، والحال بعد انتهاء الخلوة، تحوى ذاكرته معالم وجوه عديدة قبل وبعد، ما يعرفه من تفاصيل وثنايا لايتصوره أحد، كثيرون إذ يهدأون يبدو عليهم حزن وضيق، يخرجون بسرعة إلى الحمام وعلى عيونهم غشاوة مغايرة، آخرون تتفجر الشقاوة من مآقيهم، ويعبثون بكل ما تطاله أيديهم. يصفقون ويرسلون القبلات إليه. يبتهج لمرأى أمثالهم غير أنهم قلة.

لا يدرى طبيعة التعبير على وجه زوجها المغترب لحظة اقترابه وعند ابتعادها عنه، مسكين.. لا ينال لمسة نهد، لو أنه رأى بعضًا مما يجرى بينها وبين صاحبها الرسام لذهل وانشق عن كينونته، بعض مما يدور بينهما يتجاوز بكثير أى فيلم ممعن فى الشذوذ يراه سرًا فى الصحراء.

يعجب النمرسى لهذا التعلق، يرثى لصاحبه، وإن اكتشف بعد الإمعان شبهًا بينهما، ما دفعه إلى خطب ودها واقتران جمالها، قال

لوالده المستشار القويم إنها مشرفة أمام المجتمع، والظهور بصحبتها مثير للزهو، لافت!

لافت لمن؟

للآخرين طبعًا.

ألا يعنى ذلك ضمنًا درجة من فن القوادة؟

يعرف رجالاً كثيرين مراكزهم تخض، ومظهرهم يثير رهبة سعوا إلى ارتباطات بهذا الدافع، يغض بعضهم الطرف عن نظرة راغبة أو دعابة مستترة لتمرير مصلحة، وعند لحظة معينة يتعامى عمداً، وفى حالات عديدة تشحب النخوة مع مرور الوقت.

لكم تمكن من جميلات، منيعات، استعصين على رجال أشداء، أثرياء، يملأون هدومهم تمامًا، لكنه لم يضاجعهن إرضاء لرغبة، إنما لتطويعهن وتليين العصيات منهن، متعته التامة فى جمع طرفين متباعدين، ثم الوقوف على ما يجرى بالنظر إذا أتيح ذلك سراً، أو بالإصغاء وبالذات إلى رواية الأنثى. تعنيه العبارات التى تُلفظ عند بداية لقاء اثنين يجهل كل منهما الآخر، والكلمات والجمل التى تُقال عند بدء الضم والتقبيل ثم أثناء خوض الخضم، أما ما يخرج من أفواه النساء المتمكّنات حقًا عند قرب بلوغهن الذروة فأمر عجب! يعرف فندقيًا لبنانيًا أنشأ وصلات كهربائية تتصل بسماعات دقيقة للإصغاء إلى ما يجري.

احتفظ بصلات حميمة مع بعض من استدرجهن ودفع بهن إلى أحضان من يجهلن، الغريب . . أن كل من تعامل معهن حملن له تقديراً ومعزّة، يتفاوت الأمر من أنثى إلى أخرى، خاصة اللواتى لا يفهمن من

البداية ثم يصدمن عندما يدركن أن سعيه الحثيث إليهن لم يكن إلا جسرًا يعبرنه نحو آخرين، لكنهن فى النهاية يبدين له الود، بعضهن يأنسن إليه، يفضين إليه بأدق أسرارهن، مهما أبدين الجفوة، ويقدر تقلبه وتنوع علاقاته، فلم يعرف وهجًا داخليًا مثل ذلك المنبعث من عاهرة تجاه رجل تخصه وتؤثره. لكم عرف منهن كشوفات من الشهامة والإخلاص، أكثر من بعض المتمكنات من واجهة المجتمع.. أى حظوظ؟!

إنه مُلم بما يقال عنه، لكنه لا يعبأ، ليس لأن وجهه مكشوف، إنما لإشفاقه على من لا يدرك متعته التى يلقاها. يثق أن صفية ستنتهى إليه يومًا مهما طال مكثها فوق، ينتظرها معه برنامج حافل، معها يمكنه الوصول إلى ما لا يتصوره عقل، إنها متعددة الزوايا وما عرفه عنها مذهل، مثير، وما خفى كان أعظم، فليتوقف لحظات عند الظاهر منها.

حالة خاصة هى؟

نعم..

قوامها فاره، يسرح، لونَه، لا يمكن تحديد مركز معين لجمالها، معظم من عاينهن أدرك نقطة معَينة بمثابة بؤرة، صفية كلها محيط، حضورها ساطع، عيناها محددتان، فسيحتان، نظراتها دفاعية، متراخية، وإن بدت هجومية باستمرار، تدعى الجرأة، تخفى رغبة فى الاستسلام لكن.. بشروط، ثمة كمون آخر، طاقة غامضة تجعلها مشعة باستمرار، مُلهبة للرغبة، محفزة للتوثب، أنوثتها ذات أريج إلا أن مسًا ذكوريًا يلوح، يتأجج تحت سطحها الناعم.

لن ينسى أبدًا شابة مقطرة عرفها منذ سنوات، كانت تسكن حارة

ضيقة وراء مسجد ابن طولون، فقيرة، مزدحمة . . حقًا . . سبحان منبت الورود من الطين، زهرة بحق، لا ترد على مخيلة إلا محفوفة بالنرجس والياسمين والسكر المعقود، تأخذه رعدة إذ يستدعى انفراجة شفتيها . . فقط تطلعهما وتلهفهما . وذلك الضوء المستور الذى يسرى عبرها، يتزايد مع تصاعد النشوة. كان اسمها ثريا بحق، غالبت الجوع والمرض والبنية غير المساعدة ونفرت متوردة، سخية، مودعة كل لحظة بهجة مغايرة.

لا يدهشه ذلك، عرف معوزات، مدقعات يتجاوز جمالهن كل توقع، خاصة زمن الفتوة والارتقاء، لكن . . لا يتحقق الاستمرار، سرعان ما يأفل. تمامًا كريحان المقابر، سخى الرائحة لكنه قصير العمر.

لكى يصل إلى ثريا قطع أربعين ساعة من الجهد المتصل الموزع على ثلاثة أسابيع، أما التمكن والتليين فاقتضى سنة كاملة، ثم بدأ غيره يستنشقها، مرة برقة، ومرات بغلظة.

الحق . . إن هواه مال إليها، رغبها، حال نادر لم يعرفه إلا مرات معدودات، أول من تسلمها ثرى عربى ذو مكانة، لم يبخل، غمره بالهدايا، عرض عليه وظيفة مغرية فى بلده، مرتبها مرتفع لكنه اعتذر بلطف. صحبها معه إلى الإسكندرية وسر بها، لقى فى جمال حضورها، ورقة مطلعها مع خشونة صوتها ما بحث عنه طويلاً.

إنه اجتماع الضدين، أما يداها فرآهما كما يرغب ويتمنى، أصابعهما نحيلة، مسحوبة، راحتاها مثل القطايف، ممتلئتان ناعمتان، قبله بين عينيه قائلاً: أنت تعرف ما أبغى وكأنك شفت أفكارى، زين والله، زين والله.

غير أنه أراد منها أموراً لم تسمع بها قط، حتى فى أدق حواراتها سرية مع نساء الحارة، لم تفض إليه بأى تفصيل، وعندما سألها النمرسى عما إذا كان أتاها من خلف، دفعته بأسى. قالت: إن هذا أهون ما حصل. تعجب النمرسى، لكنها لم ترض فضوله، تحملت واستجابت لحاجتها وأملها فى ادخار صدفجى شاب يعمل بخان الخليلى، جدع وأمير وابن حلال، يهواها وتهواه، تريده ويريدها، يحاول جاهداً إدخال مبلغ يدفعه كخلو لغرفة تتبعها دورة مياه مستقلة فوق سطح مبنى من ثلاثة طوابق فى درب الجماميز، فقط خمسمائة جنيه، بدرت لنفسها ما أقدمت عليه بعد تعرفها إلى النمرسى وثقتها به، قالت إنها بمجرد إمساكها بالمبلغ ستتوقف تمامًا. لكنها لم تكف. ولم ترتبط بالصدفجى رغم أنها حصلت على أضعاف النقود وهدايا عديدة، أما الأسباب التى حالت بينهما فعديدة يطول شرحها.

ترى.. أين هى الآن؟

أين مرساها؟

ماذا فعل الزمن بها؟

كان لها وهج رغيف الخبز الطازج، الخارج لتوه من الفرن، أما خصوصيتها فمصادرها متنوعة، متعددة، نضارتها، حيويتها، صوتها وبحتها الخشنة، حور عينيها، بالضبط.. كأنها صفية!

رغم تعدد من قابلهن وأدارهن كاللولب فى يده، إلاَّ أنّه يستعيد ملامحها، قويت عنده بعد رؤيته صفية، خشونة مع أنوثة، اجتماع الضدين فى كيان واحد.

إنه سر توهجهما.

أنوثة فيَّاضة، وفتنة شذاها ذكورى.. أى ندرة؟

فى مواجهة مثيلاتها يبزغ فضول مصدره محاولة إدراك ما لا تلمسه الحواس، هوى كامن يصعب الإفصاح عنه، تبدو صفية جادة، صارمة الخطى والنظرات، حريصة على مسافة بينها وبين الآخرين، غير أنها تخفى هشاشة تنهار عند أول اتصال بمن تهوى، فتنتقل من نقيض إلى نقيض.. وهذا عجيب، مثير.

فى البداية توقع أنه من المحتمل نفورها من طلبه، إدراكها غرضه الحقيقى الخفى، لكنها أومأت مجيبة، محايدة. فى اليوم التالى تطلعت إليه بحدة سافرة واستجابة فياضة، قالت إنها ستغادر إلى الطابق الثانى عشر لتكون المسئولة عن العلاقات العامة لمكتب سعادته، منصب لم تعرفه المؤسسة من قبل، يسرها أن تشغله، إنه جزء من مجموعة إجراءات لتحديث الإدارة والانتقال إلى القرن الحادى والعشرين الذى أصبح على الأبواب.

تتعدد المواقف، تتنوع اللحظات، لكنه لا ينسى أبدًا تلك الفاصلة، عندما استجابت لاقتراحه بطلوعها لإجراء الحوار، بسط يديه، خافضًا رأسه بميل، حركة تتضمن معانى عديدة، نصح واعتراض، وصية وأمنية ما، أتقنها وتفنن فى إبدائها بما تحتويه من بداية سطوة.

حقًا.. مهما اختلفن، مهما تباعدت مستوياتهن الاجتماعية، أو اختلفت أمزجتهن تتشابه ردود أفعالهن تجاه تلك اللحظة، مهما بدا رد الفعل خافتًا فله أهمية عنده، ذلك أن البدايات تحدد نوعية المسارات

وأحيانًا النهايات. كما أنها إحدى مصادر متعته وزهوه الداخلى عند الانفراد، لحظة يعرفها كل قواد متين، عند الانتقال من التودد والتمسح والتحايل، من الترغيب أو الترهيب أو المحايلة إلى الرسوخ والتمكن، إلى ثبات أمره حتى وإن لم يقع التصريح علنًا، له هنا تجارب عديدة، تذهل من يصغى إليه لو باح وأفشى.. لكنه كتوم بطبعه، لا يفشى إلا بقدر، وإذا أقدم فلغرض.

قال بهدوء المتمكن:

«بعد غد.. اطلعى إليه الثلاثاء صباحًا..».

قال «اطلعى»، أى إليه هو، إلى رجل بعينه، لم يصفه بسيادته، إنما نطق كلماته مجردة، محتوية على درجة من عدوانية وقصد الإهانة، هكذا..

لكم بذل جهداً ومشقة فى استقصاء أحوالها، لكنه يعرف أن كل ما يقف عليه لا يضيع، لا يتذرى هباء، كل أمر وله وقته، وكل تفصيلة لها أوانها.

عندما أفضت إليه بوضعها الجديد، قابل تحديها بهدوء، لم يظهر انزعاجًا باعتبار وضعها الجديد يتضمن قدراً من المنافسة له، بالعكس.. أوحى إليها أنها ستكون سنداً له فى وضعها الجديد.

يمكنه الاطمئنان الآن، أن يرقب ما يجرى، لكل مرة يجمع فيها بين اثنين متباعدين ظروف مغايرة، لا تتشابه تجربة مع أخرى، إنه يغلق المكتب، يغمض عينيه، ترى.. ماذا يجرى فوق؟

هل يعيد الرئيس الجديد عصر المؤسس عندما كان يمارس الجنس خلال ساعات العمل، وله في ذلك نوادر وحكايات ما تزال تتردد في المؤسسة. ترتفع كتفا النمرسى، بينما تغوص رأسه بينهما حتى يلامس ذقنه صدره، تتشابك أصابع يديه، يتخذ حضوره وضعًا كرويًا. يتخيل أوضاعًا شتى، واستجابات تتناسب مع هيئتها. كاذب من قال إنهن يتشابهن فى العتمة، هذا قول جاهل بجنس الإناث، كل منهن كون قائم بذاته. حقًا.. لكم رأى وسمع غير أن متعته فى تخيل ما يجرى.

نادرات اللواتى حركن رغبته، يجب أن يعترف بفيض صفية عليه، هذا القوام الفاره، وذلك الانفجار المفاجئ أسفل ظهرها، المستمر، المتحدى، السافر والذى يشد أخمص بطنها. إن رؤيته متجردًا متمددًا، مستسلمًا، ممهدًا لأمر يستحق المخاطرة.. لكن، ليحذر، ألا يتمادى حتى عبر أفكاره غير المنظومة. بل لينتبه، وليتقصى الأخبار من بعيد كأى غريب.

الحق.. أن رسوخها وتمسكها بسرعة أثارا إعجابه ودهشته. دخولها الصباحى من البوابة الرئيسية علامة، ولحظة مؤسسية مهمة، يتردد صداها فى المبنى كله، تتجه مباشرة إلى المصعد الخاص الذى يتوقف مرة واحدة فقط.. فوق.

بعد أربعة أيام من تسلمها مهام منصبها الجديد فارق الأشمونى مكانه، تقدم بتؤدة، متزن الخطى، صحبها مرحبًا:

«صباح الخير يا هانم..».

تقدمها بخطوتين محسوبتين لهما معنى واعتبار مفسحًا الطريق، وهذا

لا يحدث إلا مع كبار الزوار. فتح باب المصعد وانحنى ثم أغلقه، لم ينصرف، إنما انتظر حتى انطفاء الضوء الدال على وصوله.

عندما أنهى البعض ما جرى إلى الجواهرى فى مجلسه بمقهى رشيدة السويسرية وقعت داخله هزة مع أنه ظن تعايشه واعتياده نزول الدواهى.

الأشمونى يفتح الباب لهذه البنت!

أمر فيه قولان، إذ جرت العادة على إبداء هذا التصرف لذوى المكانة وعظماء الرتبة، أولهم المؤسس. الثانى.. هوان الأشمونى نفسه ونزول قدره. إنه من العلامات، أمره معروف مثل عم صديق النوبى، وحسان الحلاّق وغيرهما، بل إنه الوحيد الباقى، والمحزن أنه لم يتلق أمراً أو توجيهًا إنما أقدم على ذلك تلقائيًا، بدون توجيه، لكن الأشمونى يدرك مسار الريح، يعرف ما يجرى داخل الغرف المغلقة من موقعه المتقدم، حقًا.. لكم رأى وسمع، مر أمامه حفاة، شبه عراة. بعضهم جاء يستجير ويستنجد، ثم نفذوا إلى المؤسسة بطرق شتى، منهم ممثلون لها فى الخارج ومن يتحرك بحرس خاص. ومن يودع أمواله فى بنوك سويسرا، إنه يعرف دخائل العابرين من إيقاع خطواتهم، من إيماءاتهم، بل إنه رصد الموت متمكنًا من بعض الساعين، الذين نال الوهن وبدا البلى فى خطواتهم وبان الفناء.

لكم رأى، ولكم أدرك وفهم.

مكانة صفية لم تعد خافية عليه، ما من أمر يبقى سراً، معروف الآن دور النمرسى فى صعودها، ترتيبه الظروف بحجة إجراء حوار إعلامى مع سيادته، لكن.. المهمة العابرة أصبحت دائمة. لم تعد انتشار

القليوبي الصوت النسائي الوحيد المسموع في الطابق الرئاسي، بل . .
يبدو واضحًا أنها تفقد نفوذها أو تتوارى عامدة، هي ملمة بكل كبيرة وصغيرة عن سيادته، سنوات أمضتها على مقربة منه، تقف على مزاجه وتحولاته وتقلباته، لم يشرب الشاى إلا من يدها، تعده في مكتبها، تدخل في اللحظة المناسبة لتوقفه عن تدخين السيجار إذا تجاوز الأنفاس التي حددها له الطبيب. المؤكد أنه لم يقربها، لكن الموثوق به أنها تهيئ بعض الظروف اللازمة لتسهيل علاقاته بأخريات، إنها الملمة بكافة التفاصيل عنه، المتفهمة لمزاجه، المتوقعة لتقلباته وقراراته المفاجئة، تمت إليه بصلة قرابة لكن اختلف حولها. صفية أيضًا لم تبادر بإظهار عداء من أى درجة، انتشار لم تطمئن إليها، إنها ساعية إلى نفوذ، سيادته بالنسبة لها وسيلة، في لحظة معينة بدأت انتشار انسحابها الهادئ، تعرف التوقيت الملائم لابتعادها، لم تبد أى احتجاج، أو ما ينم عن ضيقها، بل أطلعتها على كل ما طلبته من معلومات، ومالم تحط به علمًا ويسهل إقامتها في الطابق الثاني عشر، لكنها أخفت أمورًا أخرى بالطبع، لا يمكن أن تفض مغاليقها إلا بأمر مباشر من سيادته، بل . . وكتابي في بعض الأحيان.

يومًا بعد يوم، بدأت أمور عديدة تتكشف للأشمونى من خلال رصده لأمور تبدو ضئيلة جدًا غير ذات أهمية بالنسبة للآخرين، من توجه النظرات، من توالى الخطى، من الملامح، من إطراقة الرأس، شتان . . ما بين دخول صفية الآن وظهورها من قبل، عندما كانت تقبل مترددة، متمهلة، قصيرة النفس، تتجه إلى ساعة التوقيعات، تخرج قلمها، تبدو مرتبكة، عيون كثيرة مصوبة إلى قوامها. تتحسس ردفيها، تشتهى

حضورها، سطوعها، تمسك المقبض بيد وتوقع بالأخرى، ثم . . تنتظر دورها فى الطابور أمام المصعد .

الآن . . لا يجرؤ إنسان على إطالة النظر إليها، يُفتح باب المصعد بمجرد اقتراب العربة المخصصة لها أخيراً، يابانية الصنع، يتكرر الإعلان عنها مؤخراً فى الصحف الأسبوعية وعقب نشرة الأخبار المسائية . تم شراء ثلاثة بالأمر المباشر الفورى، وقع عليه البروفيسور بتعليمات فورية من سيادته، ثم اتصل بها وأبلغها باسم السائق، استفسر عما إذا كان لها طلبات معينة فأوصت بتلوين الزجاج، وفاصل بين المقعد الخلفى والأمامى يرتفع تلقائيًا باللمس . قال البروفيسور إنه بذل جهداً حتى حصل من المرور على لوحة ذات رقمين فقط، ومثلها يحتاج إلى تصريح من أعلى قيادة مرورية، كل من له إلمام بالأعراف غير المدونة يدرك أن مثل هذه المركبة تمت إلى ذى حيثيّة .

يخشى الأشمونى انعكاس دهشته على ملامحه، رغم إتقانه الكتمان والظهور بخلاف ما هو عليه، لكنه لم ير رجلاً أو امرأة، تولى السلطة من قبل فى أى درجة وظهرت عليه أعراضها بسرعة مثل صفية . بعد أيام ثلاثة فقط بدت وكأنها مولودة فى الطابق الثانى عشر، كأنها رضعت أسرار المظاهر والكوامن الرئاسية منذ صغرها .

خطواتها الآن أقصر، أسرع، التفاتاتها أقل، ألفاظها شحيحة، تومئ، تشير بسرعة، لكن فى حسم وقوة، شيئًا فشيئًا بدأت تحيط بها تلك الهالة الخفية التى تؤطر وجوه ذوى المسئوليات الجسام، الغريب . . أن مظاهر هذا كله لم تكن مفتعلة، إنما بدت عتيقة، مؤصلة، النظر إليها تحفه المخاطر الآن، لم يعد الأشمونى قادراً على قنص بصة تحوى ردفيها

المدويين لاستعادتهما عند بدء خلوته، بل إنه كفَّ عن تخيلها عارية أو فى أوضاع تؤججه وتهدئه أيضًا.

خلال أيام معدودات لم تتجاوز سبعة تضاعف بريدها مرات، سواء الذى يتسلمه مكتب المؤسسة الواقع فى الطابق الأول ويتناوب عليه منهم اثنان قدامى، أو الخطابات التى تسلم باليد إلى مكتب الاستعلامات الخفى، له مدخل خاص للحد من تردد الغرباء على المقر، وينبه الأشمونى دائمًا إلى الحس الأمنى المرهف لدى المؤسس منذ زمن مبكر، بل إنه نبه إلى ضرورة فحص الطرود خاصة والرسائل عامة. بالطبع تطور الأمر مع الزمن. ومع تعقد الأوضاع وظهور الجماعات الإرهابية، والتهديدات مختلفة المصادر.

الآن.. لابد من المرور بمرحلتين، الأولى تأمينها بعد الكشف عليها بأجهزة خاصة تتبع جهازالأمن المؤسسى خشية احتواء بعضها على مواد ناسفة أو أوراق مسمومة أو منشورات معادية، هذه الإجراءات المتشددة بدأت خلال العامين الأخيرين، ثم تزايدت وتعقدت مع ظهور التحديات الأصولية، وتضاعفت المهام، وتم استيراد عدد غير معروف من البوابات الالكترونية، والأجهزة الدقيقة. لا أحد يقف بالدقة على تكاليف العمليات الأمنية، إنها غير معلنة وتحيطها سرية بالغة.

الثانية، مرور الخطابات على الأشمونى أو أحد مساعديه أثناء غيابه للوقوف على علاقات العاملين، معظم البريد المسلم باليد يحتوى على رسائل عاجلة أو دعوات من شركات أو مؤسسات أخرى أو سفارات وهيئات دبلوماسية، لحضور حفلات إستقبال أو معارض فنية، أو عروض سينمائية أو مسرحية أو موسيقية، كذا حفلات الخطوبة

والزفاف، ومظاريف مفتوحة تضم إعلانات عن سلع معمرة تباع بالنقد والتقسيط.

للأشمونى خبرة طويلة، نادرة، يدرك من خلالها كنه الصلات، يتقن الربط بين العناصر الخفية، بل يمكنه استنتاج مضمون الرسالة بالنظر، كثيراً ما دُهش المؤسس - وخلفاؤه من بعده - للنتائج التى يتوصل إليها.

طوال السنوات الماضية لم تتلق صفية إلا أربع أو خمس دعوات، ثلاث منها لحفلات عُرس. واحدة توقف أمامها لكنه لم يعرها اهتماماً ولم يتحدث إلى أحد بشأنها، دعوة لحضور افتتاح معرض لقطع غيار السيارات العاملة بالطاقة الشمسية، لماذا حفظ عنوانه بالدقى؟ لماذا لا يرد اسم صفية على ذهنه إلا ويتذكر تلك البطاقة، والطاقة الشمسية؟ لا يدرى، ولا يمكنه القطع. للذاكرة أحوالها.

الآن، يصلها أكثر من عشرين مظروفاً أنيقاً يومياً، عشاء، خطوبة، زواج، عرض فنى، عيد وطنى تقيمه هذه السفارة أو تلك. من الصعب عليه ملاحقة كل ما يصلها الآن، بل إن بعض هدايا المؤسسات والسفارات بدأت فى التدفق.

جرى هذا كله بسرعة أذهلته، رؤساء القطاعات المختلفة بدأوا يدركون أهمية وضعها، القرارات المؤثرة تمر من خلالها، بل يقال إنها بدأت تشارك فى اتخاذها أو صياغتها على الأقل، تردد ما هو أكثر أنه منحها حق التوقيع بدلاً منه بالنسبة لبعض المستويات والمعاملات، وهذا ما لم يحدث من قبل.

إن حساسية القيادات عالية تجاه الأشخاص الذين يدخلون أو يقتربون

من الدائرة الضيقة المحيطة بسيد الطابق الثانى عشر. صفية الآن فى عين البؤرة. طبعًا جرى همس ناء، جد خافت، هل يضاجعها فوق؟ هل يخلو بها فى المكتب الدائرى؟ معظم العاملين يجهلون محتويات الطابق بعد التعديلات التى قامت بها الشركة الكورية، يكفى أن سيادته يدخل ويخرج بدون أن يرصده أحد وهذا ما حير الأشمونى وأرهقه واعتبره نذيراً بزوال وقته.

ما أثار قلق بعض القدامى أنها المرة الأولى التى تنفرد فيها امرأة واحدة بسيد المؤسسة، المتصرف فى شئونها ومصائر آلاف العاملين، صحيح أن المؤسس عرف عنه عشقه الإناث. لكن علاقاته كانت متعددة، عابرة، عدا حبه الأول المعروف، لم يسمح باستقرار إحداهن قربه، كان يأتيهن وكأنه يقضى حاجة تؤرقه، رغم انتماء من عرفهن إلى أرقى مستويات المجتمع، وبعضهن أميرات من العائلة المالكة، وأموره فى ذلك معروفة، يطول تفصيلها.

لكن. . الأحوال تبدلت، ها هى امرأة شابة غامضة الأصول والمصادر، لم تبتكر جديداً، ولم تخطط لمشروع يضيف ربحًا، ولم تتقدم بوسيلة توفر بها الإنفاق فى مجال معين، موهبتها فى ردفيها، صعدت بسرعة إلى الطابق الرئاسى لمجرد إعجابه بها، حتى جمالها لم يلق إجماعًا من الرجال أو النساء كما هو الوضع بالنسبة إلى هانم الدمياطية، الراسخة، متينة الفتنة، فيَّاضة الأنوثة، يرى البعض أن صفية أطول مما يجب، وعندها عين أضيق من الأخرى، غير أن أحد العاملين القدامى سخر من الملاحظة الأخيرة، وقال إن ذلك يعتبر من علامات الحسن، ويعرف عند العرب بالحور.

على أى حال . . صفية متمكنة الآن، تنهى وتأمر وتوجه وتوقع، وتبدى ملاحظات ترتجف منها شوارب متينة فرقًا، بل بدأت تتحدث إلى المؤسسة كلها عبر شبكة الاتصالات الداخلية، المسموعة والمرئية. تظهر فى أوقات غير متوقعة على الشاشات المركبة فى القاعات والمكاتب الرئيسية وغرف المقر والفروع التابعة ومواقع العمل الثابتة والمؤقتة، والمنتشرة قبلى وبحرى وفى عمق الصحارى حتى منطقة جبل العوينات قرب أقصى الحدود.

أحيانًا يتردد صوتها عبر مكبرات الصوت الخفية، يسمعها الجميع تفضى إليهم بأرقام تحققت أو قرارات صدرت، أو تشغيل ماكينات مستوردة أو توزيع حوافز طارئة نتيجة عملية ناجحة أو صفقة تم التعاقد عليها.

الحق أن معدل صرف الحوافز تزايد بشكل لم تعهده المؤسسة من قبل. فسر البعض ذلك بإعلاء شأن صفية لكى ترتبط عند العاملين بالأخبار السارة، وقال آخرون إن الأوضاع المالية ليست بالازدهار المعلن، وأن مصاعب شتى تواجه الإدارة، وأن سحبًا متواليًا على الكشوف تم، القروض تضاعفت.

الجواهرى قال معلقًا إن الحوافز المستجدة إنما جزء من الأرباح التى بدأت تحققها مشروعات بعيدة المدى التى وضع بداياتها المؤسس رحمه الله، وما يتقاضاه العاملون مجرد فتات. أما الجزء الحقيقى من الأرباح فيمضى إلى حسابات سرية خاصة فى سويسرا، بالتحديد فى مقار البنوك بمدينة بازل.

السر فى العمولات . . السر فى العمولات: يردد الجواهرى.

غير أن تردد صوتها بدأ يتخذ أبعاداً أخرى، إنه ينتشر فجأة، فى أى وقت، بغتة يتردد ذلك الصفير الخفيف الممهد له ويعنى فتح أجهزة الاستماع.

تبدأ عادة بذكر توجيهات سيادته، ومجهودات العاملين فى الالتزام بها، ثم تحيد إلى موضوعات عامة، سياسية أو اقتصادية، وتتطرق إلى علاقات المؤسسة بالبنك الدولى، ومنظمة الجات، والسوق الأوروبية المشتركة، وتتعرض أحيانًا لأسعار العملات، ومقتنيات المتاحف، والتطورات المستحدثة فى أجهزة الطب، والهندسة الوراثية، وتضرب الأمثال بازدهار جزيرة سنغافورة، والنمور الآسيوية الأخرى، والطفرة المتوقعة فى اقتصاد دول البينولكس، إضافة إلى اليابان والصين، ثم تتناول التاريخ فتذكر أسبابًا وتبرر أوضاعًا. مع قدرة غريبة، غير مبتذلة على رصد هذا كله بالمنحة التى صرفت مؤخراً بتعليمات من سيادته.

يتردد صوتها بإصرار لا يمكن التأثير فيه أو التقليل منه، مفاتيح مكبرات الصوت مركزية، كذلك أجهزة التليفزيون الداخلية، يختلف الإصغاء إليها من شخص إلى آخر، بعضهم عبَّر علانية عن ضيقه باعتبار ما تقوله دعاية مبتذلة، آخرون قالوا بتكفيرها، ذلك أنها تتعمد الكلام وقت الآذان وتستمر، ألا يكفى ما يشاع عما يجرى فى الطابق الثانى عشر ورائحة النجاسة التى تتوج المقر الأصلى؟ بعضهم أضمر إعجابًا خفيًا وتوقًا إلى الإصغاء، منهم البروفيسور الذى يميز تمامًا بين النغمات والدرجات، تدغدغه البحة الخشنة، يتأثر بها إلى حد الرعدة، والارتخاء، مثله كثيرون، لكنهم لا يجاهرون خشية وحذراً.

الموظفات والعاملات التفتن أكثر إلى الأزياء التى تظهر بها وقطع

المجوهرات الثمينة الحقيقية، بعضهن سجلن أوصاف القمصان والمناديل، وتأكد عندهن أنها لا تكرر ما ترتديه، لا تظهر بفستان واحد مرتين.

كم يبلغ حجم ملابسها؟

من يدفع؟

عريس الغفلة أم مصادر سيد الطابق المأمول؟ أم ثمة من يختفى بعيداً فى خلفية الصورة؟

كثيرون يذكرون أول ظهورها، عندما خطت لأول مرة هنا، لم تكن ترتدى إلاّ بنطول جينز أزرق، لكن.. أى جينز؟ أى بنطلون؟ أى قوام؟ يتمنى حلمى الحمامى سكرتير شئون العاملين علانية.

«ليتها تجيء ولو مرة كما ظهرت ذلك اليوم..».

قوام صاعد، واثق، مؤخرة مستفزة، محرضة، ذات وضع خاص، فخذان منبسطان، مستديران، وصدر مشرع، يفز من القميص، لم تمر بمكان أو فى مواجهة عينين إلا وتعرضت للرشق البصرى، أثار ذلك بعض النساء، ويؤكد الكثيرون أن هانم الدمياطية التى كانت تشغل وقتئذ منصب رئيس قسم استدعتها، وتأملتها مليّا، أبدت إعجابها بقوامها، لكن الحضور إلى المؤسسة له أصول، مثل هذا البنطلون مكانه النادى أو الخروجات الخلوية. أبدت صفية احتجاجًا، تحدثت عن بساطة الجينز وإقبال الشباب عليه، إضافة إلى احتشامه، ضحكت هانم بهدوء، قالت إن المثل الذائع ينصح بأكل ما يعجبك وارتداء ما يعجب الناس. ورغم عنادها إلا أنها امتثلت ولم تظهر فيه حتى الآن.

رغم إعجاب هانم بجمالها إلا أن صفية شالت منها، يبدو أن الموضوع أقدم مما تردد مؤخراً عن وشاية مؤداها أن بعضهم نقل إلى صفية تلسين هانم عليها، ومن ذلك تأكيدها جهل صفية وعجزها عن صياغة جملتين مما تردده، وأنها مجرد بوق لما يكتبه سيادته بنفسه، وأن صوتها مزعج يشبه وحوحة ذكر البط المعلق من ساقيه ورأسه إلى أسفل.

صوتها مثل ذكر البط!

ستدفع هانم ثمن هذا الكلام الفارغ. لكن يؤكد البعض أن هانم سواء قالت أو لم تقل فإن صفية متربصة بها منذ تمكنها، يبدو أنها لم تنس اللقاء القديم، ربما لأن المقارنة تجرى دائمًا بين هانم وصفية. أيهما أكثر أناقة؟ أيهما أجمل؟

تجرى المقارنة مع أن فارق العمر بينهما لا يقل عن خمس عشرة سنة، هذا يعتبر إعلاء من مرتبة هانم، بل إن كثيرين يعتبرون حضورها المشع، الهادئ، الفواح، وملامحها الرانية، العذبة، هى المرجع والقياس.

لكنَّ نذراً عديدا، ودلالات شتى يدركها العارفون، كانت تشير إلى هانم باعتبارها هدفًا رئيسيًا لصفية، وكان النمرسى من أكثر المهتمين بالرصد والمتابعة، من يدرى.. ربما تنجح صفية فى إذلال ذات البهاء الملكى، المستعصية، المنيعة، من يدرى.. ربما تدفع بها صفية إلى حال تصير فيه طيعة، تطالها يديه..

حكاية العرية الملكية

من الثابت المقطوع به أنه ما من إشاعة تسرى إلا ولها أصل فى الواقع بدرجة ما، المهم. . ما ثبت الآن أن النفار بين صفية وهانم يرجع إلى لقائهما الأول. كان ارتداء البنطلون الضيق غير شائع وقتئذ، أثير الأمر على صفحات المجلات والصحف عندما دخلت طالبة إلى الحرم الجامعى مرتدية ما اعتبره العميد والأساتذة تجاوزاً، دافع بعض كبار الكتاب عن حقها فى ارتداء ما ترغب طالما أنها لم تكشف عن مساحات أكثر مما يجب من جسدها، رد آخرون قائلين إن البنطلون المحزق يظهر أكثر مما يخفى وأطلق عليه أحدهم «العُرْى المستتر».

ظهرت صفية وأصداء تلك المناقشة ما تزال فى الأذهان، بل قال بعضهم إن الطالبة التى أثارت تلك الضجة وقابلت كبار الصحفيين فى «أخبار اليوم» ودار «الهلال» ما هى إلا صفية شخصيًا، لكن. . لم يهتم أحد بالتحقق من ذلك، خاصة بعد شيوع ارتداء الإناث للبنطلونات وانتشار ذلك.

بشكل عام لا يكف الهمس حول النساء فى المؤسسة، خاصة الجميلات منهن أو من يتمتعن برمق، بالطبع. . نصيب الحالات الاستثنائية أشد، ظهور صفية أثار تعليقات شتى. بعض الرجال، خاصة

فى مواقع الإدارة العليا يؤثرون إشاعة تعدد علاقاتهم، مع كثرة الحومان ورصد الاستجابات، مع اللف والدوران حول هذه أو تلك تلمسًا لثغرة يمكن توسيعها والنفاذ منها.

آخرون يتمنون ويحلمون، يهمسون بأدق التفاصيل حول هذه أو تلك حتى ليصل الأمر إلى الخوض فى العادات والخصائص، مثل نوعية التأوهات، وكيفية الاستجابات أو سرد التفاصيل الخاصة بصلات أصحاب النفوذ بالحسناوات. أما النساء فيجدن إخفاء ما يضمرن. إنهن أشد فضولاً من الرجال تجاه سلوك زميلاتهن، بل يتبادلن فى جلساتهن الخاصة إذا ما توافرت لهن العزلة والطمأنينة ما لا يتصوره خيال الفسّاق من أصحاب المجون.

ثمة أسباب أخرى عند الطرفين لرصد العلاقات وتصنيفها ومتابعة تطوراتها، منها مدى قرب البعض من أصحاب النفوذ، من أصبح فمه أقرب إلى أذن هذا أو ذاك من الكبار، من يمكنه الهمس مباشرة فى أذن سيد الطابق الثانى عشر أونوابه؟ إن قصر المسافة يحدد المرتبة فما البال إذا اجتمع الهمس باللمس بالضم؟

صفية الآن متحفزة، ما عليها إلا اختيار الوسيلة الأشنع.

لم تسفر عن بغضها إثر اللقاء الأول، لكنها لم تترك فرصة تمر إلا وحاولت النيل منها، قالت مرة معلقة على حوارهما الأول إن هانم طلبت اعتبارها مثل أختها الكبيرة.

«أختها؟».

أضافت مستنكرة، متهكمة:

«إنها فى سن أمى . . ».

قالت زميلتها سامية المنوفى متراجعة برأسها، مقوسة حاجبيها:

«لكنها تبدو صبية يا صفية يا أختى . . صدرها مشدود، كأنها بكر . . ».

أشارت صفية إلى وجنتها:

«الشد وعمليات الشد . . وحياتك كله صناعى . . ».

ثم أضافت:

«شوفى ابنها . . فى كلية الصيدلة آخر سنة . . احسبى عمرها بقى . . ».

عندما لاحظت حذر سامية وحرص الأخريات على عدم المس بهانم، لزمت الصمت، لكنها استمرت فى الغمز واللمز كلما سنحت الفرصة، عداء شديد مع أنه ما من نقطة تلاق بينهما، صفية موظفة صغيرة، هانم مخضرمة. تلك فى قطاع وهذه فى آخر، ما من نقاط تماس بينهما. برغم ذلك شغلت صفية بغريمتها التى أمضت ليالى طويلة ترتب الانتقام منها، أو إذلالها بحضور آخرين، تضطرها إلى التخلى عن كبريائها البادى وهيئتها الملكية ومهابتها الأصلية كما يصفها دائمًا الجواهرى العجوز المخرف، نزيل المقهى، تضطرها إلى الانحناء أمام جمع غامض لا تتبين ملامحهم تمامًا ولا تقف على هوياتهم، لكنهم يتطلعون إلى انحناءة هانم ومحاولتها تقبيل يد صفية ملتمسة الصفح. ليال عديدة تقلبت مرات حتى جفاها النوم، بينما الصور تتعاقب عليها حتى طلوع النهار وهى

حانقة، وتفيض غلاً، تضطر إلى بدء عملها اليومى مرهقة، تتوعدها، تتجه عصراً إلى صاحبها الرسام، تستلقى على راحتها وتسب هانم التى لم يلتق بها قط .

فى اليوم التالى خلعت البنطلون، جاءت مرتدية ثوبًا عاديًا، محتشمًا إلى حد ما. ظنت تحذير هانم ذا صفة رسمية، لم تكن أطلعت بعد على الخبايا وعلاقات الأطراف المختلفة ببعضها داخل المقر، لو اتضح لها أن موقف هانم شخصى بحت لما استجابت ولجاءت صباح اليوم التالى فى بنطلون حريرى تؤرخ أيام المؤسسة بظهوره، لكنها كانت ما تزال فى البداية مثل القطة معصوبة العينين فى مكان لم تعرف بعد مخارجه من مداخله!

لكن. . هل ثمة أسباب مجهولة، خفية لتلك الكراهية التى أصبحت سافرة، مهيمنة، لافتة للقاصى والدانى بعد أن طمت وعمت من الطابق الثانى عشر؟

التخمينات عديدة، متضاربة، عطية بك له رأى، أفضى به قبل المحنة التى دفع نفسه إليها وزج بالعاصمة فى وضع غير مألوف، غير مسبوق، وأدخل فى قاموس المصطلحات السياسية تعبيراً جديداً هو «محاولة الانقلاب المرورى. . ».

يرى عطية بك أن سبب تلك العداوة السافرة بينهما تمتع كل منهما بجمال نادر، فريد، وحالة خاصة من الحضور الأنثوى الفعال، يقول عطية بك بتمهله المجرب، المتقن إن هانم اعتبرت من بواعث البهجة لسنوات طويلة، حتى قيل إن حضورها يرطب المقر، ويرقق النفوس، ويجعل كل إنسان حريصًا على تعامله مع الآخرين، على مشيه، مع أن

حركتها فى المبنى محدودة بحكم مقتضيات وظيفتها، لم تكن تنتقل بين الطوابق أو تعبر الممرات إلا لحضور مؤتمر أو اجتماع طارىء.

هانم.. هانم فعلاً.

بهية الطلعة، عندها قبول، يتقدمها حسن فواح، إذ ينظر إليها المرء يلم بوجهها، بألق عينيها، بزمة شفتيها، تضفى حلاوة على مخارج ألفاظها وسكون حركاتها..

لا.. ما من مجال للمقارنة.

يقول عطية بك إن المتطلع إلى هانم يتعلق بوجهها، بعينيها، بالفراغ الدال حولها، أما صفية فمن يواجهها يُقابل بحض خفى على النظر إلى أسفل!

هانم.. لا يرد ذكرها إلا ويلوح إعجاب خفى فى العيون.

هانم.. يا سلام على رسوخ الحسن، على زمزمة الطراوة، على ألق الزمرد الإنسانى الأخضر، كلما تطلع إليها المرء بان عنصر من جوهرها المكنون لم يرصده إنسان غيره.

لا هى بالطويلة ولا بالقصيرة، حضورها طلى، مثالية القد، متسقة التداوير، تتعاقب مويجاتها كتوالى الليالى والنهارات. يقول عطية بك إن الضيق إذا أحدق به، فإنه يسعى اختلاق حجة ليراها. ليأوى بالنظر إلى ضفافها، يرفع أصبعًا دالة، يقول:

«مجرد طلة.. تنعش العليل».

من عامل الكراج، إلى عامل المصعد، من السعاة إلى مدير القطاعات

والخبراء، لم يختلف أحد حول تقدير جمالها واحترام سيرتها. يعمل زوجها مهندسًا بوزارة الصناعة، فى مجال التخطيط، أصلع، قصير القامة، غليظ الرقبة، أجش الصوت، بادى الطيبة، بعضهم حسده، هل يحتوى هذا الجمال كله؟

الحق.. لم تعرف المؤسسة زوجين متحابين مثلهما، لم تبد ضيقًا منه ولم تلمح حتى كما تفعل معظم العاملات خاصة عند الإفضاء بمكنونهن إلى بعضهن، لم تتحدث عن أبنائها الثلاثة أو مشاكل تربيتهم، إذا سألها أحد عنهم، تومئ برأسها شاكرة، صامدة ولا تزيد، حتى حمدى الإزميرلى بكل نفوذه خلال الحكم الشمولى عجز عن معرفة أى تفاصيل إضافية عن حياتها الخاصة. ظلت منيعة على الجميع، لم تقصر قط فى واجباتها تجاه المؤسسة، لكن ثمة جفوة وقعت بينها وبين حمدى الإزميرلى، لا يعرف أحد تفاصيلها حتى الجواهرى الذى يبحث بهدوء واثق. يبدو أن شيئًا ما جرى لكنه أوقف عند حد صارم. غير أن متاعب جديدة بدأت تحدق بها نم إثر تمكن صفية من الطابق الرئاسى. بانت البوادر التى توقعها كثيرون.

حدث أن اتصل البروفيسور هاتفيًا بها نم وقال إنه قادم إليها ليشرب معها قهوة.. ممكن؟

رحبت قائلة:

«وهل أنت بحاجة إلى دعوة؟».

إنهما زميلان منذ سنوات، لم يحدث بينهما ما يكدر، هذا ما جعل مهمة البروفيسور صعبة لكن.. الشغل.. شغل!

طبعًا لم تفاجأ تمامًا، فعبارة «ممكن أشرب معك قهوة؟»، تعنى أن أمرًا مهمًا سيناقش. لم يراوغ، لم يلف، لم يضيع وقتًا فى التمهيد، ساعده انفرادهما على تدقيق ملامح وإبراز مظهر المجبور. المضطر، غير المقتنع بما يفضى به.

قال باختصار إن ظهور سيارتها السوداء أمام المؤسسة أثار قلق بعض الجهات. يتمنى ألا تسىء الفهم، لكنه يطلب منها رغبة بعض المستويات السيادية فى انتظار العربة خلف المبنى، أو يتم تخصيص سيارة لتوصيلها من وإلى المنزل، هذا حقها منذ سنوات وقد تنازلت عنه لارتباطها الحميم بأوتومبيل والدها الباشا ـ رحمه الله ـ.

بسطت يدها بما يعنى إدراكها المطلوب بالضبط، وفهمها ما لم ينطقه البروفيسور، قال بصوت خافت وبلهجة مفاجئة:

«أنا عبد مأمور يا أستاذة..».

تطلعت إليه بدون انفعال، هذا الماثل أمامها بضعف بيِّن، كان مرشحًا قويًا للاستقرار فى الطابق الثانى عشر! وقوفها يعنى انتهاء اللقاء أو احتجاجها الصامت على الخلفيات غير الممكنة:

«لا تقلق.. سينتهى كل شىء بما يريح الجميع..».

هل أخطأ؟ هل كان مفروضًا أن يبدو أكثر قسوة؟

لكن.. بينهما مودة قديمة، ستفهم مغزى حضوره وتقدره، كان مفروضًا أن يستدعيها، لا يظن أنها ستبوح بما يلحق به الأذى، المناخ متقلب، والوشايات فعَّالة.

المهم. . أنه أبلغ الرسالة وبشكل رقيق يتفق مع زمالته لها و. . إعجابه الخفى بها، لكم استحضر قوامها فى الفراش، ودفع بملامحها عبر وجه امرأته وأشعل مخيلته بوقود حضورها، خاصة قوامها الهياب، النافذ.

هانم أبوها باشا حقيقى، ألغى لقبه بعد ثورة تموز/ يوليو، إنه أغرب باشا عرفته مصر، وما جرى له يضرب البعض به المثل، لم يكن إقطاعيًا، أو سليل أسرة من الأتراك أو مماليك الزمن القديم. . بالعكس. . كان موظفًا بسيطًا فى دار الكتب، يشرف على صيانة مجموعة المصاحف الأثرية المعروضة فى الصالة الرئيسة، وأثناء زيارة الملك فاروق للدار توقف أمام مصحف السلطان برسباى طويلا. لا يعلم أحد. . هل كان ذهنه مشغولاً بتأمل سطور المصحف وزخارف حواشيه، أم شاردًا بعيدًا، هز رأسه فبدأ والد هانم شرحه، ذكر اسم الخطاط، وتاريخ وفاته وسنة فراغه من الكتابة وكيف وصل المصحف إلى دار الكتب الخديوية!؟ هزّ الملك رأسه مرتين.

«جميل. . جميل يا باشا. .».

باشا؟!

ذهل المحيطون بجلالته من أصحاب الدولة والمعالى، مجرد نطقه باللقب يجعله أمرًا واقعًا، قائمًا، لفظه قرار، كلمته سيادة، وهل ينطق كذبًا؟

على الفور بدأت إجراءات منح الموظف البسيط رتبة الباشوية، لم يمض إلا أسبوع واحد. . وكان القرار منشورًا فى الوقائع المصرية، هكذا أضيف إلى قائمة الباشوات اسم جديد يعد صاحبه أغربهم وضعًا. باشا

يسكن شقة قديمة فى إحدى حارات الدرب الأحمر، ويقطع الطريق إلى باب الخلق مشيًا ويرجع ظهراً واقفًا، محشوراً فى الدرجة الثانية للترام العتيق. بذل رئيس الديوان الملكى جهدًا حتى تمكن من إيجاد تبرير قانونى لتخصيص مبلغ شهرى يمكن الباشا الجديد من تحسين أوضاعه إلى حد ما بما يتفق مع الرتبة السامية التى حصل عليها صدفة، وأهداه مجموعة ملابس صيفية وشتوية وتم تخصيص شقة من ست حجرات وثلاث صالات بمنطقة المنيرة القريبة من شارع قصر العينى. لكن أهم ما حصل عليه عربة سوداء، طراز كاديلاك الأربعينى، أهدتها ملكة هولندا الأم إلى صاحب الجلالة بعد انتهاء الحرب، ولم يستخدمها جلالته قط لزيادة وزنه وضيق مساحتها الداخلية، كما أنه اكتفى بالعربات ذات اللونين الأحمر والأسود.

يقول عطية بك معلقًا فى الزمن الرائق المنقضى، إن ما جرى لوالد هانم يذكره بأحد باشوات الصعيد والرولزرويس، وتفصيل ذلك أن باشا قبطيا يمتلك أراضى شاسعة بمديرية أسيوط اشترى عربة رولز رويس فاخرة لتنقلاته، أجزاؤها كافة مصنوعة يدويا، وحدث أن طلب إضافة شىء ما غير أن مندوب الشركة تباطأ عليه، فما كان منه إلاّ أنه أرسل العربة الفردة التى لا مثيل لها ذات المقابض الذهبية إلى ميدان المحطة وقام بتشغيلها كعربة أجرة بالنفر من المدينة إلى قرية درنكة الجبلية. تناقلت وكالات الأنباء الخبر، وشرع بعض المراسلين المقيمين فى المجىء إلى أسيوط للبحث عن تفاصيل أكثر. على الفور اجتمع مجلس إدارة الشركة المنتجة وأوفدوا عضواً منتدبًا يرجو من الباشا عرض أى شروط أو مطالب وستقبل فوراً. ولا يعرف أحد ماذا جرى بالضبط، لكن المؤكد أن الثورة

قامت وهذا الباشا عنده سيارتان ثمينتان، الأولى تلك الرولز رويس الشهيرة، والأخرى ذات سقف متحرك، رياضية، تنتجها الشركة نفسها، يقال إنها أهديت إليه ترضية!

المهم.. انتهت العربة الكاديلاك السوداء إلى الباشا الجديد، وعندما قامت الثورة لم يكن لديه أرض زراعية ليطبق عليها قانون الإصلاح الأول أو الثانى، ولا أرصدة فى البنوك المحلية أو الخارجية، رجال الثورة تفهموا وضعه، بل وتندر بعضهم به، وأظهر الشفقة عليه، ولم يحدث أى مساس بالعربة الملكية. أظهر عناية بها، صانها وحرص على غسلها يوميًا بيديه، وعندما مرض ودنت النهاية أوصى ابنته الكبرى، الهادئة، الجميلة، طلب منها أن ترعاها، وتصونها، وألا تغير لونها، وألا تبيعها أبدًا مهما تعاظمت الإغراءات، وصف لها الطريق إلى ورشة ميكانيكى قديم بعابدين، تخصص فى إصلاح العربات الملكية النادرة وصيانتها. رجل نحيل، تجاوز الستين عند قيام حركة الجيش المباركة - قبل أن تُسمى ثورة - خبرته مشهود لها. يعرف العربات الملكية كافة كما يعلم الطبيب الماهر أحوال مرضاه الدائمين. بعد الثورة عانى فراغًا وكسادًا وعز عليه أن يضع خبرته فى سيارات الأجرة، وعربات المعلمين وتجار الخضار والفاكهة، أى زمن؟ لكنه مضطر حتى يظل بيته مفتوحًا. الشىء الوحيد الذى حفظ له جزءًا من زهوه القديم تلك الكاديلاك الأربعينية، الملكية، أعجبه من صاحبها عنايته بها، كان إذ يلمحها أو يسمع صوت بوقها المميز يتهلل ويخرج لمقابلتها ويفتح بابها بنفسه مرحبًا بصاحبها الباشا، إنها من آثار العز، ما يطوله من أسطول هائل توزع وتفرق بين من يسوى ومن لا يسوى، لكنه اعتبر نفسه جزءًا منه أيًا كان موقعه، الملك نفسه

استدعاه زمن الحرب بعد تمكنه من صنع قطعة غيار صعبة بفضلها لم تتوقف العربة المفضلة عند جلالته عن الحركة وظلت تعمل بكفاءة حتى بعد اختفاء الشركة الألمانية المنتجة لها وتدمير مصانعها نتيجة قصف الحلفاء المركز.

أيام.. أيام!

أدركته هانم وبصره واهن، كليل، يغالب ضعفه، يقف مشرفًا على ابنه البكر أثناء إصلاحه العربة أو كشفه على محركها، يوصيه بها، يعلمه أسرارها، يدله على طرق استبدال قطع غيارها، أو تصنيع ما انقرض منها. الحق أن ابنه اعتبر الحفاظ عليها سليمة، متينة، جزءًا من إخلاصه لوالده وصيانة لذكراه. لم يسمح ليد غريبة أن تمتد إليها حتى بعد أن ألمح ذات عصر إلى إعجابه الكريم بها هانم ورغبته القرب على سنة الله ورسوله، غير أنها صدّته بلين حازم. ليس بدافع أنها مهندسة وهو عامل، بل لأنها كانت فى بداية إعجابها بزوجها الذى تعرفت إليه وهو يكبرها بعشر سنوات، ورأسه خلو تمامًا من أى شعر.

كان ابن صاحب الورشة هادئًا وسيمًا، حصل على الثانوية العامة ولم يلتحق بالجامعة لرحيل والده المفاجىء، تفرغ للورشة المعروفة فى السوق بسمعتها الطيبة، ورعى أمه وشقيقاته الثلاث، لم يتقدم إلى هانم أو غيرها إلا بعد اطمئنانه عليهن، كل منهن استقرت مع ابن الحلال فى بيتها، وأول كل شهر يزورهن ليسلم كلاً منهن نصيبها من إدارة أرباح الورشة. فتح الله عليه وتحول إلى تجارة قطع غيار العربيات، لكنه حرص على إصلاح السيارة الأصلية بيده، اعتبرها فألا حسنًا، ظهورها يجلب له الحظ، كان يسميها الجوهرة السوداء.

هانم اعتادت الجلوس عند مدخل الورشة، تنتظر الفراغ من إصلاحها أو إبلاغها بما يجب عمله، ترقب حنوه وعنايته، توقن أنها مقصودة بل يقشعر جسدها أحيانًا عندما ترى أصابعه تتحسس برشاقة ومهارة الأبواب والنوافذ، والحقيبة الخلفية الراسخة!

الكاديلاك الأربعينية أصبحت مشهورة، خاصة عند الأثرياء والهواة والمتخصصين، والمليونيرات الجدد الراغبين في اقتناء أشياء كهذه للإيهام بعتاقة الأرومة.

هانم رفضت العروض كافة بما في ذلك طلب الشركة المنتجة التي أكد ممثلها أنه لم يعد يعمل من هذا الطراز إلا سيارتان، الأخرى يمتلكها تاجر تايواني يقيم في هونغ كونغ. وإلحاح مدير فندق مينا هاوس الذي عرض سعراً مغريًا، وكشف لها عن دافع مغاير ودت لو أن والدها ألمّ به قبل رحيله. وهو ركوب روزفلت عند مجيئه إلى مصر قرب نهاية الحرب العالمية الثانية وتجوله بها حول الأهرام، الصور منشورة والعربة واضحة الملامح، إنها المرة الوحيدة التي خرجت فيها من الكراج الملكي.. ما حقيقة الظروف؟

هذا ما لم يعرفه أحد.

غير أن هانم أبدت موقفًا إيجابيًا من صحفية فرنسية جاءت خصيصًا وأقامت عشرة أيام لإعداد تحقيق مصور حول العربة وصيانتها واستخدامها، نشرته مجلة متخصصة في الطراز القديم تصدر من باريس بعدة لغات، التقطت جريدة «الأخبار» الخيط، وترجمت جزءا من الموضوع مع المطالبة بالحفاظ على ثروة مصر من المركبات النادرة. والقديمة، خاصة تلك المستخدمة في الريف كعربات أجرة.

على أى حال العربة أمرها معروف، وكثير من زملاء هانم ركبوا إلى جوارها، الجواهرى يقول إنها ملكية الرسوخ حتى ليمكن شرب فنجان القهوة داخلها بدون أن يهتز.

هل أثار وقوفها أمام المدخل الرئيسى ضيق صفية فعلا، أم أنها حجة لبدء التحرش؟

ما قيل كثير. وما سيقال أكثر، غير أن الجميع اتفقوا على تماسك هانم واستجابتها الهادئة، المستوعبة، المتعقّلة، اليوم التالى لزيارة البروفيسور لم تقف العربة قرب المدخل، إنما فى الساحة الخلفية القريبة من الفتحة الدائرية، عندما نما ذلك إلى الجواهرى تشاءم، هذه العربة من المعالم المحببة إلى المؤسس، هو الذى منح هانم الأذن بالوقوف، كان يعرف قدرها.

غير أن الأمر لم ينته عند ذلك..

بعد حوالى ثمانية أيام، استأجر الفريق المسرحى التابع لإدارة الأنشطة الترفيهية قاعة تتبع نادى الضباط بالزمالك لتقديم عرض جرى إعداده بدقة وبُذل فيه جهد. المهم.. وصلت هانم بصحبة زوجها مبكرة قليلاً. بمجرد نزولها من العربة التى أوقفتها على بعد أمتار من المدخل، المنادى والحارس أسرعا إليها، تنافس كل منهما فى إظهار العناية، هانم حضورها جميل، يحتوى عنصرا خفيا يحبب إليها الخلق، يقرب كل ناظر إليها. حتى جنود المرور ورجاله عند المفارق والإشارات التى اعتادت أن تسلكها يوميا ينتظرون ويتوقعون طلتها.

بعد دخولها المسرح بصحبة زوجها الأصلع، وصلت صفية، نزلت

شاهقة الجمال، مشهرة الأنوثة. اقترب منها المنادى العجوز الذى يضع على صدره العلامة المعدنية لنادى السيارات، والذى اعتاد عبدالناصر على مصافحته عند ترجله ودخوله لحضور الحفل السنوى الساهر فى ذكرى تموز/ يوليو.

على مهل اقترب منها، كانت رهبة السلطة فى التفاتاتها، نظراتها، إشرافها على الكل من عل، كثيرا ما قال الأشمونى صاحبه سرا إن حاجبيها المعقودين يحويان قدرا من شر.

بصت تجاه الكاديلاك، ناظرة إليها ومتجاوزة أيضا، بترفع، باحتقار، بإيحاءات شتى قالت:

«من أوقف هذه العربة هنا؟!».

قال العجوز إن صاحبتها دخلت بصحبة زوجها، أشارت بيدها أن يكف، عند اجتيازها المدخل قالت قبل مصافحة المنتظرين لها باعتبارها ممثلة لسيادته:

«شايفة نفسها قوى.. لا!»..

اليوم التالى مباشرة، عُلق قرار رئاسى مؤسسى فى لوحة المدخل، موقّع من سيادته شخصيا يلغى إدارة الصادر والوارد، وتفريق اختصاصاتها وأنشطتها على القطاعين الداخلى والخارجى، يتبع ذلك توزيع الموظفين والفنيين وتغيير بعض المواقع داخل المقر.

فى نهاية اليوم، قبل تأهب هانم للانصراف، اتصل بها مدير القطاع الإدارى، المهندس شيحة المحلاوى، إنه نحيل، طويل، منحن إلى الأمام دائما، لا يتحدث إلا همسًا، معروف أتقانه لنقل الكلام والمشاركة

فى الدسائس الخفية، يجمعه بالأشمونى نشاط كل منهما عند وقوع مصيبة ما، أو إلحاق الأذى المعلن بأحد العاملين من ذوى الحيثية.

ذمته ليست فوق الشبهات، وبحكم مسئوليته فى شراء قطع الأثاث والأدوات واللوازم المكتبية فثمة شكوك حول تقاضيه عمولات من التجار والموردين فى السوق. يقول الجواهرى إن المؤسس كان يعرف حقيقته، لكنه لم يتخذ ضده إجراء لأنه فُرض عليه، صدر قرار بتعيينه فور التأميم وقبل وقوع المحنة الكبرى، ومن الطريف أن المؤسس احتفظ بمقعدين مكسوين بالجلد العتيق، بكل منهما مزق واضح رفض استبدالهما أو طلب إصلاحهما، يعلق ضاحكا، إنه يفوت على شيحة ورجاله فرصة الحصول على عمولة.

تكرار ظهوره فى أحد الأقسام نذير سوء، وقرب وقوع أذى، لهذا لم يطمئن كثيرون عندما رأوه يسعى بخطى سريعة إلى هانم الدمياطية، لم يخف غرضه، لم ينتق ألفاظا بديلة، تلا نص القرار، ثم طلب منها تسليم مفاتيح المكتب قبل انصرافها، يمكنها أن تأخذ أوراقها الخاصة من خطابات شخصية أو بطاقات معايدة، وصور الأولاد الأربعة، كذلك اللوحة المعلقة فوقها والتى أثارت إعجاب الزوار برونق زخارفها ورشاقة حروفها.

«رتبة العلم أعلى الرتب».

لا يحق لها أن تأخذ أى خطاب صادر من المؤسسة أو وارد إليها، أو يحمل شعارها أو توقيع أى مسئول، كذلك أى أوراق تثير انتباه مندوبة إدارة الأمن التى ستحضر عملية إخلاء المكتب ذى الأدراج الثمانية

والمغطى بزجاج سمكه سبعة ملليمترات، وهذا مكتب لا يستخدمه إلاّ المخضرمون من العاملين.

أدركت هانم من تلميحاته أنه ملم بمحتويات المكتب، وأنه تفحص كل شيء خفية، أيقنت حدوث ذلك بانتظام، لذلك لم تحتفظ بأي ورقة شخصية، ولا بطاقة معايدة حتى أقدمت على التوقيع بثبات، عندما بلغ صفية هدوؤها لم تخف حنقها قالت:

«سنرى..».

هانم سيدة راسية، لم تخطيء في حق إنسان، لم تنطق بالخطأ، لم تظهر منها عيبة، هذا معروف شائع عنها، تعرف أيضا كيف تحافظ على مسافة تحول دون اقتراب الآخرين. ما لم تدركه صفية أو عيونها المدسوسة عليها طبيعة استجاباتها وانفعالاتها. بعكس ما تبدو عليه من صلابة وجهامة أحيانا. فإنها رقيقة إلى حد لا يعرفه إلا زوجها وأبناؤها بالتبني. لا يمكنها رؤية إبرة حقنة لحظة نفاذها عبر الجلد، يمكن أن يغمى عليها. تبكي إذا رأت عصفوراً وحيداً، حائراً عند حافة الشرفة، لا يمكنها قطف وردة، فصلها عن غصنها، غير أنها تجيد إخفاء ما يمر بها خاصة أثناء عملها أو عند اتصالها بالآخرين، ما لم يُعرف عنها أيضا بطء ردود أفعالها إذ تتلقى خبراً مزعجًا، أو كلمة جارحة. لا تجيب مباشرة، كأن الأمر يتعلق بغيرها، حتى إذا مضى وقت وانفردت بنفسها استعادت ما كان، فتقطر حزنا، أو تتقطع ألمًا، أو تتميز حنقا وغيظا لأنها لم ترد، لم تردع كما ينبغي.

هكذا.. تابعت شيحة أثناء فرزه الأوراق والمظاريف والمكاتبات كأن

ما يجرى يخص شخصًا لا تعرفه. عند استعادتها تلك اللحظات توشك على القيء، خاصة انحناءاته المتكررة أثناء قراءة الأوراق حتى إنه لامس السطور بجبهته مراراً. لم يتفق لها ذلك عند استعادتها لحظات اقتحام ضابط المباحث العامة وأربعة جنود سريين شقتها ليقبضوا على زوجها نهاية الخمسينيات، أمضوا ست ساعات فى فحص الأوراق، أرقام الهواتف، عناوين مكتوبة، لكن خلت تصرفاتهم من لزوجة وفضول شيحة الوقح.

هنا يجب الإشارة إلى إحدى خصائص المؤسسة. الثبات بمعناه الظاهر والباطن، الكل يحرص على استقرار الأمور، حتى.. ولو فى العلن، أى هزة طفيفة تؤثر فى الأوضاع المؤسسية. العاملون يرتبطون بظروف معينة، بعضهم يؤثر الاستمرار فى مكانه الذى اعتاده حتى مع وقوع الترقى، وإذا اضطر إلى التغيير فإنه يقدم وهو كاره أو داخل فى الاكتئاب، حتى يمر وقت.

كثيرا ما انتقد المؤسس هذا الروح، كان متأثرا بإقامته الطويلة فى الولايات المتحدة، فى البداية حرص على تشغيل عدد كبير بمكافآت متغيرة. هذا الوضع يطلق الحد الأدنى من الأجور لكنه لا يلزم صاحب العمل بحقوق معينة فى المعاش أو التعويضات القانونية عند المرض أو الإصابة. الحق.. أن المؤسس لم يقصر قط فى رعاية أى إنسان عمل معه وأصابه مكروه، بدأ ذلك قبل قوانين ثورة تموز/ يوليو العمالية. وبدء النظم التأمينية زمن العهد الشمولى، تعاقد المؤسس مع أمهر الأطباء وأفضلهم لمعالجة العاملين من أكبرهم إلى أصغرهم. حرص على إعلان أسماء المتميزين أول كل شهر وتعليق صورهم فى لوحة الشرف قرب

المصعد الرئاسى، كان يهنئ من حصلوا على أجور عالية، أو نسب مئوية من الصفقات التى عقدوها، يسلمهم المبالغ بنفسه، غير أنه يواجه من بعضهم بسؤال يتكرر بصيغ مختلفة.

«متى.. التثبيت؟».

لكم تعرض لضغوط وتدخلات لتعيين البعض، واستجاب فى مواقف كثيرة خاصة بعد التأميم. يحرص كل منهم على وجود ملف يخصه فى شئون العاملين، ومكتب، وللمكاتب نظام دقيق، إذ يعكس كل منها مرتبة العامل أو المسئول، الجالس إلى المكتب ذى الثلاثة أدراج، ليس مثل المنحنى على مكتب له أربعة ومغطى بالزجاج، أو فوقه تليفون، الهواتف درجات، فثمة ما يتصل بالبدالة، وآخر بقرص لكن لابد من تزويده بخط، وثالث بخط مباشر، أما الدولى، وما يتصل بشبكة المعلومات الدولية، فإن ذلك يقتصر على رؤساء القطاعات وكبار المسئولين، وما يضمه الطابق الرئاسى من وسائل غير معروف بالضبط، والهوائيات المثبتة فوق المقر لا يماثلها فى الغرابة والغموض إلا تلك الموجودة فوق السفارتين الأمريكية والإسرائيلية. رغم ترديد المؤسس لأقاويل شتى حول المرونة، وإمكانية انتقال العاملين بسهولة، إلا أنه أخذ عن البيروقراطية المصرية تقاليدها كافة فيما يتعلق بالنظم الداخلية، والفصل الحاد بالمظاهر بين مستويات الإدارة، خاصة ما يتعلق بأماكن الجلوس والعمل والأوراق المستخدمة وألوان الحبر فى الخطابات المتداولة، خاصة التأشيرات، إن شكل المقعد، والمكتب يحدد مستوى صاحبه، ومسيرته، ومنزلته، لذلك كان مُرًا وصعبًا على هانم خلعها المفاجئ. المعروف عامة أن أوعر اللحظات بالنسبة للعاملين كافة تلك

التى يجبر فيها أحدهم على التخلى عن مكانه، إنه بداية الخلل العنيف الذى أودى بالبعض إلى نهايات قاتمة. وهل ينسى الجواهرى أو المخلصون له لحظة اقتراب الأشمونى منه وإبلاغه القرار ومنعه من التوقيع فى الساعة؟

تمام الخامسة والنصف، اجتازت هانم الدمياطية مدخل المقر، مشت بخطى ثابتة فوق الرصيف متجهة إلى الساحة الخلفية، إلاّ أن الأشمونى رصد انحناءة كتفيها، وإطراقه دماغها، وعندما نقل ذلك إلى صفية استوثقت بالسؤال مرتين عن وضع رأسها المنكس، فأكد الأشمونى ذلك.

رغم أن هانم وعت ضرورة ظهورها بثبات مكين، إلاّ أنها لم تحل دون تلك الإطراقة، وعندما خرجت بالعربة الملكية من مكان انتظارها وعبرت الجسر فوق النهر، عضت شفتها السفلى، كادت تصطدم بعربة يابانية الصنع يقودها شاب يرتدى نظارة غامقة. غير أنها تماسكت بعد أن بذلت جهدا حتى وصولها إلى بيتها، وجلوسها إلى أبنائها بالتبنى، واستجابتها الصامتة لنظرات زوجها الحانية. عندما انفردت به انهارت على كتفه باكية، وهذا ما لم تقدم عليه يوم يقينها أنهما لن ينجبا طفلا بعد أن أثبتت التحليلات وهن حيواناته المنوية وقلتها، كانت تتوق إلى غلام، خاصة أن الأطباء وصفوا خصوبتها بالغزارة وحتى وقت قريب كان حلول الدورة الشهرية مصحوبا بآلام حادة لا تُجدى معها المسكنات وشرب السوائل المغلية خاصة القرفة، عندما وافق وتحمس على التبنى، قررت اختيار أربعة من أجناس مختلفة، مصرى، وزنجى، وآسيوى، وطفل من أمريكا اللاتينية ذى أصول هندية، وهذا موضوع حيّر الكثيرين ويطول الحديث فيه.

قالت إن صفية بدأت حربها .

تحسس انحناءة كتفيها مهونًا ، مداعبًا . .

«ذنبك أنك أجمل منها . . » .

ملس على ظهرها ، سرحت أصابعه عبر منحنياتها وتمهلت عند بوابات جسدها ، مدخله إليها ، وأول عزفه السليم . هي . . لم تكن بحاجة إليه مثل تلك اللحظات ، منذ فترة لم يقبّلها كما بدأ هذه المرة ، مص شفتها العليا ثم التحتية . جاس بلسانه حتى بدأت ترتعد كعصفور مبلول . تعشق مداعباته التي تتجدد ولم يتطرق إليها الملل والتكرار . تسمع شكاوى زوجات من إقبال أزواجهن المفاجئ ثم إدبارهم فور فراغهم ، قالت إحداهن إن رجلها لم يقبلها منذ خمسة عشر عاما . الحق . . أنها محظوظة ، ما زال يدللها كعذراء سيأخذها بحذر أول مرة . لم تفكر فيه مرة إلاَّ ويمد يديه نحوها ، حتى لو كان يبحر في سبات عميق ، من يرى خشونة مظهره لا يمكنه تخيل رقته وحنوه خاصة هنا ، وقدرته على إرضائها ومعرفته بدروبها الخفية ، بدءا من مس حلمة الثدى الأيسر ، إلى الإقلاع بصحبتها صوب الرفارف العلا .

احتاجت إليه هذا العصر ، عبر إليها بيسر ، تماما كما جرى ليلة وفاة والدها ، لا تستعيد لواذها به إلاَّ وتقشعر رغبة وتتقد نشوة . يتعلق كل منهما بالآخر في ظروف الكرب ، تماما كالمناسبات المبهجة ، يكتمل تواجههما ، وتتحد مداراتهما .

قالت بعد تمددها راضية ، مرضية ، إن الأمر جد وإنها تتوقع الأسوأ . قال إنه يوافقها تماما لكن . . المهم الآن هو التفكير في كيفية المواجهة ، أول

ما ينبغى الالتزام به . . الثبات وعدم إظهار الضعف ثم . . سلوك الطرق القانونية .

لزمن طويل سوف يستعيد نظرتها الحزينة، ولهجتها الأسيانة .

«أى قانون؟» .

جرس الهاتف رن أربع مرات . عند رفع السماعة ما من مجيب ، لكن . . يبدو الخط مفتوحا ، أحيانا تتردد أنفاس نائية ، قبل الغروب جاء صوت الجواهرى مواسيًا ، مشاركًا ، قال إنه لم يتصور حدوث ذلك للأصيلة بنت الأصول . ما جرى علامة ، ما يرجوه . . الانتباه ، الحية خبيثة ، سامة ، لدغتها وعرة .

اتصل شخص آخر ، قال إنه فاعل خير ، ينصح الهانم بعدم الحضور بالعربة السوداء .

عندما سمع الزوج صوت آخر رفض الإصغاء إلاَّ إذا أعلن المتحدث عن اسمه . فى الليل اضطر إلى إيقاظها مرتين ، فى الثانية سقاها كوب ماء ، تساءل مهدهدًا . .

«ما لك . . ما لك يا حبيبتى . . ؟؟» .

آنسها ذلك ، فى الصباح بدت أهدأ ، أعدت الإفطار المعتاد ، شايًا بالحليب ، وفولاً «مدمس» مهروسًا ، وجبنًا دمياطيًا أصليًا ، مازال أهلها يرسلون إليها علب الصفيح بداخلها الجبن المدسوس فيه قرون الفلفل الحراق وأنواع الحلوى التى اشتهرت بها دمياط مثل هريسة أبو ستة ومشبك أبو طبل .

حتى الآن لم يصدر قرار بمنعها من دخول المقر مثل الجواهرى، لكن . . إلى أين؟ لا تريد الظهور فى أى مكان لم تعتد الذهاب إليه أو التردد عليه، وخاصة أنها كانت قليلة المخالطة لزميلاتها حتى وُصفت بالترفع، كل خطوة مرصودة، محسوبة . .

إلى أين؟

آه . . إلى المكتبة.

مكان لم تتعامل معه إلا نادرا، كانت تعبره بسرعة، لم تدخله إلا مرة واحدة بحثًا عن الأصل الإنجليزى لرواية «جين إير» المقررة على ابنها الإفريقى، بعد تبادلها التحية مع المشرفة تساءلت عن صحف الأسبوع الماضى؟ ابتسمت السيدة بود، قالت إنها كانت تتمنى تقديم مساعدة لكن منذ عشر دقائق فقط جاءت تعليمات بإجراء جرد مفاجئ.

إلى أين؟

إلى أى مكتب تأوى؟

العيون كافة ترصدها، الكثيرون يتجنبون الحديث إليها، خاصة النساء، من الأحوال سريعة الرصد فى المؤسسة طبيعة الصلات بين المستويات الأعلى والأدنى. من المقرب؟ من الذى بدأ إبعاده؟ من تغير خاطر سيادته عليه؟ زاد الأمر من عزلة الرئاسة فى الطابق الثانى عشر، وبدء احتجاب رئيس المؤسسة تقريبا، وتزايد نفوذ صفية، حتى أنها أصبحت المرجع فى الغضب والرضا، بل إن بصاتها ونوعية لهجاتها عند مخاطبتها العاملين تفسر وتؤول، بعض العاملين فى الطابق العلوى

يحرصون على إبداء مشاعرهم المتطابقة مع موقف سيادته من هذا أو ذاك، ولا يجدون حرجا فى تناقضها أو اختلافها، إنهم مجرد ترديد.

آوت إلى دورة المياه، أمضت وقتا، تطلعت إلى المرايا، رصدت تعبها، وحيرتها، قدومها اليوم خاطئ، لن تأتى غدا، سترقد فى الفراش، وتبلغ الإدارة الطبية مرضها، أو تطلب إجازة، رصيدها السنوى يسمح ولكن إلى فترة محدودة، عند خروجها تجاهلت نظرات الأشمونى وتحفزه، وعدوانية رجال الأمن، أحدهم تطلع إلى حقيبتها سافراً، لكنها لم تعبأ، لا تعرف ماذا يمكن أن يحدث غداً. عندما استقرت فى العربة، تطلعت إلى المبنى، أغلى سنوات عمرها موزعة هناك، ترى.. ماذا يُدبر لها فوق؟

فيما بعد قالت لإحدى صديقاتها المقربات، إنها لم تتخيل قط أن الأمور يمكن أن تصل إلى الحد الذى وصلت إليه، لم يخطر لها ما جرى.. لا من قريب، ولا من بعيد.

إهـــانـــة

من تصور ذلك يوما؟

ولا حمدى الإزميرلى فى ذروة قوته أقدم على مثل ذلك ، ما جرى جديد على أنواع الأذى التى عرفها الجميع هنا ، تفاصيل عديدة متداولة عن قسوة المؤسس وضراوة انتقامه من خصومه الذين عارضوه أو حاولوا إلحاق الأذى به .

الجواهرى نفسه لا ينكر ما تردد حول واقعة خالد ، الشـاب ، خريج كلية العلوم ، جامعة الإسكندرية ، أول دفعته فى الرياضيات ، جرت عادة المؤسس - رحمه الله - على تتبع المتفوقين فى تخصصات معينة لا رابط بينها ، هندسة ، اقتصاد ، علوم ، علوم أخرى شتى . يبادر إلى مساندة غير القادرين ، بعد تخرجهم يعرض عليهم العمل بمرتبات مغرية ، أو تمويل المنح الدراسية بالخارج ، شرط التحاقهم بالمؤسسة بعد عودتهم .

تحدث سيـادته مرارا عن ثراء مصر بالمواهب وذوى الإمكانات ، كل ما يحتاجون إليه الفرصة والمناخ ، لكم تساءل عن سر نبوغ المصريين فى الخارج ، وفشل بعضهم فى الداخل؟ سرعان ما يجيب : إنه المناخ ، لو وجدوه لأعطوا بلا حدود .

خالد أحد الذين اهتم بهم المؤسس، بدا هادئًا، خجولاً، يميل إلى انطواء، يُسمع صوته بمشقة لرقته، لكنه ذو جلد وتحمل، كان يمضى أحيانا ثمانى عشرة ساعة يوميًا، بعد فترة قصيرة وضح اهتمام أجهزة الأمن به، ردد البعض أن رجال المباحث السرية يتقصون عنه، يجمعون أخباره، لم يكن الإزميرلى التحق بالعمل بعد . .

الحق أن المؤسس - رحمه الله - لم يعبأ بأجهزة الأمن فى العصر الملكى، لكن بعد الثورة واستقرار الزمن الجمهورى كفَّ عن السخرية منها، أو التقليل من شأنها، لكنه لم يسع إلى التقرب من رجالها الجدد، وظل على كراهيته لها، المؤكد أن أحدها سدد له الضربة القاصمة التى أدت إلى المحنة الكبرى للثأر منه أو لتصفية حساب ما لم تعرف تفاصيله حتى الآن، ومن أقواله التى سارت كالأمثال:

«أجهل جهة بموضوع ما هى جهة الاختصاص به . . وأجهزة الأمن فى المقدمة . .».

لكن . . يظل هذا كله من قبيل التخمين!

بدأ ينتبه إلى تحركات خالد، إلى الهدف الحقيقى من بقائه تلك المدد فى المؤسسة يوميا، تأكد بوسائله الخاصة، إلى جانب تقارير الأمن أن خالدًا عضو قيادى مهم فى تنظيم سرِّى، يسارى، متطرِّف، يؤمن بالحتمية التاريخية. استوثق أيضا أنه وراء العديد من الإشاعات التى استهدفته شخصيًا، بما يؤدى إلى هزّ صورته القيادية على المدى البعيد.

أصدر قرارا بإيفاد خالد إلى أسوان فى مهمة تتصل بالمناجم المهجورة منذ العصر الفرعونى الأخير، وكان من أهداف المؤسسة إعادة تشغيلها واستخراج الذهب منها.

أبدى خالد حماسا أثار دهشة الجميع، المنطقة التى سيمضى إليها نائية، وعرة، لم يكن بمفرده، عضو فى بعثة من أربعة عشر شخصًا، بينهم أخصائيون فى التربة، المياه الجوفية، التعدين، الفلك، الدورة الدموية. طباخ خاص وسائق حافلة مخصصة للحركة فى الأراضى الوعرة.

بعد خروج القافلة من أسوان بثلاث ليال سرت أخبار فى المقر بوقوع مشكلة. لم يعرف أحد أى تفاصيل فى البداية، راح كل شخص يروى ما جرى بطريقة أو أخرى، لكن المضمون لم يختلف من هذا إلى ذاك.

كثيرون استعادوا ملامح خالد الهادئة، المنطوية، راح البعض يتلمسون ما يؤكد الواقعة، تعجب آخرون، لكم أتقن إخفاء شذوذه، لكن الرد كان منطقيا، وهل أتيحت الفرصة ليبديه؟

يعلق أحدهم: لكن.. هل كان فى حاجة إلى قطع هذه المسافة كلها ليمارسه؟

تؤكد إحدى العاملات أن قشعريرة تنتابها كلما اقترب منها أو تحدث إليها.

ارتبط ترديد اسمه بهذا المشهد الذى لم يعاينه أحد، عندما دخل رئيس البعثة إلى الخيمة، فوجئ بالطباخ النوبى فوقه.

أثبتت الواقعة، وأدلى الشهود بأقوالهم بعد قطع البعثة أعمالها والعودة إلى أسوان، لم يتخذ أى إجراء فى القاهرة، بل إن المؤسس -رحمه الله- لم يأت على ذكر الواقعة فى الاجتماع الأسبوعى، لم يقرب خالد المقر، اختفى، لم يتسلم حتى ملف خدمته الذى يضم الوثائق

الخاصة به، مازال فى محفوظات إدارة شئون الأفراد. انقطعت أخباره تماما.

فيما بعد قال الجواهرى إنه التقى به صدفة، علم منه افتتاحه متجرا لبيع الأثاث فى دمياط بعد هجره العمل، والبحوث، والعمل السياسى، أشد ما يثير رعبه اعتقاله، دخوله السجن مسبوقًا بما تردد عنه.

لم يعرف أحد مدى صدق الجواهرى، كثيرا ما ردد أمورا بعينها يريد المؤسس إشاعتها أو تداولها لأهداف لا يعرفها أحد، على أى حال ترددت الشكوك حول الواقعة، مع مرور الوقت أصبحت تروى كدليل على قسوة المؤسس - رحمه الله - وغرابة انتقامه.

هل ألمت صفية بمثل هذه الوقائع فى ماضى المؤسسة؟ إن ما جرى منها تجاه هانم يؤكد إتقانها لتلك الأساليب، بل.. وقدرتها على الإضافة.

حدث أن تلقت هانم الدمياطية مظروفا أنيقا أبيض يتضمن دعوة إلى تناول العشاء بفندق سميراميس، خطوة مفاجئة لم تتوقعها خاصة بعد أن جرى لها ما جرى، بعد اضطرارها إلى طلب إجازة درءا لنظرات التشفى أو الشفقة.

مظروف تأملته طويلا، لم تتسلم مثله إلا مرات قليلة خلال سنوات عملها، فى المناسبات أو عند زيارة وفد أجنبى، أو توقيع صفقة ضخمة، يحوى بطاقة مذهبة الحواف، الحروف سوداء بارزة، أما المناسبة فحضور محافظ القاهرة وكبار المسئولين عن إدارة العاصمة للتعارف وتوثيق الصلات.

لابد أن الأمر يتصل بدور المؤسسة فى حفر خط النفق الجديد. أو ربما

يتم التخطيط لتعاون ما. أو استصدار قرارات تخص مساحة الأرض المطلة على النيل جهة المعادى والتى كثر الحديث عنها خلال الشهور الأخيرة، عن عزم سيادته على بناء مقر هائل الاتساع، عظيم الارتفاع، وتردد اعتراض هيئة الطيران المدنى لخطورته على حركة الطيران. .

لكن. . الأهم من ذلك لماذا يتم توجيه الدعوة إليها؟ أى دافع؟ هل ثمة نية لرد الاعتبار، هل وجهت الدعوة من وراء صفية؟ أم أن الأمر أبعد من ذلك؟؟

مهما كانت الدوافع، فلابد أن تلبى، ظهورها مهم فى مثل هذه الظروف، خاصة أن سيادته سيحضر بنفسه، تشير البطاقة إلى اسمه كداع، لكن الأهم أن عبد النمرسى اتصل بها فى البيت وأكد على أهمية حضورها، صحيح أنها لا تطيقه، تشمئز منه، بل إن جزءًا ينتابها لمجرد تردد صوته عبر الهاتف، وكأن أصداءه تدنس بيتها، بدا مهذبًا جدًا، أنهى حديثه القصير بتساؤل عما إذا كانت ستشرف الحفل؟ قالت بسرعة: طبعًا. . طبعًا.

ناقشت الأمر مع زوجها ظهر اليوم نفسه، واتفقا على الذهاب، سيصحبها إلى الفندق، ثم يمضى لقضاء بعض الحاجات ويعود بعد ساعتين، فإذا لم تكن فرغت بعد سينتظرها فى البهو، عند ظهورها بدت متألقة، زاهية، حتى أن الأنظار تعلقت بها، كانت ترتدى سترة من قطيفة خضراء اشتراها زوجها من متجر صغير فى شارع جاكوب بمنطقة سان جرمان الفرنسية، متجر يصنع تلك الملابس اليدوية، عندما رآه معروضًا خلف زجاج الواجهة، قال بصوت مرتفع: يليق بها تم.

لم يتردد رغم ارتفاع سعره، المصنوعات اليدوية نادرة، خفف هذا من

شعوره بفقدها، قال إنه طوال رحلته كان يتعجل اللحظة التى سترتديه فيها.

يعجبها ذلك، دائمًا يفاجئها بما لم تتوقعه، لمسة حانية، كلمة رقيقة، بادرة.. كأنهما ما زالا زمن خطوبتهما، افتقدته حقًا أثناء جلوسها إلى المائدة الثانية إلى يمين المنضدة الرئيسية التى جلس إليها المحافظ ونائبه، وثالث يرتدى ملابس مدنية سمعتهم يقولون له: سيادة اللواء، كما توقع كثيرون لم يحضر سيادته، أناب عنه البروفيسور مما عد إشارة واضحة إلى صعود نجمه وطلوع سعده مرة أخرى بعد أن خبا ذكره زمنًا إثر تولى سيادته، توقّع كثيرون وصوله إلى مرتبة الرجل الثانى فى المؤسسة، وعدّ حضوره ذلك العشاء علامة، أما صفية فكان موقعها المنضدة الرابعة، لم يكن الجلوس صدفة، إنما حدد لكل شخص مكانه وكُتب على لافتة صغيرة بيضاء، حرصت هانم ألا تلتقى عيناها بها، حادت عن مكانها طوال العشاء، وأبدى الجميع ترحيبًا خاصًا، بل صافحها بعضهم بحرارة متعمدة، تقبلت حفاوة عبده النمرسى حتى، ينشط فى مثل هذه الظروف، إنه المسئول عن تنظيم الدعوات، والاتصال بالفنادق، وإدارة مسجد عمر مكرم عند وقوع حالات وفاة، كل ما كان يؤديه عطية بك أتقنه بل ويشهد البعض أنه تفوق عليه، غير أن ما يثير الغبار حول جهوده ماضيه وحاضره باعتباره قوّادًا محترفًا.

بدا الأمر لهانم كأنه رد اعتبار بدرجة ما، ربما كانت انتشار القليوبى وراء ذلك، وربما سيادته شخصيًا، صحيح أنه شبه غائب باستمرار، لكن لا تفوته شاردة أو واردة، بل إن أدق التفاصيل تبلغه فور وقوعها. ويؤكد الكثيرون أن الواقعة الواحدة تصل إليه عبر عشرة أشخاص على الأقل،

وأن حمدى الإزميرلى يدير الأمور من بعيد، رغم تقدمه فى السن، إلاَّ أن مثله لا يحالون إلى التقاعد حتى وإن تجاوزوا العمر القانونية، لابد أن سيادته لم يرض عن الطريقة التى عوملت بها، بالتأكيد فإن دعوتها وجلوسها فى هذا المكان مؤشر على تراجع مكانة صفية ولو بقدر ضئيل، ليس من المعقول أن تكون راضية عن جلوسها فى هذا الموقع، المتقدم بل عن قدومها أصلاً، غير أن ما جرى نهاية العشاء بدا مفاجأة مروعة لها، مفاجأة لم تعد لها ولم تتأهب. .

عند انصراف المدعوين، ولحظة تجاوزها قاعة المطعم الأنيق، المطل على النيل من خلال واجهة زجاجية عريضة، تقدم منها شاب أنيق فندقى الحضور، خاطبها بأدب شديد، قامة منحنية، وعينان متجهتان إلى الأرض، صوت خفيض، لكنه يحوى أمراً ونذيراً، قال إنه يطلب الحديث إليها فى أمر مهم بعيداً عن القوم حتى لا يلفت الانتباه.

بعيداً عن المدعوين؟ حتى لا ينتبه أحد؟ ماذا يعنى ذلك؟ بدت حادة، أمكن سماع صوتها بوضوح لمن يقف آخر القاعة، لابد أنه يقصد شخصاً مختلفًا. . إنه لا يعرف إلى من يتحدث بالتأكيد.

قال بهدوء إنه يعلم جداً بمكانتها وقدرها، لكن الظروف ضاغطة، وكل ما يريده استفسار. . مجرد استفسار.

بدأت أطرافها ترتعش، أدركت أنها فى مواجهة شىء كريه، غامض، لم تعرفه من قبل، لم تكن ملمة، لم تستطع حتى التخمين، لكن غضبها بدا كغطاء وقائى يستهدف الصد. . دفع ما تجهله، أصرت على أن يبدى

ما عنده، لن تخطو بصحبته خطوة واحدة، هنا . . وهنا فقط. مد يديه، تلامست أصابعه، تطلع إلى الواقفين، معظمهم من رجال المؤسسة، عدد من الموظفين الذين صحبوا المحافظ ولا يعرف أحد مواقع عملهم بالضبط، من المنضدة الرئيسية لم يتبق إلا سعادة اللواء، أما صفية فلم يدر أحد من أى باب خرجت؟

تطلع الشاب المهندم وكأنه يعتذر للجميع عما سيضطر إلى قوله إزاء إصرار الهانم.

قال إنه يأسف لذلك، ولكنه مضطر إلى توجيه سؤال إلى سيادتها عن الملاعق والشوك التى تناولت بها الطعام؟

ازدردت هانم الدمياطية نظراتها، وقطرات تبلل فمها وحلقها، هل وصل الأمر إلى هذا الحد؟

استمر الفندقى المهذب، قال إن الهانم طلبت طقما عند جلوسها وأثار ذلك دهشة من يتولون الخدمة، فلم يحدث قط أن ترك موضع أمام ضيف بدون أدوات.

تقدم عبده النمرسى غاضبًا، قال: يعنى. . ماذا تقصد؟

تطلع إليه الفندقى، طلب إجابة سعادتها فقط. هنا رفع النمرسى إصبعه محذراً، إن ذلك يعنى اتهام سيدة من أشرف سيدات المؤسسة، بل من وجوه المجتمع. فى حالة ثبوت عدم صحة هذا الاتهام.

قاطع الفندقى منبهًا: ليس اتهامًا. .

بدا النمرسى شرسًا فى رده: لا. . إنه اتهام واضح. . وبالسرقة

أيضًا، إن إدارة الشئون القانونية فى المؤسسة ستتولى رفع الدعوى. . وسيتكبد الفندق خسائر لا يتصورها. .

أحنى الفندقى رأسه، . كأنه يستسلم إلى أمر واقع، هنا تقدم النمرسى تجاه هانم الدمياطية، تساءل بصوت مرتفع: هل يكفى فتح الحقيبة؟

أومأ الفندقى. .

تطلع النمرسى إلى هانم الدمياطية مبديًا الرجاء، مرددًا أن المؤسسة كلها ستثأر لهذه الإهانة، وتلك الوقاحة. .

شـدة الأزميرلى

.. «بمجرد فتح الحقيبة متوسطة الحجم، الأنيقة رأى الجميع بما فيهم سعادة اللواء، ثلاث ملاعق فضية، وثلاث شوك، متدرجة الأحجام، كل منها يحمل شعار الفندق».

«.. بعد فتح الحقيبة ظهرت الأوراق، والأدوات المسروقة، وعلبة سجائر، ولأعة ذهبية نادرة تم التحفظ عليها أيضًا، وأنبوبة مرهم لعلاج التهابات المهبل، وحوالى مائة جنيه نقدًا».

«.. فى البداية أنكرت بشدة، رفضت مجرد المساس بها أو بحقيبتها، لكن عندما ظهر ضابط شرطة برتبة كبيرة وخاطبها بحزم منبهًا إياها إلى خطورة موقفها، فتحت الحقيبة بعصبية، تساقط منها الطقم المختفى، وعلبة أغطية عازلة للرجال، ومفكرة تحوى أرقام هواتف فى عديد من بلدان الخليج الثرية».

لفترة طويلة تناقل الكثيرون تفاصيل شتى، بعضها حقيقى، والآخر لا أصل له ولا صحة، مع مرور الأيام أكد البعض أمورًا لم يذكرها أحد فى البداية، من ذلك إصرار مدير الفندق الأجنبى على تفتيش هانم ذاتيًا، استدعى بالفعل ثلاثة من العاملات المصريات، سبق لهن الخدمة فى السفارة الأمريكية، قمن بالبحث داخل جسدها من وراء ومن قدام!

لم يصغ أحد إلى توسلات النمرسى، بدا مضطربًا، منفعلاً، راغبًا حقًا فى وضع حد لما يجرى، حير ذلك الكثيرين فيما بعد وأولهم صفية طبعًا، حتى أنها توعدته على مسمع، وأكدت أنها ستريه أيامًا أسود من قرن الخروب.

لم يلتفت مدير الفندق إلى تدخل اللواء الذى كان بصحبة المحافظ والذى علل الأمر بمرض نفسى معروف، ألم يسمع أحد عن أميرة عربية ضبطت متلبسة فى متجر بلندن مع أنها تتردد عليه دائمًا وتشترى منه بالآلاف، هذا مرض معروف، له مواصفات فى مراجع الطب، المدير أصر، راح يردد بعربية ركيكة:

«الأصول.. أصول»

غير أن هذا كله تغير مرة واحدة عند ظهور حمدى الأزميرلى، لم يكن مدعوًا، ولكن يبدو أن النمرسى استنجد به بطريقة ما، وقف عند مدخل القاعة بقامته الممتلئة، نظرته المتعالية بتكلف لا يخفى، همس فى أذن المدير العام ثم انسحب فى هدوء، بعد دقائق شوهدت هانم تجتاز مدخل الفندق بصحبة زوجها الذى لم يدر أحد متى جاء بالضبط؟ الأزميرلى لا يكث بالمؤسسة خلال العامين الأخيرين، له مكتب مستقل، فى الطابق السابع، نوافذه مغلقة دائمًا، مسدلة الستائر، لديه ثلاثة خطوط للهاتف، اثنان غير مدرجان بالدليل العام، وخط مباشر إذا رفع سماعة الجهاز أخضر اللون فإنه يرن الناحية الأخرى فى غرفة عمليات جهاز سيادى مهم، أما الأحمر فمتصل بالطابق الثانى عشر مباشرة، ولا يمر عبر مكتب صفية أو انتشار القليوبى، رغم أنه محتجب إلى حد ما عن

الأنظار إلا أن ظهوره فى أى وقت، فى أى منشأة، سواء تتبع المؤسسة أو لا تتصل بها كفيل بإثارة الاهتمام على الفور، ظهور مدجج بتراثه الطويل.

يعتبر الأزميرلى من أشد العاملين غموضًا، تاريخ التحاقه غير معروف بالضبط، كذلك تخصصه، يقدم نفسه أحيانًا على أنه ملتحق بالمكتب الخاص، ولكن الثابت أنه لم يمكث بالطابق الثانى عشر أكثر من فترات تردده النادرة، العابرة، بل يعلم كبار المسئولين أنه لم يسع إلى الالتحاق بالطابق الثانى عشر على الإطلاق، بل إن فرصًا عديدة سنحت له لكنه اعتذر بلباقة مما أدهش وأثار التعجب، فالتطلع إلى الاستقرار على مقربة من سيادته أمر لا ينأى عن كل ذى مطمح، بل إن بعض الباحثين رصدوا ما يمكن تسميته أعراض الثانى عشر، وتلك لا تحل إلا بالعاملين فى المؤسسة أو ذوى الصلة، وتختلف طبقًا للموقع، فالمتطلعون إلى الصعود يعيشون حالة انتظار دائم قد تستمر عدة سنوات وربما تمتد إلى نهاية الخدمة، حتى الإحالة إلى التقاعد، وبعض هؤلاء يتشبهون بأهل الثانى عشر، كالمشى بتؤدة، والتطلع على مهل، والإصغاء مع الإطراق ونظرة شرود مصاحبة، القلق الدائم والنظر إلى بعيد.

أما المستقرون فعلاً أيًا كان مستواهم الوظيفى، بدءًا من السعاة وحتى كبار العاملين فتختلف الأعراض عندهم، إضافة إلى ما سبق وصفه، يُقال إن معظمهم يبقى أبواب المكاتب مفتوحة، أو موارية قليلاً، على أمل رؤية سيادته أثناء خروجه أو دخوله، أما الأمنية الأعظم، والرجاء المنتظر فهو توجه نظره هنا أو هناك، أما الإيماءة أو التحية من جانبه فتعنى امتزاج القريب بالبعيد، وتوحد الظاهر بالخفى، لم تعرف المؤسسة رئيسًا

مرهوب الجانب مثله رغم احتجاجه معظم الوقت، وربما ساعد ذلك على اتساع الهوة وقيام الحاجز، غير أن الأعراض التى لاحظها بعض الخبراء الأجانب تبدل ملامح أهل الثانى عشر، بعد مضى وقت يختلف من إنسان إلى آخر، شيئًا فشيئًا تنأى الملامح الأساسية، الأصلية، وتميل إلى ملامح سيادته، بدءًا من طريقته فى الإصغاء إلى حركة يديه، وتراجعه إلى الوراء عند إبداء السرور أو الدهشة، ثم يثقل الحاجبين ويصبح الأنف أكثر حدة، أما الفم فلا يرى إلا مزمومًا معظم الوقت، رغم أن تلك الملاحظة نسبت إلى خبراء أجانب اتصلوا بالمؤسسة فترة من الوقت، إلا أن البعض يشك فى الإزميرلى، ربما كان مصدرها، إذ عُرف عنه إطلاقه بعض الأوصاف والتشبيهات والشائعات أحيانًا، يرددها على مسامع بعض من اختارهم بدقة مثالية، والمثير بالنسبة لرجال الأمن - حتى الأغراب الذى يتخذون من السفارات والقنصليات أماكن لهم ومقار - قدرته الفائقة على اعتزال الآخرين والانتشار بينهم فى الوقت نفسه.

معروف أن الأزميرلى رجل أمن رغم أنه لا يعمل فى أجهزة الأمن مباشرة، بدأ حياته العملية فى المؤسسة، ويقال إن المؤسس كان على دراية تامة بماضيه المشين فى الجامعة، لكنه سعى إليه، ومنحه مكافآت شتى كانت سببًا لاعتراض الجواهرى، ويبدو أن المؤسس ظن ذلك وسيلة للتقرب من مسئول كبير بجهاز سيادى، يمت إليه الأزميرلى بصلة قرابة. لكن هذا لا يفسر بشكل كاف تلك الصلات التى يتمتع بها، وتلك القدرة على إلحاق الأذى بالآخرين فى فترة وجيزة جدًا، وهل يمكن نسيان ما جرى لوديع البراموسى وفهيم القفطى ومنير الشطبى؟

وديع البراموسى رجل تجاوز الخمسين وقت وقوع المحنة لثلاثتهم،

التحق بالمؤسسة مصمماً لأقمشة النسيج الصوفية، خريج قديم من كلية الفنون التطبيقية. مشهود له بالكفاءة، والقدرة على بذل الطاقة، ومسايرة أحوال الآخرين، والبعد عن الشبهات أو ما يمكن أن يوحى بها، محترف لعب طاولة، يتردد بانتظام على مقهى قرب دوران شبرا، إذا سمع من يتحدث فى السياسة يقوم غلى الفور، ليس فى السياسة فقط، إنما أى موضوع عام حتى لو كان عن المواصلات أو الأسعار، كان كتوماً، لا يظهر ما بداخله، لكن عرف عنه رغبته فى خدمة الآخرين، وإسداء المعروف، وحرصه على تأدية الصلاة يوم الأحد فى الكنيسة، وارتدائه الملابس الصوفية صيفًا وشتاء، كان يردد «اللى يحوش البرد .. يحوش الشرد»، ولسنوات طويلة لم يغير لون ربطة عنقه، أزرق داكن، ويبدو أنه رباط عنق واحد، لأن حوافه اكتست لمعة القدم، كان سماعه بنبأ اعتقال شخص ما إذا أتيحت الفرصة، أشبه بمن يصغى إلى حدث يجرى فى المريخ، بعيداً عنه إلى أقصى حد، كان هادئًا لا يسمع له حس، ولا يكاد يُلمح له ظل عند ظهوره.

أما فهيم القفطى فمحاسب مرموق، عمل بهيئة قناة السويس وكان يتقاضى مرتبًا مرتفعًا إلى جانب مزايا متعددة، بينها سكن مجانى فى بيت مستقل تحيطه حديقة، التحق بالمؤسسة فى ظروف غير معروفة، لكن يبدو أن أهمها عدم قدرته على الاستمرار فى منطقة القناة وتفضيله سكن القاهرة.

كان ممتلئًا، مزدهراً عن شبع مبكر وخلو بال، متقد الصدر، دائم المرح، لا يدخل غرفة أو صالة إلا سمع صوته عن بعد، يوقف زملاءه فى الممرات أو فوق السلالم ليروى لهم أحدث النكات، معظمها جنسية،

لديه قدرة على توليدها وصياغتها، النساء يفضلن الإصغاء إليه، بعضهن لا يخفين بهجتهن عند ظهوره، حتى عائشة الحرانية التى تحجبت فى وقت مبكر، تقابله مبتسمة، تلوح له من بعيد براحتين متضامتين، أصابع متشابكة، إنها لا تصافح الرجال، لم يعرف فهيم القفطى بأى ميول سياسية، بل إنه تجنب بمهارة وذكاء دخول الاتحاد الاشتراكى، وفيما بعد حزب مصر، والوطنى الديموقراطى، لم يكن يعلق إلا نادراً، لكنه يضرب المثل أحيانًا بجماعة مايو الذين كانوا فى قمة السلطة ثم أصبحوا فى السجون خلال ساعات.. يعلق بسرعة: من يضمن من؟ كان يمت بصلة قرابة إلى أحد شيوخ الأزهر السابقين، بعد أن جرى له ما جرى قال صالح السدوسى الشيوعى القديم إنه بعد خروجه من الحبسة الثالثة التى أمضى خلالها عامين متصلين ومر خلالهما بشدائد نالت منه، أنه بعد عودته إلى المؤسسة وتسلمه العمل وتوقيعه إقرارات عدة، منها إقرار بعدم السفر خارج القاهرة، وآخر بامتناعه عن الصعود إلى الطابق الثانى عشر حتى لو طُلب منه ذلك، وثالث بضرورة نأيه تمامًا عن الفتحة الدائرية، قال: إنه تطلع كثيراً وطويلاً إلى فهيم القفطى ويجرى المقارنة ويوشك أن يحسده على هدوء باله، وفيض مرحه، ويردد لنفسه: مثل هذا لا يعرف المعتقلات أو التعذيب، أو المطاردة.. يؤكد صالح أنه لم يتصور قط فهيم فى ملابس المعتقل، أو يخضع لاستجواب من أى نوع فى أى لحظة من حياته.

أما منير الشطبى فكان مثالاً للاتزان، حتى أن المؤسس أطلق عليه ساخراً «القانونى» إنه لا يحيد هنا أو هناك، لم تتسع خطوة له عن الأخرى طوال حياته، يبدو وكأنه يمشى على خيط نحيل، مغلق،

لا يُرى، لا يلتفت إلى الوراء إلا نادراً، يبدو كامل الصيانة، ينقطع ساعات عمله محملقا إلى الدفاتر، كان من أكفأ رجال الحسابات، يمكنه إجراء أعقد المسائل من طرح وضرب وقسمة وجمع بدون الاستعانة بقلم أو ورقة، عرض عليه النمرسى الظهور فى برنامج تليفزيونى وإجراء العمليات المعقدة على مرأى من الجمهور، رفض بحدة قاطعة وغضب أصم، مما حير النمرسى والآخرين، إذ إن حجم رد الفعل لم يكن مناسبًا للعرض، كان باستطاعته أن يرفض بكلمتين، ولكنه تصرف بعنف غامض، فيما بعد بدر منه ذلك عندما صدر قرار رئاسى يقضى بذهاب جميع موظفى أقسام الحسابات وإدارة المعاملات إلى قسم الحاسب الآلى بالشركة الموردة لتلقى دورات تدريبية على الأجهزة الجديدة باعتبار أن المستقبل للحواسب الآلية حيث سيدار كل شىء بها، بدءاً من الصواريخ عابرة القارات وسفن الفضاء وحتى أدق الأجهزة المنزلية.

منير الشطبى أبى، أعلن رفضه، جاهر به، واعتبر القرار الإدارى موجهًا ضده، وأنه يمثل إهانة له، عبثًا جرت محاولة إفهامه الوضع، وفى النهاية كان لابد من أحد أمرين، إما استثنائه من الدورات وبالتالى يعد ذلك انتهاكًا للأسس الراسخة، أو إبعاده عن إدارة الحسابات، هذا ما جرى رغم نصيحة الجواهرى بالإبقاء عليه، مثله كفاءة لا تعوض، لكن تقرر نقله إلى إدارة شئون الأفراد حيث أسند إليه مراجعة الملفات بشكل دورى، ظن البعض أنه سيحزن، سيضطرب أمره لكنه بدا يوم تسلمه عمله الجديد وكأنه يستأنف أمراً اعتاده، لم يختل انضباطه، وعبثًا حاول البعض رصد أى ملامح تغيير عليه، لكن لم يفت عائشة الحرانية أنه لم يعد يحلق لحيته بانتظام! لا يمكن لأى إنسان متصل بالمؤسسة أن

يفسر اختيار الأزميرلي لهؤلاء الثلاثة بالتحديد كي يوجه ضربته التي ظلت حديث الجميع وشاغلهم فترة من الوقت .

لماذا وديع البراموسي وفهيم القفطي ومنير الشطبي . . لماذا؟ ما من شيء يجمع بينهم، بل إن كلاً منهم كان في حاله، غير متصل بالآخر، لكنهم فوجئوا في ذلك الفجر الذي يبدو بعيداً نائيًا الآن بطرقات تقضّ أيامهم وتحيدبمصائرهم .

عندما وصل فهيم إلى مبنى الأمن الخاص تحت الحراسة المشددة دعوا به إلى حجرة تقع تحت مستوى الطريق العام، كان واثقًا أن الأمر يتضمن خطأ ما، ولم يشك قط في وقوع مكيدة، أو أنه راح ضحية بلاغ ما، لكن عندما فتحت تلك الطاقة الضيقة ودخل منها وديع البراموسي بهت، بدأ عنده خوف لم يألفه من قبل، أقرب إلى الوجود الوافد عليه، يمحوه على مهل، يحيله إلى مراقب من بعيد، يرصد ذاته منفصلاً .

عندما ظهر منير الشطبي أيقن، لم ينطق أحدهم بتحية، لم تبدر أي إيماءة، كأنهم لا يرون بعضهم، عند كل منهم ثقة أكيدة أن ثمة من يرقبهم، يدوّن أي بادرة، كل ما يصدر عنهم يمكن أن يكون دليل اتهام .

الحجرة رمادية الجدران، الإضاءة الخافتة، الكابية، مجهولة المصدر، الأبواب الثلاثة، اثنان مغلقان، إلى أين يؤديان؟ البلاط الكبير، القديم، النمل الساعي فوق الجدران التي تساقط طلاؤها في بعض المواضع، تفاصيل ستعلق إلى الأبد بذاكرة كل منهم، كل ما يتعلق بالبداية لا يمحى في مثل هذه الظروف المباغتة .

حتى الآن لا يمكن لأي إنسان داخل المؤسسة أو خارجها أن يذكر

أسباباً مقنعة تبرر اعتقال هؤلاء الثلاثة مرة واحدة، لا يمكن أيضاً التفسير، بالطبع ترددت أقاويل عديدة، منها مثلاً رغبة الأزميرلي في إثبات الأهمية وقوة نفوذه لأصحاب الشأن بالمؤسسة، لذلك وقع اختياره على ثلاثة لم يعرف عن أي منهم أدنى صلة بالسياسة، ثلاثة لا هموم عامة تعنيهم على الإطلاق، ولا توجد ملفات خاصة في أي جهاز أمني تخصهم، ورغم ذلك أمكنه بعد كتابة عدة سطور أن يزج بهم إلى ما وراء الشمس كما تعارف الجميع في المؤسسة، على وصف المكان الذي يساق إليه من يختفي فجأة، أو من يتم اعتقاله لأسباب سياسية، أو لظروف غامضة.

قال آخرون إن الأزميرلي ليس بحاجة إلى مثل ذلك لإثبات نفوذه، إن صلته بالأمن معروفة، لا يخفيها، إنما يحرص على تأكيدها وإشاعتها من خلال النفي، وإشارات شتى، لكنه يكره الجميع، يكره نفسه حتى، وكما قالت السيدة نبيلة الشندويلي - أتيح لها الاقتراب منه لفترة - إنه كاره لجلد جسده، لبشرته، لا يطيق النظر إلى المرآة، خاصة إن تكوينه الجثماني عجيب، لافت، فرغم ضخامته إلا أن اختلالاً خفياً في تناسق أعضائه يجعله أقرب إلى الأطفال، فكأنه لم يتجاوز الثامنة، لكنه نفخ فجأة، تضخم ليصبح في هيئة رجل وحضور طفل، وجنتاه ممتلئتان، ورقبته غليظة، صدره بارز، مضطر إلى تفصيل ملابسه دائماً حتى بعد تطور الملابس الجاهزة وانتشارها في الثمانينيات، ليغطي حضوره الطفولي المغري بالسخرية يتكلف في مشيه، في حديثه، يضفي التجهم على ملامحه، يمشي متئداً، متمهلاً، لكن . . لا يزيد ذلك إلا من اتساع الهوة بين حقيقة مظهره وما يريد أن يكون عليه . . كثيراً ما تطلع إلى

المرآة، يطيل التحديق إلى وجنتيه المتنفختين ورقبته القصيرة، الغليظة، يشد جلده، يغرز أصابعه فيه، يبغض ذاته.

تؤكد نبيلة الشندويلى التى عملت بالقرب منه ثلاث سنوات وبضعة شهور أنه يختار شخصًا معينًا، يحطه فى دماغه، ليس من الضرورى وجود سبب لهذه الكراهية الشديدة التى تبدأ فجأة تجاه إنسان ما، ربما يلتقى به صدفة أو يقع بصره عليه أثناء مروره بغرفة، أو ركوبه مصعدًا، عندئذ يبدأ الإحاطة به، التدبير له، قد يستغرق ذلك أيامًا، وربما سنوات، لكنه لا ينسى، لا يكل فى سعيه إلى الخراب وقطع الأرزاق لمن يبغضهم بلا سبب.

هل يفسر ذلك ما صدر عنه تجاه فهيم القفطى ومنير الشطبى والبراموسى ربما..

ربما لم يعجبه قوام أحدهم، أو استفزه إيقاع صوته، أو طريقة مشيه، أسباب لا تخطر لأحد على بال، لكنها كفيلة بتحركه لإلحاق الأذى.

أحيانًا يستيقظ مبكرًا، خاصة أيام العطلات الأسبوعية والإجازات الرسمية، تتفجر داخله كراهية حادة، ليست موجهة ضد شخص بعينه، أو شىء له وجود مادى محسوس، تتزايد حتى لا يمكنه الجلوس أو المشى أو الخروج أو الدخول، لا الصمت يهدئه ولا الحديث يشفى غله، وهنا ينشط ذهنه بحثًا عن إنسان ما، ليوجه ضده تلك المشاعر.

يمسك الهاتف بعد اهتدائه إلى اسم ما، يتصل بمن تربطه بهم صلة، يشن هجومًا حادًا على سيىء الحظ الذى خطر بباله، يصوغ عباراته الحادة فى جمل هادئة وكلما أمعن تتغير لهجته وتتنوع، أحيانًا لا يكفيه الحديث

عبر الهاتف، يرتدى ملابسه بسرعة، وقد يفارق بيته إلى الطريق بدون أن يغسل وجهه، أو يحلق ذقنه، يقصد مقهى اعتاد الجلوس به ناحية النزهة بمصر الجديدة، أو يتجه إلى النادى الأهلى الذى حصل به على عضوية شرفية بتدخل من الأمن الخاص، يلتقى بمعارفه، يحيد بالحديث حتى يذكر من وقع عليه بغضه، يتحدث عنه بانفعال، يصفه بقبيح النعوت، يصغى الآخرون إليه صامتين يجاريه بعضهم درءاً لأذاه، أو بدافع الدهشة، أثناء نيله من الضحية يرتفع نبضه ويتصبب عرقه وقد يسيل لعابه.

لا يخفى علاقته بالأمن الخاص، بل يحرص على التلميح إليها، وأحياناً يذكرها صراحة، وربما تباهى بها، إذا جرى حوار حول موضوع عام، يتابعه صامتًا وعلى شفتيه ابتسامة بها ظل من استخفاف، ومسحة سخرية، ومحاولة ثقة، وإذا بلغ الأمر حداً معيناً من الخلاف فإنه ينطق بعض الجمل ذات الدلالة، مثل:

«ثمة معلومات مؤكدة عندى لكننى لا أستطيع ذكر المصدر..».

«يمكننى أن أعطى إشارات.. لكن..».

«أنا مكلف بمهمة معينة لا يمكننى الإفصاح عن مضمونها..».

عند نطقه الجملة الأخيرة يتداخل دماغه بين كتفيه، يبرز صدره، يبدو تكوينه غريبًا إضافة إلى اختلال نسقه، لكنه يفيض بمتعة غامضة وكأنه يمارس الحب بالمخيلة!

أحيانًا، أثناء جلوس بعض زملائه ممن تقتضى مناصبهم ومسئولياتهم التعامل معه بانتظام، أو بعض معارفه من الخارج، يرن الهاتف، إذ يصغى، يصيح بلهجة حادة، عسكرية الإيقاع:

«أفندم» . .

ثم ينطق جملاً عامة ، لا يمكن الاستدلال منها على شيء ويعقب كل منها بلفظ «أفندم» .

ربما يقف أثناء الحديث عبر الهاتف مقطبًا ملامحه ، مبديًا الحد الأقصى من الجدية ، يندمج شيئًا فشيئًا ، يتصلب جسده ، يتحدث بلهجة الأقل رتبة الذى يواجه قائداً ، أو ضابطًا رفيع الدرجة .

تذكر نبيلة الشندولى التى تعد مرجعًا دقيقًا فى أخباره وأحواله ، أنه اعتاد التغيب لمدة ساعة يوميًا خلال الصيف الماضى ، قال إنه يذهب إلى النادى لممارسة رياضة المشى ، يلف «التراك» أربع مرات وهذا يعنى قطعه لثلاثة كيلومترات ، يصف بدقة حرصه على السير بسرعة ، وبوتيرة ثابتة ، أنه حريص على خفض وزنه الذى زاد على الحد .

بعد أيام من انتظامه بدأ يتحدث عن الشخصيات التى تمارس المشى فى الموعد الذى اختاره ، صحفيون فى مواقع المسئولية ، رؤساء مجالس إدارات لشركات كبرى ، رؤساء بنوك مشتركة ، نجوم سينما ، بل إن وزير الخارجية يجيء فى موعد معين ، لا يتقدم ولا يتأخر ، يلف التراك محاطًا بحرسه الخاص . حدث وأن تبادلا الحديث بشكل عابر ، خاطف ، لأسباب لا تخفى لا يمكنه البوح أو التصريح بما سمعه ، كل كلمة من وزير الخارجية محسوبة بدقة .

يمضى الأزميرلى إلى النادى حاملاً حقيبة صغيرة داخلها الملابس الرياضية ، أما الحمام فملحق بمكتبه ، أربع حجرات معروفة فى المبنى الأصلى ، ملحق بكل منها حمام به دش ، ماء بارد وماء ساخن ، إحداها

بالطابق الثانى عشر، لكن لا يعرف أحد على وجه الدقة، هل جرى أى تعديل بعد إعادة صياغة الطابق كله، يقال إن سيادته يمضى عدة أيام متتالية لا يفارق مكتبه، صفية تلازمه، بالطبع يوجد كل ما يجعل الإقامة رغدة، سهلة محببة، لم يعد الطابق بسيطًا، مفتوحًا كما كان الأمر أيام المؤسس، العاملون فيه لا يتحدثون كثيراً ولكن بعض التفاصيل تتسرب بين الحين والحين.

بعد عودة الأزميرلى يمارس بعض الحركات الرياضية، يفرد ذراعيه على امتدادهما ثم يثنيهما، أو يقف على أطراف أصابعه، يمضى وقتًا فى الحمام، يخرج بادى النشاط، يتوقف بين الحين والآخر ليستنشق الهواء بعمق، ترتد ملامحه إلى مرحلة الطفولة تمامًا، يغلق الباب ويحملق طويلاً فى المرآة التى يحتفظ بها فى درج مكتبه الأيمن، أحيانًا يبدو مسروراً أحيانًا يبكى، وفى كلتا الحالتين لا يمكنه هو تفسير الدافع.

لم يعبأ بكل ما بلغه بعد اعتقال القفطى وزميليه، كان على دراية تامة بما يقال عنه، بما يوجه إليه من اتهام، لا يسعى إلى النفى، بل إنه ربما لمح فى بعض الأحاديث العابرة ما يؤكد أقوال الناس، لم يكن مسموحًا بزيارة المعتقلين سياسيًا وقتئذ، أو إرسال خطابات إليهم، كل الصلة تتمثل فى ورقة صغيرة لا تحوى أى معلومات أو حروف، مكتوب عليها رغبات المغتقل وتوقيعه، كان مسموحًا بكتابة أنواع الأدوية أو معاجين الأسنان والحلاقة ومفردات الملابس الضرورية، أما الطعام أو الكتب أو الصحف أو أى شىء آخر فغير مسموح بالمرة، القيمة الأساسية، الحقيقة لهذه الورقة، وصول أثر من الشخص إلى أسرته، يتمثل فى الخط وتوقيعه، يعنى ذلك أنه ما زال حيًا يسعى، هذه الورقة لم يكن مسموحًا بكتابتها طوال فترة التحقيق.

الغريب أن الأزميرلي تحدث إلى كثيرين، منهم الجواهرى وعطية بك مجاهراً بتعاطفه مع المعتقلين الثلاثة، مبديًا دهشته لبعد كل منهم عن أى موطن للشبهات، بل إنه بادر بطلب تبرعات عينية ونقدية من الزملاء لإرسالها إليهم.

قال البعض همسًا - ومنهم الجواهرى -: إنه يقتل الضحية ويمشى فى جنازتها.

بعد الشهور الستة التى أمضوها بعيدًا، حرص على زيارة القفطى والشطبى وتهنئتهما بالإفراج، أرسل باقة ورد منتقاة بعناية إلى البراموسى الراقد فى قصر العينى تحت الحراسة المشددة، بعد انتهاء الاعتقال نقل إلى قسم المرضى العاديين، والغريب أن ذلك أدى إلى تدهور حالته! ما لحقتهم من تغيرات وتبدل أحوال صار مثلاً يضرب، القفطى لزم الصمت، يجيب على تحيات الآخرين حذرًا، إذا اقترب أى إنسان منه يجفل، تسرع دقات قلبه، يرد السلام وجلاً، نقص وزنه إلى حد اضطر معه إلى استبدال ملابسه كافة، بدا رأسه أكبر من نحافة رقبته، إذا قابل الأزميرلي صدفة أو جمعتهما مناسبة فإنه يداخل فى بعضه، يطلع إلى الأرض، كف عن إطلاق النكات أو نقلها، كف عن إبداء المرح.

أما الشطبى فلم يسكت، إنما كان يسأل كل من يلتقى به، كل من يطاله: ما تظن أننى فعلته حتى جرى ما جرى؟

كان ينطق السؤال بصيغ متعددة، ولا يتلقى إجابة راضية أو شافية، بل كان يقابل بنظرات مذعورة أحيانًا، فطرح السؤال مقلق، والإصغاء إليه ربما يصبح موضوعًا لدعوى اتهام!

حتى الآن لا يدرى أحد فى المؤسسة كيف رتب الشطبى أموره خفية وسافر فجأة إلى تنزانيا .

كيف . . وماذا سيفعل هناك؟

أى اتصالات أجراها؟

لا يدرى أحد، يعتبر الأزميرلى أن رحيله من أخطر الضربات التى وجهت إليه طوال مدة خدمته، بل على امتداد عمره، فى البداية لم يصدق، مكث يومين متصلين داخل مكتبه، لم يفارق الهاتف، اتصل بجهات عديدة وشخصيات مختلفة، بعضها مقيم فى الخارج، تأكد من مغادرة الشطبى للبلاد صباح اليوم الثالث لإقامته المستنفرة، عندئذ سرت فى جسده رعشة حمى .

الجميع تحاشوه، اتقوا أذاه بالمداهنة، بالمجاملة، بالابتعاد عنه قدر الطاقة، لم تكن رفقته مريحة أو مأمونة، المعروف عنه زواجه من ابنة رجل أعمال يتخذ مقراً له بورسعيد، لكن لم يظهر بصحبة امرأته أو طفله الوحيد منها فى أى مناسبة اجتماعية أو عامة من تلك التى اعتاد العاملون بالمؤسسة على حضورها بصحبة أفراد أسرهم، وهذا مما نظمه ودعا إليه المؤسس .

فى الثمانينيات خفت حضور الأزميرلى، لم يعد محوراً رئيسيًا، لكنه ظل فى التمام، وبؤرة قلق، قال البعض إن ابتعاده قليلاً يرجع إلى تغير المناخ، فتعدد الآراء متاح، وصحف المعارضة تخوض فى القريب والبعيد، والكل يقول ما يريده، وبدون أن يقصف قلم، أو يصادر فكر، هذا ما تردده أجهزة الإعلام باستمرار، وفى مناخ كهذا كان من المتوقع أن

تزدهر أحوال المؤسسة وأن يعم ذلك على الجميع، لكن الأمور لم تكن على ما يرام وهذا أمر يطول شرحه، أكد البعض أن الأزميرلى لديه التفاسير كافة، وأنه ربما يظهر فترة أو يختفى أخرى، لكنه لا يفقد أهميته ولا يهمل، إنه من نوعية خاصة يرتاح إليها العاملون فى المناطق النائية من الأجهزة الأمنية، إن اختيار المتعاونين يخضع لشروط غامضة، بعضها مدون، والآخر متوارث، الجواهرى نفسه، كثيراً ما تأمل أحوال الأزميرلى، ما الذى يجعلهم يثقون فيه هكذا؟ ماذا يقدمه إليهم؟ لكنه يثنى ليؤكد ما قاله دائمًا إن مثل تلك الحالات لها قانون خاص يستعصى على الإدراك وإنه لو تقدم راغبًا فى القيام بما يؤديه الأزميرلى فلن يطول مكانته. رغم تاريخه المشرف، وملف خدمته الذى يعد بحق نموذجيًا، وإخلاصه الذى لا يمكن النيل منه للمؤسسة.

مثل الأزميرلى لا تتراجع مكانتهم، وهذا ما تأكد للجميع ليلة تلك الواقعة التى جرت لهانم الدمياطى، كانت ماضية إلى السجن لولا تدخله الحاسم واتصاله بمن أوقف مدير الفندق الأجنبى نفسه عند حده، أكد ذلك مكانته، ومدى نفوذه، وأعاد إلى الأذهان حضوره القديم، لكن هذا كله لم يكن يعنى شيئًا بالنسبة لرئيس المؤسسة الحالى، ذلك أنه بدأ من جهاز الأمن، ويؤكد العارفون المتكتمون، أنه الجهاز نفسه الذى يرعى الأزميرلى.

غير أن ما أسفرت عنه واقعة هانم الدمياطية لم يتوقعه أحد، ولا حتى أشد الناس قربًا من سيادته فى الطابق الثانى عشر.

همـــوم أمـاميـــة

أكد الأشـمونى لصـاحبه مفتش الصـحة وهو يخبره بأدق مـا يجرى فى المؤسسة أنهـم فوجئوا بقضيب صناعى كبير الحجم محرشف يسقط من حقـبيـة هانم الدمـيـاطيـة مما أذهلهم عن رؤية المسروقـات فى البـداية، ثـم تسـاءل وكـأنه يحـدث نفـسـه: مـن تصـور هذا عن صـاحـبـة الصـون والعفاف؟!

وقـال أيضـًا: إن صفـيـة الأبنوبى أزالت صـورة المؤسس الموضـوعة فى إطار بيضاوى من عظام وحيد القرن الأفريقى من داخل المصعد الرئاسى، وتفـصيل الأمر إنهـا تطلعت إليهـا صبـاح أمس وكـأنهـا تراها لأول مرة، قالت:

«صورة من»؟

أجابها مسعد التميمى عامل المصعد القديم:

«إنه سيدنا».

«سيدنا من»؟

«صاحب هذا الهيلمان كله»..

احتدت عليه.

«أجبنى عدل» . .

قال بخشية مبالغ فيها:

«المؤسس يا هانم» . .

كأنها اكتشفت أمرًا جهلته زمنًا طويلاً، بعد لحظة قالت بحسم:

«عند انصرافى ظهرًا لا أريد أن أراها» . .

ثم قالت بسرعة:

«إنها باهتة الملامح» . .

عندما نما ذلك إلى الجواهرى فى ركنه الذى لم يعد يفارقه بمقهى رشيدة السويسرية قال إنه يتوقع أى شىء فى زمن استقرار العاهرات بالطابق الرئاسى.

قال الأشمونى: إنها الآمرة الناهية الآن، إنها الكل فى الكل، جرى ذلك فى فترة قصيرة، بل إن حضورها الآن ليطغى عليه خاصة بعد تفويضها بالتوقيع بدلاً منه وهذا ما لم يسمع به من قبل، ولولا ظهور اسمه أحيانًا مرتبطًا ببعض الأوامر التنظيمية، ومجىء شخصيات قيادية وأجنبية للقائه لترسخ اليقين عند الكثيرين بغيابه تمامًا.

قال الأشمونى إنه لا يدرى شيئًا عن الطريق الذى يسلكه لدخول المقر، للوصول إلى مكتبه، إلى الغرفة الدائرية إذا كانت باقية حتى الآن ولم تتبدل معالمها. لا أحد يعلم أى تفاصيل عن محتويات الطابق الذى تبدل تمامًا بعد قيام الشركة الكورية بتعديلاتها التى لا يعرفها أحد، مما فتح

الباب لأقاويل كثيرة بعضها مبالغ فيه مثل الزعم بوجود ممر حلزونى يصل المكتب بنفق مؤد إلى الحفرة الدائرية، ومثل ذلك لا حصر له. فى زمن المؤسس، وفى عهد خليفته الأول والثانى كان الطلوع إلى فوق متاحًا للجميع، لم يغلق باب سيادته قط.

جهات أمنية عديدة ترصد ما يجرى، بعضها محلى والآخر دولى، تقارير تصاغ يوميًا لقياس الرأى العام بين العاملين، اتجاهاتهم بالنسبة للقضايا العامة، وقرارات الإدارة وبعض الأحداث العربية أو العالمية ذات الصفة الخاصة، هذه التقارير للاستفادة بها فى حدود ضيقة، يؤكد الأشمونى إن الإدارة العليا لا تستجيب مباشرة إلى ما يجرى بين العاملين، ترسخ ذلك فى زمن الخليفة الثانى على أساس أن الرضوخ فيه ضعف وإقلال من الهيبة، بعكس المؤسس الذى سعى إلى التخفيف عن الصغار قبل الكبار والإصغاء إلى ما يدور فى خواطرهم قبل النطق به، كثيراً ما تساءل فى الاجتماعات الثانوية والمصيرية.

«ماذا يقول الناس.. ما طبيعة متاعبهم»؟

يسعى على الفور إلى تبديد الأسباب المنغصة، بل إنه لم يتردد يومًا فى تقبيل دماغ عم جويلى معتذراً عن خطأ وقع فى حقه، يقول البعض إن هذا زمن وذاك زمن، وما كان يصلح للماضى صعب تطبيقه الآن، المؤسسة الآن عشرة أضعاف ما كانت عليه منذ ربع قرن.

ثمة آراء بدأت تتردد مؤخراً بعضها منسوب إلى صفية الأبنوبى، تؤكد أن ما أبداه المؤسس من تواضع أو إنسانية فى رعاية العاملين إنما كان تظاهراً ودعاية رخيصة، وثائق الطابق الرئاسى تثبت أنه كان قاسيًا صخرى القلب، تسبب فى خراب بيوت كثيرة، لكم ذبح الضحية بيد

وقدم العزاء باليد الأخرى. إن كتابًا يجرى إعداده الآن عن الجانب الخلفى لشخصية المؤسس، متى سيصدر، من سينشره، من مؤلفه؟

لا أحد يدرى..

الأشمونى حزين، لم يعد مسموحًا له بالصعود، لم يعد يتلقى أسماء الزائرين من المكتب الدائرى مباشرة، سكرتيرة صفية تبلغه عبر الهاتف وأحيانًا يصله مظروف مع أحد السعاة، كثيرًا ما يتطلع إلى ضيوف الطابق الرئاسى عند انصرافهم، يود أن يسألهم، أن يستفسر منهم، هل شاهدوه فعلاً؟ هل صافحوه وتحدثوا إليه؟

ما يحيره، ما يتحدث فيه إلى صاحبه باستمرار، كيف يصل سيادته إلى مكتبه؟ كيف يغادر المبنى؟ إنه أول رئيس لا يراه أحد لحظة وصوله أو عند خروجه، صعب تقبله ذلك، هو الأمين على المدخل الرئيسى، المعايش لأدق وأكبر الأحداث. سنوات وقوفه أكسبته فراسة لا يمكن تحصيلها فى أى معهد أو جامعة، لا يحتويها منهج ولا تستوعبها أدلة، منذ عامين تلقى دعوة من السفارة الأمريكية لإلقاء محاضرات على العاملين فى المكاتب الأمامية، سواء فى المقر الرئيسى بجاردن سيتى، أو مقر سكنى العاملين فى الزمالك والمعادى، بالطبع أدركه زهو، غير أن حذره لم يفارقه حيث أنه مقدم على الاتصال بجهة أجنبية، حرصه معروف، ذائع، بل إنه شكل وضعية وطبيعة خطواته البطيئة وطريقة مشيه.

بدأ يتخذ احتياطاته، اتصل بأمن المؤسسة، أطلعهم على نص الدعوة، أوصى أحد العاملين القدامى للاستفسار من ابنه الضابط بجهاز الاستخبارات الخاص، قال: إنه يعلم العلاقة المتينة بين البلاد والولايات

المتحدة، القوة الأولى فى العالم، ويمكنه استنتاج حجم المعاملات بين المؤسسة والجهات التابعة، لكنها سفارة أجنبية أولا وأخيراً وهو موظف عمومى ملتزم، لابد أن يستأذن، فى همسه فخر أيضًا بما بلغه من خبرة أصبحت موضع تقدير الخواجات.

عاد الرجل إليه، نقل تحيات ابنه إلى عمه الأشمونى الذى يراه منذ طفولته، عندما كان يجىء بصحبة والده فى الأيام الجميلة، البعيدة، كان المؤسس محبًا لرؤية أطفال العاملين فى المكاتب والممرات، يؤكد أن ذلك يقوى الألفة، ويوثق المحبة بين العاملين ومؤسستهم، لكم أثنى على من يضع صورة ابنه أو حفيده تحت زجاج المكتب أو فى مواجهته، الرئيس الثانى أبطل هذا كله، منع مجىء الصغار حتى فى الأعياد والمواسم، علل الأمر بضرورة الحفاظ على نظافة المقر ومظهره.

قال الرجل: إن ابنه الضابط يحيى الالتزام والانضباط الوطنى، ليمضى إلى السفارة هادئًا، مطمئنًا، عندما علم البروفيسور قال: ساخراً إن الأشمونى ما زال يعيش بقيم العصر الشمولى الآفل، عندما كان المشى فوق الرصيف المحاذى للمبنى يعرض المرء للمساءلة وربما لتهمة التخابر. . الآن. . يسعى الكبار قبل الصغار إلى تلك السفارة لينالوا الرضا ويحظوا بالقربى! الأشمونى قديم، عارف بالأصول، خبير بالرسوم، لا يقدم على خطوة إلا بعد اطمئنان ويقين، أما الذين عرفوه عن قرب مثل الجواهرى فيقولون إنه يعيش خوفًا وحذراً دائمًا، لهذا اختاره المؤسس - رحمه الله - ليدير المكتب الأمامى، ليقف عند المدخل بقامته النحيلة وميله إلى الأمام، مع ارتفاع كتفيه حتى ليكادا أن يحاذيا أذنيه، يدقق الملامح، يتفحص الهويات، مسفراً عن ريبة صامتة فى كل

من يتحدث إليه. دائمًا يتوقع التحقيق معه لسبب ما، أن يمثل أمام مستجوب غليظ القلب ينتمى إلى جهة، إلى هيئة غامضة، لهذا لزم الحذر باستمرار. دائمًا يحاول إيجاد تبرير لكل ما يقدم عليه. لماذا سلك تلك الطريق؟ لماذا طلب علبة اللبن ولم يشرب الشاى؟ لماذا أطال النظر إلى تلك الجهة دون الأخرى؟

فى الحمام يمشى على أطراف أصابعه خشية الانزلاق، فى الشارع يتأجج انتباهه حتى لا يلمس سلكًا عاريًا تسرى فيه الكهرباء، يدقق فى الأرض خشية الوقوع فى حفرة ما، ويتطلع إلى أعلى مرات خوفًا من طوبة مفلتة تتخذ طريقها إلى أم رأسه.

حضوره دائم حتى فى أيام الأعياد والإجازات والمناسبات الرسمية، يعمل فترتين، صباحية ومسائية، لا يتجنب إلا ساعتين فقط، من الثانية إلى الرابعة، هكذا يقضى النظام، لو الأمر بيده لما فارق المدخل ليلاً ونهاراً، عند انصرافه وقت الظهيرة لا يمضى إلى بيت، لا تنتظره أسرة، إنه وحيد، فردانى، يقيم فى فندق قديم قرب ميدان رمسيس، أول شارع الفجالة.

صاحبه الوحيد، الأعز، مفتش الصحة، من يفضى إليه بأدق خلجاته: اسمه أنيس الوردانى، يثق كل منهما فى الآخر، لا يمضى يوم إلا يلتقيان فيه ساعة الغداء، فى أمسيات الصيف بمقهى ركس المواجه لمسرح الكورسال القديم بشارع عماد الدين، يقعدان بجوار نافذة عريضة مطلة على الطريق، من لا يعرفهما يظن أنهما فاقدا النطق. من جماعة الخرس الذين يتخذون المقهى المجاور لسينما كايروبالاس المتخصصة فى عرض أفلام شركة فوكس، كان المؤسس - رحمه الله - يؤثرها على الدور

الأخرى، ويحرص على حضور الحفلة الصباحية يوم الجمعة والتى تبدأ العاشرة والربع بعرض أفلام الرسوم المتحركة للصغار، ولم يتوقف عن عادته تلك إلا عند وقوع المحنة الكبرى.

يتطلع الأشمونى إلى صاحبه صامتًا، حتى إذا حاد بصره عنه بدأ صديقه ينظر إليه، وإذ تلتقى عيونهما يهز كل منهما رأسه كأنهما أدركا شيئًا ما فى عين اللحظة، يتابعان المارة بصمت، أو يرشفان الشاى على مهل، لكنهما يتبادلان الحديث أحيانًا، عندئذ يقترب كل منهما، صاحبه أطول، لذلك ينحنى، إنه أسمر، أصلع، ممتلىء قليلاً، صعيدى من أبى تيج، مرتفع الصوت، لا يمكنه الهمس، لا يفارق حقيبته الجلدية القديمة، مجهول الإقامة حتى لصديقه الحميم.

يؤكد عطية بك إقامته منفردًا. إنه الوحيد الذى زار الأشمونى عند مرضه وأمضى بصحبته وقتًا فى حجرة مستطيلة، تطل على المنور الداخلى، الصالة المشتركة تؤدى إلى شرفة من خشب تئن ألواحها وتصر إذا خرج المرء إليها، منها يمكن رؤية مبنى محطة مصر عربى الطراز، نزلاء الفندق كلهم عابرون، معظمهم يقضى ليلة أو ليلتين، قادمون من الريف إما لقضاء الحوائج أو لبدء مشوار الرزق الذى ينتهى بثراء أو إملاق، النزيل الوحيد الدائم هو الأشمونى.

لماذا يستقر فى هذا المكان الذى يفر منه كثيرون مثقلين بذكريات مرهقة؟

يؤكد الجواهرى أن السبب عشقه العذرى لبنية يهودية كانت تسكن قرب المستشفى القبطى، كانت بضة، ريانة، تحتضن حقيبة كتبها إلى صدرها، رأسها مرفوعة، صدرها مشهر، فى عينيها لا مبالاة، تمشى

حتى ميدان الجيش، إلى المدرسة الإسرائيلية، ترتدى الزى الخاص مربعات زرقاء وبيضاء على رداء قصير يكشف باطن الساقين.

يتلهف انتظاراً فى الشرفة، بمجرد ظهورها ينزل إلى الطريق، يمشى خلفها محتفظًا بمسافة لا تثير الشكوك، لكن أمره شاع عند أصحاب المتاجر، والباعة الجائلين، وتجار أدوات البناء الصحية، ورواد المقاهى. يتوقعون ظهور المقتفية أثرها من بعيد، وانحناءته، كل ما يرضيه أن يمشى فى طريق عام تسلكه، استمر ذلك حتى الشهور التالية للعدوان الثلاثى، يبدو أنها ذهبت مع أسرتها، كما بدأ تحويل المدرسة إلى مسار التعليم العادى.

رغم تأكده من غيابها إلا أنه لم يقطع الأمل فى عودتها يومًا، غير أنه كف بعد عام سبعة وستين عن الوقوف فى الشرفة، طرأ تغير على عاداته، يخرج مبكراً ولا يرجع إلا فى الحادية عشرة ليلاً، يلزم حجرته، فى الصيف يفتح نافذتها المطلة على المنور الضيق، المعتم، على الجدار المقابل تمتد ماسورتان متجاورتان، الأولى غليظة للصرف الصحى، الثانية نحيلة لمياه الشرب، قبل اكتمال نعاسه يقوم بسرعة، يغلقها خشية دخول حشرة سامة أو حية قاتلة، لا يعرف ما يخبئه المنور القديم.

يؤكد عطية بك أن ما يحكيه عن الأشمونى حقيقى، ليس من تشنيعاته، اثنان ألمّا بالتفاصيل كافة، أولهما رحل إلى الأبد، المؤسس رحمه الله، الثانى.. صاحبه هذا.

إنه المفتش بمديرية صحة جنوب العاصمة، مهمته المرور على المطاعم بقسم عابدين والسيدة زينب، إذا تغيب أحد زملائه يمكن أن يفتش على الموسكى، والجمالية، أما قصر النيل فلا يتولاه إلا المحظوظون لما يضمه

من مطاعم كبرى، أحدهم تخصص فى طبق معين فضّله الملك فاروق على غيره، ويؤكد حارسه الخاص فى مذكراته أنه افتقد مذاقه بعد خلعه واضطراره الإقامة فى المنفى، حتى طباخه الألبانى الأصل فشل، الطبيخ نَفَس كما يقولون. مطعم آخر تخصص فى الكباب والكفتة، قريب من قصر عابدين، كان الملك يحب استنشاق رائحة الشواء، لذلك أكثر من الوقوف بالشرفة الجانبية، وأطلق صاحبه اسم الملك عليه «حاتى الفاروق» فلما قامت الثورة غيره إلى «حاتى الأحرار»، ورغم وقوع المطعم فى دائرة الاختصاص إلا أن الأشمونى وصاحبه لم يدخلاه قط لصلات صاحبه بالشخصيات الكبرى، يوميًا.. يلتقيان، يتأبط كل منهم ذراع الآخر ويمضيان، يسأله صاحبه عما يود أن يأكله اليوم؟

يفكر لحظات، يستدعى قائمة الأمس، إنه يفضل لحمة الرأس، يتفقان على إيثار الحمام المحشى بالفريك وسلطة الباذنجان الأسود المخلل المتبلة بدقة الثوم المكسبر.

مطعم صغير بشارع الفلكى، قعدته متواضعة، لكن طعامه متقن، قديم النكهة، نجوم السينما، ورؤساء البنوك يرسلون فى طلب الحمام الذى اشتهر به، أما الأسماك فلا بديل ولا مثيل لمحمود السماك بأرض شريف وإن كان التردد عليه صعبًا ويجب أن يتم بحساب لمهابة صاحبه ورسوخ قدمه.

الحمام والسمك المقلى زينة الحياة الدنيا عند الأشمونى، يتأنى عند تناولهما، يطحن عظام الحمام، يبتلعه، يمصمص رءوس السمك، يلحس أصابعه عند انتهائه.

ظهورهما معًا مألوف، معروف لجميع أصحاب المطاعم والمقاهى

ومحلات العصير، الطريف أنه ما من مرة يفرغان فيها من الغداء إلا ويقدم المسئول عن الخدمة بها لفافة لما تيسر لزوم العشاء أيضًا، وما من مرة إلا ويسأل الأشمونى بعين الإيقاع :

«الحساب من فضلك».

هنا يصيح صاحبه منفعلاً وأحيانًا يمسك معصمه.

«مستحيل . . لن أسمح لك».

من يجهلهما يظن أن مشادةً حادة سوف تبدأ، لكن يتدخل صاحب المطعم أو المسئول قائلاً :

«علينا نحن هذه المرة».

عندئذ يرفع الأشمونى إصبعه منذرًا، محذرًا :

«فى المرة التالية لن نقبل» . .

سنوات طويلة والحال واحد، الأمور لا تتغير حتى فى تفاصيلها الدقيقة، لصاحبه سطوة، خاصة على المطاعم المتوسطة والمتواضعة، مجرد سطور تقول بعدم التزام الشروط الصحية تغلق المكان مدة لا تقل عن شهر، يؤكد عطية بك، إن أدق أسرار المؤسسة عند مفتش الصحة هذا، ولحسن الحظ أن المنافسين والمتربصين لا يعرفون شيئًا عنه، يكفى الإصغاء إلى ما يفضى به الأشمونى أثناء جلوسهما فى مسمط بيومى أو كبابجى الجمهورية، أو مقهى الندوة الثقافية المتخصص فى النرجيلة والشاى الجميل، كذلك مطاعم الكبدة والمخ المقلية فى باب اللوق وسوق الناصرية. من حسن الحظ أن المفتش يصغى ولا يستوعب، لم يحدث يومًا أن ناقش أمرًا يسمعه أو تفاصيل حادثة أصغى إليها.

نعم . . الأشمونى ملم بدقائق ما يجرى، وقفته عند المدخل أكسبته حاسة غامضة تمكنه من الاطلاع على خبايا يعجز القريبون عن الإلمام بها أو إدراكها . من دخلة شخص ما يمكنه التنبؤ، الملامح والخطى مرآة لما يجرى ويدور فى الداخل، يعرف درجة العلاقة ونوعية الصلة بين رجل وامرأة من هيئة خطو، بل يمكنه التمييز بين المرأة التى ضوجعت أمس من تلك التى لم يقربها ذكر .

خبير هو بمعرفة الحالة المزاجية لمن يشغلون المناصب العُليا، من بأيديهم الخيوط المؤثرة، والمفاتيح المؤدية . من مراجعة لقوائم الزائرين ومرات ترددهم على شخصيات بعينها تتضح أمامه الصلات، ليست القائمة بالفعل لكن المحتملة أيضًا، لم تخب نظرته قط فى الجدد الذين انضموا إلى المؤسسة، بدا أحيانًا مبالغًا، توقعاته بعيدة عن التصديق، لكن مرور الأيام يثبت ثاقب رؤيته .

يشير أحيانًا، إلى شخص معين، يتنبأ بما سيظهر عليه خلال مدة معينة، سيركب عربة فاخرة خلال عام واحد .

هذا سيتولى قطاعًا مهمًا بعد . .

عندما وقعت عيناه على صفية تعبر المدخل وجلة مترددة المظهر بعكس وثوق جسدها وشيوعه خارج أى ملابس، ما البال والبنطلون الجينز كان ضيقًا إلى حد تساءل عنده البعض : كيف أمكنها ارتداءه؟ كثيرون استعادوا تفاصيلها مرات، منها استمدوا الحمية وإشعال الرغبة، كأن لحظة ظهورها أول مرة انفصلت عما عداها، عن مسار الزمن واستقلت بذاتها فتيلاً ملهبًا للوجه والنشوة . لا ينسى الأشمونى إقبالها عليه، صدرها المشرع، فخذاها المتقدمان عليها!

يومها أجابها بهدوء، دلّها على الطريق.

فى لقائه اليومى بصاحبه قال إن شابة جميلة جاءت اليوم وأحدثت عنده رعدة، قال إنها ستضع المؤسسة فى جيبها ولكن إلى حين، وستقدم على ما لم يجرؤ عليه غيرها، من ذلك محو ما يتصل بالمؤسس، بما فى ذلك إلغاء اسم زوجته الأولى من الصابون المعطر القديم المشهور والذى استقر كعلامة تجارية راسخة، لن تعبأ بشىء، وهذا ما تحقق بالفعل.

لكن.. اليوم، بعد أن رأى خروجها مطرقة، بعد أن اقتفى خطواتها احترامًا وتقربًا، أيقن من استكانة ردفيها، وطريقة ركوبها العربة، أن ثمة أزمة حلت، وأن زمن صفية الأبنوبى بدأ فى الأفول.

لمعة الأزميرلى

أيضًا. . لم يخطئ الأشموني هذه المرة. تأكد للجميع أن خاطر سيادته تغيَّر على صفية، فى البداية سرى همس، ثم لاحت الشواهد المؤكدة، والعلامات التامة، مثل توقف تردد صوتها عبر مكبرات الصوت المبثوثة، والأهم. . ظهور القرارات خلواً من توقيعها، بعد يومين عاد توقيع انتشار القليوبى فأدرك الجميع أن زمن صفية يأفل، أو أنه انتهى فعلاً.

فى اليوم التالى مرت أمام الأشمونى فأيقن أنها «وقعت»، أومأ محييًا لكنه لم يتبعها كعادته، بل عاد إلى احتواء ردفيها المتمكنين بالبصر، فى اليوم الثالث لم تتجه إلى المصعد التاريخى، إنما وقفت تنتظر أمام الأحدث والأسرع، المؤدى إلى الحادى عشر، ومنه صعدت إلى الطابق الرئاسى عبر الدرج الحلزونى المستحدث بعد إعادة صياغة الطابق، حتى الآن لم تفارقه، أين تقيم بالضبط؟ فى مكتب سيادته أم فى مكان آخر؟ لا يمكن التحقق من إجابة قاطعة لأسباب عديدة منها جهل العاملين والمتعاملين بتكوين الطابق ومحتوياته، وعدم قدرة أحد على توجيه السؤال مباشرة إليها، الهمس فوق محدود جداً، وما يتسرب حول مكتبه شحيح للغاية، أما المقربون والذين تم صعودهم نتيجة ظروف مختلفة

فيلزمون الصمت، ويدربون ملامحهم على الالتزام بأوضاع معينة، وردود فعل متشابهة، لإدراكهم أن كل استجابة يمكن تفسيرها من جانب العاملين بالطوابق السفلى، ولا يعنى ذلك تلك الواقعة بالمقر الأصلى، لكنها تشمل المبانى التابعة للمؤسسة والمنتشرة فى المحافظات والأقاليم المختلفة، يبلغ ارتفاع بعضها أضعاف المبنى الأصلى مثل البرج الشهير المزدوج المطل على النيل، والموضوع فوقه إضاءات تحذيرية حمراء خوفًا من اصطدام الطائرات المقلعة أو المتجهة إلى الهبوط فى مطار القاهرة الدولى.

الطوابق كافة تحتية حتى لو بلغت العمارة ارتفاعًا شاهقًا بالنسبة للثانى عشر، ورغم الصمت المحيط بما يجرى فيه، فإن تفاصيل عديدة يتم تداولها بين من لا علاقة مباشرة لهم بالمؤسسة. بل إن قرارات تتخذ فيه تجد صداها فى أماكن نائية، وبين خلق لا يخطر على بال أحد وجودهم. ورغم الحذر الذى يحرص الكل على التزامه فإن الأمور تعرف بشكل ما لأنها تتعلق بمصائر العاملين ومن لا حصر لهم خارج الدوائر المنظورة. ملامح الأشخاص مصدر مهم، خاصة عند حديثهم، يصبح لها حضور خاص ينتج لغة غير مسموعة، وألفاظًا غير مسموعة، لكنها دالة، يكفى نظر أحدهم إلى آخر ليبلغه نبأ ما، أو ليلتقى تفسيرًا لأمر استعصى على الإدراك، إن القدرة على البوح تتزايد كلما ابتعد العاملون عن الطابق الرئاسى، كما أن حواس المسموح لهم بالتردد عليه أرهف من الآخرين، مثل السعاة الذين يحملون الرسائل، وعمال النظافة، خاصة العاملات منهن، لم يكن عسيرًا عليهم إدراك التغير الذى لحق بموقع صفية، ليس بالنسبة إلى المؤسسة، لكن.. بالنسبة إلى علاقتها بسيادته، من شكل

قوامها، من إيقاع خطواتها، من الجهات التى تتوجه إليها بنظراتها، من هيئة ما غائبة، لا يمكن إدراكها بالحواس المستنفرة، من هذا كله يمكن الوقوف بشكل ما على درجة العلاقة وأدق مستوياتها الحميمية.

أيقن الجميع أن قبضة صفية تتراخى، أنها لم تعد متمكنة، أن مزاج سيادته يتحول عنها، اعتاد العاملون قراراته المفاجئة التشهيرية، بدون أى مقدمات، لكنه اتبع معها أسلوبًا هادئًا مما يعنى أن ثمة شيئًا ما زال بينهما، لم يقرر إقصاءها إلى موقع بعيد، لم يصدر أمراً بإلغاء اختصاصها، واضح أنه حرص على شكلها أمام الآخرين وهذا مغاير لما عُرف عنه، مشهور هو بسخطه المفاجىء ورضاه غير المبرر، أحيانًا يقرب شخصًا ما منه فلا يعرف الآخرون السبب، ثم يتغير خاطره عليه ولا يقدم تفسيراً، أشد العاملين معاناة هم أهل الطابق الرئاسى نفسه، أو المسئولون عن الإدارات المركزية والقطاعات الرئيسة، أولئك المتصلون به مباشرة، ويلاحظ الأطباء المسئولون بالإدارة العلاجية الإصابات المفاجئة بالضغط والسكر وجلطات الشرايين التاجية المفاجئة وأمراض أخرى لم يتعاملوا معها من قبل، مما اضطرهم إلى التعامل مع أخصائيين كبار، وبالتالى طلب زيادة ميزانية العلاج. ومما تردد خفية أن سيادته يختار مرضًا قاتلاً أو مزمنًا لكل شخصية يضمر تجاهها كراهية أو ينوى التخلص منها أو إعجابًا مستتراً ربما ينقلب إلى حنق مفاجىء وغيرة مكتومة، وقيل؛ بل إنه يستعرض أسماء العاملين المرموقين، المعروفين بجهودهم أو أنشطتهم الاستثنائية، ويقرن كل منهم بما يجب إلحاقه به.

هذا جلطة فى الدماغ.

هذا قصور فى عضلة القلب.

هذا اكتئاب مع الاستمرار حتى انتحاره . .

هذه قطع القدرة على الإنجاب .

إنه لا يستعين بأعمال سحرية أو خفية ، بل أعاد دور الأزميرلى القديم وبث فيه قوة . وبمجرد شيوع طلوعه إلى فوق واجتماعه بسيادته توجس العاملون خفية ، وتوقعوا شروراً ، أسوأهم حالاً أهل الطابق الثانى عشر ، فدنو الأزميرلى مقضّ للمضاجع ، باعث على الخشية ، ورغم تقدمه فى العمر إلا أنه ضبع عجوز ، حتى الجواهرى دهش عندما علم بتعهد الأزميرلى لسيادته وضع خطة لإلحاق المرض المناسب لكل شخص يحدده سيادته ، بمن فيهم الجواهرى نفسه الذى قيل إنه قرن به طقة الدماغ المفاجئة . دهشة الجواهرى مصدرها معرفته الدقيقة بالأزميرلى ، إنه يفضل القبوع فى مكانه ونسج خيوطه حول الضحايا من بعيد . كيف يقبل التردد علنًا على الطابق الرئاسى مع علمه الأتم أن الكل مدرك لمهامه .

البعض أكد أن طموح الأزميرلى القديم كان الاستقرار فى الطابق العلوى ، وأن تعاونه الحميم مع أجهزة الأمن استهدف ذلك عملاً بقاعدة متعارف عليها ضمنًا ؛ أن من يتولى هذه النوعية من المناصب القصوى لابد أن يكون طالعًا من تلك الأجهزة أو يكون موضع ثقتها المطلقة ، لكن لأسباب شتىّ ظل الخبراء ومن بيدهم الأمر والنهى يتطلعون إليه باعتباره مصدراً مُقربًا ، وتلك درجة لا تدفعهم إلى إلقاء ثقلهم وراءه لدفعه إلى فوق ، نعم . . إنهم يسهلون له العديد من الأشياء ، لكنها محدودة فى النهاية ، أما علاقة الرئيس الحالى فمختلفة تمامًا ، إنها عضوية ، يرجعها البعض إلى سنوات دراسته الابتدائية بالمدرسة الأجنبية المشتركة عندما أمكن تجنيده لرصد حركة أب كاثوليكى يدّرس اللغة الألمانية ، سويسرى

الأصل، وكانت له صلات! منذ هذه السن المبكرة وثمة إعجاب بدقة تقاريره، وقوة حفظه وذاكرته، حتى أن بعضها يدرس الآن فى معهد الأمن القومى. غير أن شخصه ما زال محيّراً بالنسبة للمقربين منه. لطول صمته وندرة انفعاله وشدة معزوليته، ودراسته المبكرة لأنواع متقدمة من الحواسب الآلية. أيضًا. . لغريب عاداته.

يقال مثلاً إنه لا يقضى ليلتين فى مكان واحد، لديه على الأقل أربعة مواضع، واحد منها بدون هاتف، لم يكن يمضى وقتًا طويلاً فى الطابق الرئاسى، لكنه استحدث نظام السكرتارية الدائمة، بحيث يبقى باستمرار أحدهم جاهزاً للرد على الهاتف، أو تلقى الرسائل الصوتية أو إبلاغها، وكان سيادته يتصل من مكانه المجهول بانتظام، وكثيراً ما كان يتصل من سيارته الخاصة أثناء انطلاقه على الطرق السريعة المحيطة بالعاصمة، إنه مجنون بالطرز الحديثة، ويقضى إجازاته فى أوروبا ليستأجر الفاخر منها، وينطلق بها على الطرق السريعة متجاوزاً كل السرعات المتاحة. يؤكد الأزميرلى أنه لم يتعامل قط مع شخص يماثله، وأنه محير، وأثناء جلوسه إليه كان يتطلع بنظرات طولية، بريئة، تنقلب فجأة إلى شواظ قاتل.

قال أحدهم - لا يمكن تحديده -: إن صفية كانت الهدف الحقيقى للأزميرلى، وأنه أضمر لها كراهية غامضة، إلى درجة اتصاله هاتفيًا بالعديد من العاملين وتغيير صوته عند إخبارهم بتفاصيل دقيقة عن صفية، منها الاتجار فى الهيروين، وإخفاؤها البودرة عند سفرها فى أماكن حساسة. وإدارتها شبكة دعارة للقاصرات، وقيامها بإرضاء شذوذ أميرات عربيات وشخصيات متنفذة، كان يبغضها إلى درجة كتابة اسمها على أوراق صغيرة وحرقها، أو رميها فى المرحاض.

لمـــاذا؟

لا أحد لديه إجابة .

ربما تفسر تلك الكراهية تدخله السافر إلى جانب هانم الدمياطية ليلة واقعة الفنـدق، المؤكـد أنه تحالف مع النمرسى ضدها، ولا يعلم أحد ما قاله، لكن يتردد أن النمرسى أقسم برأسه أن ينزلها من الطابق الرئاسى كما كان سببًا فى صعودها، أن يخلعها من جواره، وقيل «من تحته»، ويبدو أنه أخلص النية وتفرغ عدة أسابيع بدون كلل يؤازره الأزميرلى، بعد جهد غير هين اكتشف بعضًا مما يثير سعادته وما يرضيه أيضًا، أيقن من عشقه سماع الأصوات الأنثوية المتخثرة، الدافئة، عبر الهاتف، أنه يغلق الباب تمامًا وينفرد داخل المكتب الدائرى، عبر الهاتف، أنه يغلق الباب تمامًا وينفرد داخل المكتب الدائرى، يجرب أرقامًا عشوائية حتى تلتقط طرف الخيط أنثى ما يجهلها، فى مكان ناء، يستخدم الاتصالات الحديثة المتاحة كافة بما فيها شبكة الاتصالات الدولية. يبدأ بالسؤال عما ترتديه من ملابس خارجية، ثم . . داخلية، ثم يصدر زفرة تتبعها آهة، ويتصاعد الفوران مع تلقى الاستجابات المتينة، كلما نأت المسافة وشسعت كانت متعته أقوى، تجاوزت ميزانية الاتصالات الخاصة به كل التصورات والتوقعات حتى أكد البعض أنها توازى تكلفة علاج العاملين كلهم، خاصة بعد استئجاره خطًا فى القمر الصناعى الأمريكى لممارسة الجنس عبر الفضاء الكونى .

يحتفظ بأرقام اهتدى إليها بعد طول تجارب، أحب الأصوات إليه يأتيه من المكسيك، مدينة تُعرف بآكا بولكو، رقم اختاره من الدليل المحلّى الذى وصل إليه بالصدفة أثناء إحدى رحلاته، لم يستفسر منها

عن اسمها، لو اطلعته عليه يحد ذلك من انطلاق مخيلته، الصوت يحدد الملامح، عندما يصغى إلى آهاتها وشخراتها تستنفر شرايينه وأوردته، وتلتهب عروق المتنصتين من بعض الأجهزة الأمنية، وآخرون فى مراكز استطلاع متقدمة، وبعض الجلوس بغرفة متابعة المكالمات المشكوك فيها بمبنى هيئة الاتصالات الدولية بنيو مكسيكو. مصدر نشوته بعد المسافة وفارق التوقيت، ثمانى ساعات فى الشتاء، سبع فى الصيف، الثامنة صباحًا هنا، منتصف الليل هناك، سريان اندماجهما عبر الأثير اللامحدود، علم هذه البنية المكسيكية أسماء الأعضاء وفاحش الألفاظ بالعربية، وكثيراً ما أبهجه نطقها.

من هنا انطلق النمرسى، يدرك بخبرته الطويلة أن القواد المتين يدبر الأمر، يرتب الظروف بحيث تبدو كأنها تمت عَرَضًا بدون قصد، طبعًا هو يفهم، والآخر يفهم، لكن التواطؤ محكم وجميل.

اتصل بالسكرتير الليلى وأخبره عن رسالة صوتية مهمة يجب تسليمها إلى سيادته فوراً، شريط فى مظروف، مدته عشرون دقيقة، بصوت من؟ بصوت رشيدة السويسرية، أصغى إليه فى الطابق الرئاسى صباح اليوم التالى، فاستعاده ثلاث عشرة مرة وتمنى لو كان طوله ثلاثين ليلة!

فى اليوم نفسه رتب اتصالاً بين سيادته وبينها، جاءته التعليمات عبر السكرتير النهارى، أبلغه تحيات خاصة وسأله عما إذا كان يحتاج إلى شىء ما، غير أن النمرسى شكر سيادته كثيراً وقال: إنه خادم مطيع، ويتمنى فقط الرضا عنه.

التهب الخط المباشر بين سيادته ورشيدة، رأى منها عجبًا، لم تحل فقط مكان المكسيكية، إنما شغلته عن صفية أيضًا، توارى النمرسى بسرعة،

تلك عادته بعد التمام، أحيانًا يتأثر لسرور من جمعهما معًا وانبساطهما حتى ليدمع. فى أحوال نادرة يحاول الوقوف على التفاصيل.

غير أن صوت رشيدة المغناج لم يكن الوسيلة الوحيدة، يؤكد الأشمونى لصاحبه أن النمرسى وضع تفاصيل علاقة صفية بصاحبها الرسام ساكن وكالة الغورى، وأنه تمكن من تجميع صور اللوحات التى استوحى فيها أردافها المتمكنة. ولم يكن صعبًا على سيادته اكتشاف ملامحهما والتعرف عليهما مهما بلغت الخطوط والأشكال من التمويه والبعد عن الأصل، كان سيادته يطلب منها إخفاءها بقدر الإمكان، أن ترتدى ما يخفف تأثيرهما الانفجارى، بل طلب منها ألا تمكن زوجها من لمسهما أو الاستمتاع بهما. وعندما أصغت إلى ذلك ضحكت ضحكة لولبية دهش لها سيادته مما دعاه إلى الاستدارة ليواجهها مستفسراً، قالت إن زوجها لا يطول منها شيئًا، لا من هنا ولا من هناك، عندئذ هز سيادته رأسه قائلاً بصوت خافت «حرام عليك».

عندما بدأت عملية شراء اللوحات الفنية من مشاهير الفنانين، والمعارض الفنية التى تعقد بانتظام، بررت ذلك بتحميل المبنى الأصلى، وحفظ ثروة تتزايد قيمتها مع الزمن، اللوحة التى تحمل توقيعًا مجهولاً اليوم قد يصبح مشهوراً فى المستقبل، تتضاعف قيمتها، كذلك التماثيل وقطع الخزف. الحق أنها أضفت على المقر بعداً جديداً حاراً مصدراً لزهو العاملين، وأنشأت سجلاً للمقتنيات الفنية، موضحًا به المواصفات الدقيقة وتاريخ الاقتناء، وأعدت مذكرة لتحويل إحدى القاعات المهملة بالطابق الثانى كمتحف خاص يقصده الزائرون وخاصة أعضاء الوفود الأجنبية، الحقيقة إن مبادرتها جيدة، ولكنها لم تتم، ذلك أن الأزميرلى-

ربما بإيعاز من النمرسى - نبه سيادته إلى شراء عشر لوحات كاملة من هذا الولد نزيل وكالة الغورى وبأسعار مبالغ فيها، وكان ذلك سببًا آخر لإقصاء صفية، ويقال إن سيادته طق شرراً عندما تأكد من ذلك، فأمر بإبطال ما تمّ وتخزين اللوحات فى غرفة مغلقة.

رغم خشية الكثيرين من تزايد طلوع الأزميرلى إلى الطابق الرئاسى إلا أن اتصالات سيادته بالنمرسى زادت على كل حد، الآن.. لا يطلبه عن طريق وسيط، إنما مباشرة، وفى ساعات متعددة، مختلفة، بل أمر بضمه إلى حملة «البليب»، وأضاف اسمه إلى قائمة حملة الهاتف المتنقل والمنتظر تعميم فوائده قريبًا.

النمرسى تدركه خشية عندما يقترب أكثر مما يجب، القواد الشاطر يؤدى مهمته ويبتعد، استمرار حضوره غير مرغوب، إنه يفضل التوارى، ألا ينطق كثيراً، لا يحب الجلسات والحفلات، يبدو ثقيل الحضور، سنه المخلوع من مقدمة فمه تضفى على ابتسامته غموضًا مقلقًا، رغم نفوره من المناسبات، إلا أنه صاحب أعلى معدل فى تلقى الدعوات، سفارات، وفروع نوادى الروتارى والليونز وجمعيات تحسين الصحة والرعاية المتقدمة والعروض الأولى للمسرحيات والأفلام، ومناسبات شتى يعرفها الأشمونى أكثر منه لأنه لا يهتم ولا يلبى إلا نادراً. لا يعرف أحد أين يقضى أوقاته، خاصة فى المساء، لكنه وثيق الصلة بأصحاب مطاعم ثابتة وعائمة، ومديرى فنادق خمسة نجوم، يقيم فيها ولا يدفع، المؤكد أن حجرة محجوزة باسمه المدة كلها، يمارس من خلالها انتقالاته ومهامه.

إنه لا يقدم خدماته وخبراته إلى الرجال فقط، بل النساء الثريات القادمات من بلاد نفطية محافظة، يقمن فى الفنادق الكبرى شهور الصيف أو فى مساكن خاصة بمنطقة المهندسين والدقى، يسيطر تمامًا على خلاصة من الشبان حسنى الهيئة أقوياء البنية، أكفاء متقنين، درب بعضهم بنفسه وأطلعهم على أفلام يصعب مشاهدتها ليتعلموا، ويفهموا، سطوته عليهم لا تقل قدرة عن احتوائه الجميلات وتسييرهن كما يرغب وتقتضى المصلحة.

إنه يدبر الأمر، يرتب اللقاءات بين الأطراف المحتاجة، ذروة حيويته وإقباله بعد خلوة اثنين جمعهما معًا، مرة وحيدة ضاق بنفسه وشرع فى إظهار المرض، عندما اتصل به شخص لم يلتق به فى حياته، طلب منه المساعدة فى مهمة خاصة جداً، جداً. فى لقائهما شرح له الأمر؛ ذلك أن شخصية خليجية كبرى، متنفذة، مهيمنة، دول كبرى تخطب ودها، سيقوم بزيارة تستغرق أسبوعًا، سيترتب عليها توقيع اتفاقيات هائلة الحجم ذات آثار بعيدة المدى على المنطقة وليس بالنسبة للبلاد وحدها. هذا الأمير يهوى الغلمان، يفضل ما بين الرابعة عشرة والسادسة عشرة، ومن كانت أمه أجنبية وبالتحديد إيطالية، فى كل مرة يتعرض لغش بيِّن من محترفين مكارين لا ضمير عندهم.

أبدى النمرسى اشمئزازًا، الغريب أنه فى اللحظات الحرجة التى تسبق الاتفاق أو التصريح بالمطلوب لا يعرف اللف أو الدوران، الوضوح ضرورة، قال:

«لكننى لم أشتغل فى العيال من قبل..»

دنا الرجل منه، أشار بأصبعه المستقيم، المصلحة تقتضى، لن يشرح أكثر من ذلك، فى هذه اللحظة خشى النمرسى، يعرف تمامًا ما يمكن أن يدبر له، ليسوا فى حاجة إلى تلفيق أو توفيق، فليبدأ. . طلب إمهاله فترة ستنتهى قبل وصول سموه، بحيث يجد طلبه جاهزًا عند حلوله. بدأ على الفور عمله، وخلال أيام ثلاثة وصل إلى الهدف المنشود تمامًا بواسطة امرأة ذات أصل يونانى تجاوزت الستين، تسكن شقة قديمة بشارع شمبليون، ولها معجبون كُثر، معظمهم من صغار السن، ورغم التهنئة الرسمية التى تلقاها، والوعد بالوصول، إلا أن اشمئزازًا يلم به كلما استعاد التفاصيل.

الآن. . يسرع الأشمونى عند رؤية النمرسى، يصحبه حتى المصعد، يظلُّ مبتسمًا، موافقًا، شيئًا فشيئًا بدأ النمرسى يعدل من خطواته إلى الأبطأ، وكف عن استمرارية الابتسامة وشدَّ من قامته وعدل وضع رأسه، منذ اتجاهه إلى المدخل بعد مغادرة العربة الجديدة المخصصة له والتى فضل أن يقودها بنفسه متنازلاً عن السائق الخاص حتى لا يعرف أحد الجهات التى يقصدها سواء فى ساعات العمل الرسمية أو بعدها، وحتى صعوده إلى مكتبه، وبقائه ثم انصرافه لا يكف الآخرون عن السعى إليه والحديث إليه وطلب قضاء الحوائج منه. معروف الآن أنه القنطرة المضمونة المؤدية إلى سيادته، مثل هذه الوضعية لا تخفى، وعندما تأكد الجميع قوبل الأمر بابتسامات خفية، وتعليقات إيحائية، ولكن خلت المشاعر من الخوف أو البغض كما جرى عند طلوع سعد الأزميرلى لفترة وجيزة، ربما لأن النمرسى لم يتسبب فى إلحاق الأذى بأحد، وأمضى وقته بعيدًا عن الصراعات العلنية والتحتية، كما أن موقفه

ليلة المطعم من هانم الدمياطية قوبل بامتنان خفى، ترسخ أكثر بعد التأكد من دوره فى إقصاء صفية، الواقع أنها لم تختفى تمامًا، صوتها الذى تردد عبر المكاتب والصالات خلال مدة ارتقائها بدأ يشيع على نطاق واسع لم يتصور أحد أنها ستبلغه يومًا، أصبح ملازمًا للعديد من الإعلانات التى تبث على القنوات المحلية والفضائية ويسمع فى جميع طائرات الشركة الوطنية قبل الإقلاع وبعد الهبوط، تنصح بتعليمات السلامة أثناء الطيران، أو بضرورة ربط الأحزمة أو الامتناع عن التدخين، وكيفية استخدام سترة النجاة، قال مسافرون محترمون إنه متميِّز، مثير للدغدغة، لقد أنشأت شركة إعلانات تديرها بمصاحبة الرسام، أما رأس المال فمما تجمع من تحويلات زوجها الذى لم يكف عن تحويل كل درهم يحصل عليه، ولم يكن يراها إلا فى المناسبات، على أى حال لم تكن الإعلانات إلا بداية، إذ شاهدها العاملون ومعهم جمهور المتفرجين الواسع تقدم برنامجًا يفسر الأحداث الدولية، وكتب أحدهم فى عموده اليومى مشيداً بحوارها الذكى المعمول، وأكد آخر أنها إضافة إلى تراث التليفزيون الذى ولد عملاقًا.

بعد انتظام ظهورها فى التليفزيون خفت رجلها من المؤسسة، وتردد أنها حصلت على إجازة بدون مرتب، وقال الجواهرى معلقًا، إنها ستمضى إلى النسيان بسرعة بالنسبة للمؤسسة، ولكم عرف العاملون القدامى مثيلاتها، جئن، ولمعن، ثم ذهبن، وقليلات هن اللواتى بقى ذكرهن طيبًا، منهن المكملة الفاضلة هانم التى لا يعرف أحد أخبارها الآن، وإن أكد الأشمونى مشاهدتها فى مطعم سياحى على الطريق المؤدى إلى سفارة، كانت تجلس إلى شخص لا يعرفه، صاحبه مفتش

الصحة أصبح مسئولاً الآن عن منطقة الأهرام كلها، ولم يسره ذلك رغم تعدد المطاعم وجودتها وذلك لبعد المسافة وعدم قدرته على مصاحبته إلا فى أيام العطلات والإجازات.

فى ذلك الصباح لاحظ الأشمونى ظهور علامات الطابق الثانى عشر على هيئة النمرسى، بانت عليه قبل طلوعه، فأيقن من ترسخه واستمراره حتى بعد الأحداث الغريبة التى وقعت.

تواتر الأحوال

كأن ما جرى تمهيد، مقدمة لصعود النمرسى النهائى غير المتوقع من كثيرين، أو للحوادث الغريبة التى جرت متوالية، وأولها ما أشيع حول ظهور منشورات مجهولة المصدر، وُزعت فوق المكاتب بعناية، وفى جميع الأماكن المطروقة وغير المعروفة، بما فيها الطابق الثانى عشر، رسائل كل منها صفحة واحدة، مكتوبة بعناية على الحاسب الأولى موجهة إلى العاملين المخلصين من أبناء المؤسسة تحذّرهم من المصير القاتم الذى يتهدد أبناءهم، فهذه المؤسسة التى تسببت فى فتح آلاف آلاف البيوت، وإثراء الاقتصاد القومى، مهددة الآن نتيجة القروض الضخمة والمشروعات المكلّفة التى تم التعاقد عليها بدون الرجوع إلى أهل الخبرة، فمنذ مجىء سيادته ومجلس الإدارة بأعضائه المنتخبين والمعينين لا يجتمع واستحدث أمراً ليشترى صمتهم، إذ قرر مكافأة ثابتة شهرية لكلٍّ منهم، بعكس الوضع الأول عندما كانت المكافأة مرتبطة بانعقاد المجلس وكانت تسمى بدل حضور.

تعرضت المنشورات لعلاقة سيادته بصفية ومنحها حق التوقيع على الشيكات الخاصة والوديعة التاريخية بالبنك الأهلى، ونفى ما قيل عن خلاف بينهما، إنما خرجت من المؤسسة لتبدأ استثمار أموال العمولات التى حصلت عليها والمبالغ الهائلة التى سحبتها عنوة وبدون مبررات قانونية حقيقية.

لم يتوقف المخضرمون عن مضمون المنشورات، لكن ما أفزعهم

ظهورها وتوزيعها، حتى فى الطابق الرئاسى، لذلك دلائل خطيرة لا يعرفها إلا أمثالهم، المؤسسة التى كان نظام الأمن الداخلى يدرس بها الأكاديمية العليا.

طبعا تمّ جمع المنشورات بسرعة، وقام الأشمونى ورجاله بتفتيش دقيق للخارجين عند الظهيرة، ولكن بدا واضحا أن ما يقوم به الأشمونى تحصيل حاصل، وأن الأمر يخرج عن طاقتهم أجمعين، المنشورات ظهرت فى دور صحف، ومؤسسات أخرى منافسة، واتخذ بعضها طريقه إلى رجال الاستخبارات المتسترين فى السفارات الأجنبية.

فى اليوم التالى مباشرة ترددت تفاصيل واقعة مثيرة، إذ تم ضبط نور الساعى مع موظفة تحت التمرين فى الواحدة والعشرين من عمرها، أن يضبط رجل مع امرأة فهذا جرى كثيرا، حتى فى زمن المؤسس الذى عُرف بفحولته، وممارسته الجنس مع سيدات مرموقات وموظفات، وعاملات أثناء الاستراحات التى تتخلل الاجتماعات، ويحكى صديق النوبى عن وقائع مثيرة، وأسماء لا تخطر على بال، رآها بعينيه، ومن الأمور التى لا ينساها واقعة الشنترى، كان موظفا جادا، منضبطا، ممن لقنهم الجواهرى الأصول مباشرة، انتدب لمدة ثلاثة أيام إلى الطابق الثانى عشر، مهمته فض البريد وترتيبه تمهيدا لعرضه على سيادته، لاحظ وجود خطاب عاجل يحمل الشارة السيادية، اتجه مباشرة إلى المكتب الدائرى القديم، الباب لم يغلق قط زمن المؤسس، هذا ما يردده العاملون المخلصون بحسرة بعده، دفعه غير أنه فوجىء بمؤخرة شاهقة التكوين والبياض، منغلقة بروعة، تضوى أمامه، وكان المؤسس يستند إلى المقعد التاريخى وصاحبته تعلوه، تلاقت عيناهما، لم يبد على المؤسس أى رد فعل، بل أشار إلى الشنترينى ليضع الرسالة المهمة فوق منضدة صغيرة

مجاورة للباب، لكن الرجل المنضبط لم يلحظ أى شىء سوى المصيبة المتوقعة، انسحب على الفور إلى موقعه وبعد لحظات بدأ يرتجف مرتعدا لاعنا اليوم الذى جاء فيه إلى العالم، توقع حلول الكارثة، فصله التعسفى، نقله إلى موقع صحراوى، تدبير تهمة، غير أن ذلك لم يقع منه شىء، وزاده ذلك سوءا على سوء، لو أن المؤسس نهره، لو وجه إليه اللوم.

يقول عم صديق - رحمه الله - إن الشنترينى راح يلف فى المؤسسة متوقفا أمام كل مؤخرة، منحنيا، مدققا، محاولا التعرف، ثم فوجئ الجميع بوقوفه مستندا إلى الجدار الذى يحد الفتحة الدائرية، نصفه الأسفل عار تماما، معلق عليه لافتة كتب عليها بخط جميل، عبارة واحدة فقط. .

«بأم عينى» . .

فور علم الجواهرى أجرى اتصالا واحدا فقط، ثم توجه إلى الشنترينى، كان يوما شتويًا باردًا، راح يمصمص بشفتيه أسفا، الشاب المتزن، العاقل، الذى يوقع يوميا فى مواعيده تماما، يا سلام. . أى الأمور يمكن أن تحل بالإنسان فجأة، وصلت عربة الإسعاف ونزل الممرضون الأشداء، والطبيب النفسى الذى تظهر صورته أحيانا فى الصحف، أكد خطورة الاضطرابات النفسية التى يعانيها.

كل شىء يمكن قبوله داخل المقر، لكن خروج الوقائع وتداولها أخطر ما يهدد المؤسسة، تلك أسس قوية أكدها المؤسس واستمرت بعده، حتى وإن توارت تحت السطح.

المشكلة أيضا تتعلق بالطابق الرئاسى، كيف جرؤ نور على إتيان ذلك فوق؟ أغرب ما قيل إن الطابق خال من العاملين منذ فترة، وأنه لا يمكث به إلا أعضاء السكرتارية النهارية والليلية والسعاة، ولأن المكان كله

معزول تقريبا عن بقية الطوابق، ويتم الصعود إليه بإذن خاص بدأ بعض العاملين فيه يتصرفون على راحتهم وخاصة أن معظمهم مطالبون بالبقاء ساعات طويلة بدون عمل حقيقى أو بذل جهود تشغلهم، لكن . . هذا طبعا لا يبرر ما جرى، ولا يعطى أمثال نور العذر، سيقول الآخرون ومن بنفوسهم حقد على المؤسسة: انظروا . . إذا كان ذلك ما يجرى فى الطابق الرئاسى، فماذ يحدث إذن فى الأدوار التحتية؟

إنما ظهر انشغال الجميع بأخبار المنشورات السرية، من يقف خلفها؟ من الداخل أو الخارج؟ كيف تمكنوا من النفاذ إلى الطابق الثانى عشر؟ هل ثمة اتصالات بالجماعات الأصولية النشطة؟

أسئلة عجيبة وعديدة تصاعدت وتكاثرت إلا أن ما تردد عن واقعة نور مع الموظفة الشابة حد منها وشغل تفكير الكثيرين، ولاح خوف غامض على استقرار المؤسسة ومصيرها، خاصة عند القدامى، كان ممكنا أن تمرّ الواقعة بدون ضجيج مبالغ فيه، لولا ما أحاط الطابق الرئاسى من غموض وعزلة وتشدد فى طلوع المسئولين ورؤساء القطاعات إليه، يقسم الأشمونى صادقا أنه لا يعرف المكان الذى يدخل منه سيادته أوضيوفه، بل . . ما من علامة تدل على حضوره أو غيابه، العربات الخاصة به تقف فى الساحة الخلفية، يظهر بعضها أحيانا أمام المدخل الرئيسى، لكن لا يعرف أحد ما بداخلها، الزجاج قاتم، والسائقون ملامحهم غير معروفة، لا يختلطون بالقدامى، لا ينطقون إلا نادراً، معظمهم ذو شوارب كثة، يرتدون زيًا موحداً، جاكتات ياقوتية، وبنطلونات رمادية وأحذية حمراء غامقة، يجد الأشمونى صعوبة فى تمييز أحدهم عن الآخر، المثير أن البروفسيور قلقاسة، رغم مكانته، إذا لمح أحدهم عند خروجه أو دخوله يسارع بمصافحته، بل . . وينحنى.

ما من علامة مصاحبة لمجيء سيادته أو انصرافه من الطابق، لا تسبقه حقيبة كما كان الأمر مع المؤسس، إذ اشتهرت الحقيبة المصنوعة من جلد التمساح النيلى، ظهورها فى يد عم صديق النوبى يعنى أنه على وشك الخروج أو . . الوصول، يسرى الخبر بصيغ مختلفة.

«الحقيبة خرجت» . .

الحقيبة وصلت» . .

اللفظ يدل ويوحى، كان لسيادته - رحمه الله - مهابة، توضع فى الاعتبار مهما بعد حضوره أو غاب، أغرب ما تردد أخيراً، خروج سيادته من مكتبه الداثرى، مشيه متمهلاً، إظهاره البشاشة والسرور، يجلس فى الصالة الرئيسية أو يفتح إحدى الحجرات ويفاجىء المقيم بها، عندئذ تتغير الملامح، وتتبدل الأوضاع، حتى درجة الضوء، يدرك المقربون أن الحالة المزاجية معتدلة لسيادته، يفارق آخرون أماكنهم لمصافحته أو لرؤيته مع إظهار الود، وتلقى أى إشارة استحسان منه يتباهون بها، وأيضا . . للتذكير بوجودهم. لكن . . ملامحه التى لا تعكس أبدا ما يدور داخله لا تدلهم ولا توحى لهم. عندئذ يبدأ القلق الذى يتحول عند البعض إلى حالة خوف، بل . . وذعر، يخيل إلى بعضهم أنه أتى تصرفا أغضب سيادته، أو أثار ضيقه، مثل هذه المشاعر أودت بالبعض إلى مصائر شتى، وآذت كثيرين، وهناك من دخلوا صلات معه بدون أن يقابلوه أو يلتقوا به. فتارة يتعاملون مع أنفسهم على أنه راض عنهم، ومرة يظهرن الحزن، وبعيدا عن المؤسسة يختلقون حوارات لم تحدث أصلا يقصّون تفاصيلها على معارفهم الذين لا تربطهم بالمؤسسة أى صلات، لا من قريب أو من بعيد، والوقائع عديدة، كثير منها معروف.

بالتأكيد أحدث تصعيد النمرسى رجّة، كالعادة فى المرحلة الأخيرة

فوجئ العاملون بالقرار معلقا فى اللوحات الرئيسية، وتمنى الكثيرون ظهور منشور سرى يندد، لكن . . لم يحدث شىء.

الأشمونى قال لصاحبه موظف الصحة إن ترقية النمرسى جرت بعد ضبط نور الساعى الأسمر مع الموظفة فى المكتب لتنظيم مثل هذه الحوادث، ولإشرافه على تأجير القاعات والحجرات لطلاب المتعة، غير أن صاحبه فاجأه بما لم يتوقعه، تطلع إليه محتداً، قال إن النمرسى أفاد المؤسسة، ولا لوم عليه لأن طبيعة عمله تقتضى ما قام به.

ابتلع الأشمونى ريقه ولزم الصمت، ماذا جرى لصاحبه؟ لم يستطع أن يأكل رغم أنهما فى ضيافة مطعم لفواكه البحر افتتح حديثًا، يقدم أطباقا بحرية مطهية على الطريقة السويسية، ومشوية أيضا.

ماذا يعنى انفعال صديق عمره؟

هل انتابته حالة مزاجية عارضة، أم أنه يقوم بمهمة منذ عدة سنوات؟ هل تربطه صلة بالنمرسى؟ هل كان ضحية خديعة كبرى؟

ما من إجابة شافية، لو أقدم على إبداء الجفوة سيصير إلى وحدة صعبة، كيف يقطع صداقة استمرت طوال هذه السنوات، إن سعيهما معا ودخولهما المطاعم وإصغاء كل منهما إلى الآخر مما لا يمكنه الاستغناء عنه.

هل أخطأ عندما تعامل مع صاحبه كأنه آلة تسجيل، كان يتكلم أكثر مما يستمع إليه، ولا يهتم بردود أفعاله أو آرائه فيما يصغى إليه، لا يمكنه أن يحتجب عنه الآن، إنه فى حاجة إليه، لكن . . ليلزم الحذر بعض الوقت، ليرصد أى علامة تبدو، فى الليل لام نفسه وتساءل: ماذا تبقى لكى أخشى منه إذا شككت فى الإنسان الوحيد القريب؟

نام متوتراً، استيقظ عدة مرات، عندما غادر الفندق صباح اليوم التالى

بدا متثاقل الخطى، حزينًا، متهدل الكتفين، لماذا لا يبدى اهتمامًا خاصًا بالنمرسى، خاصة أن صلاحياته الجديدة تعطيه الحق فى إستخدام المصعد الرئاسى، لكن.. عند وصوله همس إليه مساعده بما يردد عن عرض قطاعات مهمة تابعة للبيع، وأن تصعيد النمرسى وثيق الصلة بما سيتم لصلاته الواسعة بأثرياء عرب يمتلكون الأموال اللازمة.

سرى همس بتربص احتكارات دولية ذات أذرع طولى، وثيقة الصلة بمؤسسات صهيونية متنفذة فى أسواق المال العالمية.

قال حسن الأقصرى: إن هذا المناخ لم تعرفه المؤسسة من قبل، وإن سيادته أهمل عقد مجلس الإدارة متعمدا، ولم يلتق باللجنة النقابية منذ شهور، إنه يتصرف وكأن المؤسسة ملك خالص له، أين الرجال.. أين أمثال الجواهرى وعطية بك، أين؟

البلبلة تسود العاملين، المؤسف أن اللقاء به أصبح مستحيلا، الجميع يسمعون عنه ولا يرونه، يفاجئون بقرارات معلقة، وأوامر تُقرأ فى الإذاعة الداخلية، لا شروح، ولا تفسيرات، لا أحد يشرح، حتى مقابلة النمرسى الآن، وعرة، كثيرون لا يصدقون حتى الآن استقراره فى الطابق الثانى عشر، وردد بعض القدامى أن نذر السوء تجتمع، وأن المؤسسة تمضى فى طريق مجهول، وأن دمدمة تُسمع فجراً فى الحفرة الدائرية، وثمة رجفة تقع يوميًا فى الثالثة والربع عصراً، تتزايد قوتها باضطراد وما من تفسير يهدى الخواطر ويريح الأفئدة القلقة على مصير المؤسسة.

جمال الغيطانى

١٩٩٠ـ ١٩٩٦

الفهـــرس

رقم الإيداع ٢٠٠٢/٩٧٠١
الترقيم الدولى 4 - 0827 - 09 - 977

مطابع الشروق
القاهرة : ٨ شارع سيبويه المصرى ـ ت: ٤٠٢٣٣٩٩ ـ فاكس: ٤٠٣٧٥٦٧ (٠٢)
بيروت : ص.ب: ٨٠٦٤ ـ هاتف : ٣١٥٨٥٩ ـ ٨١٧٢١٣ ـ فاكس : ٨١٧٧٦٥ (٠١)

حكايات المؤسسة

يطرح مشروع الغيطانى قضايا تحتضن النص الأدبى وتتجاوزه، عنوانها: أزمة الحداثة القائمة وأزمة البحث عن حداثة مغايرة، ففى مقابل حداثة اجتماعية زائفة تلغى «الذات» وهى تنفتح على «الآخر»، هجس الغيطانى بحداثة أخرى، تذهب إلى «الذات الوطنية» قبل أن تتوسل «الآخر» وتقف على أعتابه، وفى مقابل حداثة أدبية، تستقيم تارة وتنحنى تارة أخرى، سعى الروائى إلى أرض خاصة به، يحاور فيها نموذجا لا يغترب عنه، وأسلوبا لا يستعصى عليه، ومنظورا أنس إليه، منذ كان صبيا. وقد تبدو رحلة الغيطانى، وقد صاحبتها الأزمنة، للبعض، متكلفة ومليئة بالغموض، تكتب ما كُتب، وتستقدم ما لا حاجة إليه. وما يقول به هذا «البعض» خاطئ ويجانب الصواب، فى أكثر من اتجاه. فالغيطانى يحاور الماضى بمعرفة من الحاضر، أى أنه ينظر إلى الماضى، وهو زمن محدد ومحدود بزمن لاحق أكثر اتساعا وتعقدا، الأمر الذى يجعله يقرأ الماضى ولا ينغلق فيه. وهو يتعامل مع الموروث، وهو عمومية ثقافية، بمنظور روائى لا عمومية فيه، أى أنه يقرأ «المعطى البسيط» بمنظور لاحق متقدم عليه، ذلك أن الزمن الروائى، فى دلالته الثقافية، يتضمن «زمن الموروث» ويفيض عليه فى آن. لذا، فإن نص الغيطانى لا يستقدم الماضى إلى الحاضر، ولا يرحّل الحاضر إلى الماضى، بل يتكوّن فى زمن متغير ومتنام خاص به، يتهم حداثة يعرفها، ويبحث عن حداثة أخرى، يتعرف عليها، دون انقطاع.

د. فيصل دراج
نظرية الرواية العربية

على الغلاف: لوحة للفنان حلمى التونى



القاهرة: ٨ شارع سيبويه المصرى - رابعة العدوية - مدينة نصر
ص.ب: ٣٣ البانوراما - تليفون: ٤٠٢٣٣٩٩ - فاكس: ٤٠٣٧٥٦٧ (٢٠٢)
e-mail:dar@shorouk.com